

الفصل الاول

فتوح العرب في بلاد الافرنج

فتح المسلمون اسبانيا سنة ٩٢ هـ (٧١١ م) بقيادة طارق بن زياد البربري كما بيّنا ذلك في رواية « فتح الاندلس » . وكان طارق من موالي موسى بن نصير عامل بني امية على افريقية اي من اتباعه وموسى يومئذ شيخٌ قد ناهز الثمانين من عمره . فلما فتحت الاندلس اصبحت من توابع تلك الولاية او فرعاً من فروعها . وعامل افريقية يقيم في القيروان وهو الذي يولّي عمّال الاندلس . وما زال ذلك دأب الاندلس حتى استقلت على عهد الدولة الاموية الاندلسية بعد ظهور العباسيين في المشرق

فلما تهيأت اسباب الفتح لموسى وهو في افريقية استشار الخليفة في ذلك فوافقه وحذره فلم يشأ موسى ان يفرط في جند العرب وهم يومئذ قليلون بالنظر الى اهل البلاد الاصليين في معظم البلاد التي فتحوها وخصوصاً في افريقية فأنفذ في تلك المهمة حملة اكثرها من البربر سكان افريقية الاصليين وقائدهم مولاه طارق . فلما حصلت الواقعة بين طارق ورودريك في فحص شريش وقتل رودريك سنة ٩٢ هـ اصبح فتح الاندلس امرًا مقضياً ولم تمضِ سنة حتى فتحت قرطبة ومالقة وطليطلة وغيرها من مدن الاندلس العظمى وتأيدت شوكة المسلمين هناك

فلما بلغ خبر ذلك النصر السريع الى موسى تمنى ان تكون له يدٌ فيه فكتب الى طارق ان يتوقف ريثما يأتيه هو وجنّد جنداً آخر من العرب والبربر وقدم الى اسبانيا من جهة أخرى ففتح مريدة وسرقوسة وغيرها . ولما رأى سهولة الفتح عليه أوغل في اسبانيا حتى تجاوز جبال البيرينة الى فرنسا فغزا بلاداً منها الى نربونة وقد عزم على مواصلة الفتح في بلاد اوربا حتى يعود الى الشام من طريق القسطنطينية[١] فيتم له فتح العالم المعمور يومئذٍ ولم يكن باقياً منه الى ذلك الحين غير اوربا وكانت في غاية الاضطراب والانقسام كما سيأتي

(١) المقرّي ج ١

شارل وعبد الرحمن

فوقع في اثناء تلك الحروب خلافٌ بين موسى وطارق واستفحل حتى اضطرَّ الخليفة في دمشق الى استقدامهما اليه للنظر في امرهما فشخصا الى الشام وولّى موسى على اسبانيا ابنه عبد العزيز فجعل قصبته اشبيلية · اما موسى فانه اتى دمشق ومعه من الغنائم والسبايا ما لا يحصى وجاء طارق ايضاً (سنة ٩٤ هـ) وتحاكم الاثنان الى الخليفة الوليد· فتوفي الوليد في اثناء المحاكمة فخلفه اخوه سليمان بن عبد الملك سنة ٩٦ هـ وكانت بينه وبين موسى ضغائن فشدد النكير عليه وعلى اولاده فأوعز الى بعض الامراء في الاندلس ان يقتلوا عبد العزيز فقتلوه وحملوا رأسه محنطاً الى دمشق · وكان موسى في السجن فاستقدمه سليمان واراه رأس ابنه وسأله هل يعرفه فدعا موسى على قاتله وأثَّر ذلك المشهد فيه فمات بعد قليل· ولا ندري ما انتهى اليه امر طارق

ذهب موسى وطارق ولم يذهب من فكر العرب فتح اوربا فكانوا يرقبون الفرص ويحول دون مرادهم ما انتشب من الخصام بين قبائلهم · على انهم عادوا الى مشروع موسى من طريق آخر فانفذ الخليفة سليمان سنة ٩٨ هـ حملة كبيرة عن طريق القسطنطينية بقيادة اخيه مسلمة بن عبد الملك فحاصرها · وطال حصارها حتى توفي سليمان وتولى الخلافة عمر بن عبد العزيز سنة ٩٩ هـ فاسترجع الجند وقد امتنع عليهم الفتح من ذلك الطريق فعادوا الى السعي فيه بطريق الاندلس

وتوالى على الاندلس عدة امراء فتحوا مدناً كثيرة من جنوبي فرنسا لم تثبت اقدامهم الأفي قليل منها · ثم افضت الامارة الى عبد الرحمن الغافقي سنة ١١٢ هـ (٧٣٠ م) وكان رجلاً حازماً كريماً تقياً محترماً غيوراً على الاسلام والمسلمين فأخذ على عاتقه استئناف العمل لفتح اوربا عن طريق غاليا (فرنسا) فالمانيا فالمملكة الرومانية الى الشام · وكانت قصبة الاندلس يومئذٍ قد انتقلت الى قرطبة فأخذ عبد الرحمن في اعداد الجند للخروج على بلاد الافرنج وكانوا يسمونها يومئذٍ الارض الكبرى وكان عبد الرحمن حذوراً يخاف الفشل في مهمته كما فشل سلفاؤهُ وكان قد عرف علة فشلهم فعمد الى تلافيها فطاف اسبانيا بنفسه وتعهد احكامها فعزل الضعفاء واهل المطامع من امرائها وابدلهم برجال ذوي دراية وحلم ليحسنوا سياسة الناس من اهل الذمة وانصف هؤلاء فردَّ اليهم ما كان سلفاؤهُ قد اغتصبوه من كنائسهم واملاكهم (١) واعادهم الى ما كانوا عليه من العهود من زمن موسى بن

(١) رينو (عن ايزيدور الباجي)

نصير لعلمه انه لا يفوز في مهمته الا اذا احسن سياسة الرعية وعاملهم بالحق والرفق والا فانهم يكونون عوناً عليه . وكان عبد الرحمن وهو في ذلك الطواف يخطب المسلمين في المساجد ويحرضهم على الجهاد في سبيل الله لفتح غاليا وما وراءها حتى يعمّ الاسلام كل العالم(١)

وكان لكلامه تأثيرٌ عظيم في المسلمين من العرب وغيرهم فتقاطروا من افريقية ومصر والشام والحجاز واليمن وفيهم العرب والبربر والمولدون من المصريين والسوريين على اختلاف القبائل والشعوب وقد تكاثفوا وقاموا جهاداً في سبيل الدين اجابة لدعوة عبد الرحمن وهم انما وثقوا به لما اشتهر من حزمه وكرم اخلاقه وعدله وصدق اسلامه وتألفوا حوله فرقاً باعتبار قبائلهم واجناسهم وهو اميرهم الاكبر

الفصل الثاني

فتح بوردو

وكانت فرنسا في ذلك الحين تسمّى بلاد الغال او غاليا وكانت الدولة الرومانية قد تقلص ظلها عنها وتولتها عائلة من قبائل الجرمان يسميها المؤرخون ميروفنجيان اول ملوكها كلوفس (Clovis) حكمها سنة ٤٨١ م وتتابع الحكم في اولاده الى اوائل القرن الثامن وقد ضعف امرهم وانقسمت مملكتهم وافضى النفوذ الى رجال دولتهم شأن الدول في ادوار انحطاطها . وكان وزير الملك في ذلك الحين رجل اسمه شارل من قبيلة الافرنج وكانت غاليا تقسم الى مقاطعات كانوا يسمون الجنوبية منها سبتمانيا قصبتها نربونة وكانت قد دخلت في حوزة المسلمين يليها من الشمال اكيتانيا وقصبتها طولوزة وهي مقاطعة كبيرة حاكمها امير افرنجي اسمه اود وحدودها من الشمال نهر اللوار ومن الشرق نهر الرون ومن الجنوب جبال البيرينة ومن الغرب الاوقيانوس . ويلي اكيتانيا من الشمال مقاطعة نوستريا ووراءها اوستراسيا وحاكمها شارل المذكور فضلاً عن اقسام اخرى . وكان كل دوق او حاكم يريد الاستئثار بالسلطة العامة لنفسه . وكان عبد الرحمن قد ادرك اختلال امورهم او جاءه البشير بذلك فعزم على فتح بلادهم

(١) رومي ج ٣

فأمر عبد الرحمن بالرحيل للجهاد فبلغه وهو في الطريق ان احد قواد المسلمين على الحدود الشرقية في جبال البيرينة مخالف لذلك الرأي . وكان الامير المذكور قائداً بربرياً يسمى المنيذر[١] وكان شجاعاً باسلاً غير انه كان قليل الاتحاد بالعرب ينظر الى امرائهم نظر الحسد مثل اكثر قواد البربر . وكان المنيذر قد أبرم عهداً مع اود دوق اكيتانيا فاز وجه اود ابنة له جميلة اسمها لمباجة[٢] فلما علم عبد الرحمن بتلك المعاهدة اوجس خيفة من المنيذر فبدأ به فبغته في امارته وقتله وقبض على امواله ونسائه وامر بارسال لمباجة الى الخليفة في الشام

فلما اطمأن بال عبد الرحمن من المنيذر وامن على الاندلس حمل برجاله وقواده على بلاد الافرنج فاخترقها شمالاً وجنده يفتحون البلاد ويحرزون الغنائم وليس من يدفعهم . وقد استولى الرعب على الافرنج وخافوا على بلادهم وأود لا يقوى عليهم حتى وصلوا مدينة بوردو الشهيرة اليوم بخمورها ففتحوها بالسيف وقبضوا على الكونت حاكمها وهم يحسبونه اود نفسه فقطعوا رأسه ليرسلوه الى الخليفة في الشام على جاري العادة

وبوردو كان اسمها يومئذ بورديغاليا وهي واقعة عند نهر غارون على ضفته اليسرى وكانت من المدن الحصينة يحيط بها سور مربع الشكل عليه الابراج العالية . وكان الرومانيون يعدونها من اكثر مدن غاليا علماً وادباً وفيها امفيتياتر روماني عظيم كانوا يسمونه امفيتياتر غاليوس وكنيسة كبرى اسمها كنيسة الصليب ولا تزال آثار هذين البنائين باقية الى اليوم

فلما جاءها المسلمون خيموا في ظاهرها ثم فتحوها عنوة وامضوا فيها نهباً وسلباً فلما فرغوا من القتال عادوا بالغنائم والاسرى والسبايا الى ساحة كبيرة امام المعسكر فأمر عبد الرحمن اميراً من امرائه اسمه هانىء كان قائداً لفرقة الفرسان وهي اهمّ فرق الجند عندهم — لان مهارة العرب في الفروسية كانت من جملة ما ساعدهم على الفتح وخصوصاً في بلاد الافرنج

وكان هانىء شاباً في نحو الخامسة والعشرين من عمره اشتهر في معسكر عبد الرحمن بالبسالة وشدة البطش وقد شبّ على ظهور الخيل فاذا ركب لا يبالي من يلاقي ولو كانوا مئات . وكان عبد الرحمن يحبه حباً شديداً ويقدمه على سائر القواد مع صغر سنه ومع كونه من غير قبيلته . لان عبد الرحمن من قبيلة بني غافق وهي من القبائل اليمنية[٣] وهانىء من

---

(١) سماه ايزيدور (Munuza) وظنه رومي المؤرخ «ابو نسعة» وهو عثمان اللخمي وعندنا انها تحريف المنيذر لانه افريقي واما ابو نسعة فانه لخمي اي من العرب (٢) رينو

(٣) نهاية الارب في قبائل العرب (خط)

قيس وهي من قبائل الحجاز وكان التنافر متمكناً يومئذ بين اليمنية والقيسية فلم يبال عبد الرحمن بذلك · وكان هانىء من الجهة الاخرى يحب عبد الرحمن ويحترمه احتراماً شديداً لكرم اخلاقه وسعة صدره · وكانا قد تحالفا سرًّا على الاتحاد المتين في اثناء هذه الحرب حتى يفرغا منها لعلمها ان الذين حاولوا فتح اوربا قبلهما انما كان سبب فشلهم الانقسام · فكان عبد الرحمن بالنظر الى ثقته بهانىء يعهد اليه بكل ما يفتقر الى الثقة وحسن الظن ومن هذا القبيل اعتماده عليه بعد فتح بوردو بقسمة الغنائم وتدبير امر الاسرى

وكانوا يومئذ في اوائل الخريف سنة ١١٤ هـ (٧٣٢ م) وضواحي بوردو مكسوة بالكروم وقد نضجت اعنابها وكان هانىء قد ابلى في ذلك الفتح بلاء حسناً حتى بهر الناس ولم يتحوّل عن جواده طول ذلك اليوم وهو يجول ذاهباً وجائياً يحرض رجاله ويستحث القواد على الثبات والصبر ولم يكن في امراء ذلك الجند من لا يحب هانئاً ويعجب ببسالته واقدامه الا من حسده لتقربه من الامير الكبير مع صغر سنه لكن حساده لم يجدوا سبيلاً الى اذيته بسبب شدة محبة عبد الرحمن له · وكان هانىء طويل القامة عريض الصدر اذا مشى عرفه الناس من طوله وعرض كتفيه واذا أقبل اليك توسّمت مناقبهُ مصورة في محياه فقد كان على غضاضة شبابه واضح الملامح بارز الحاجبين والوجنتين حاد العينين صغير الانف والفم بارز الذقن خفيف العارضين اسود الشعر لا يفتك وجههُ باسماً مع وقار · وركب في ذلك اليوم على جوادٍ ادهم لا يحب الركوب على سواه لخفة حركته وجمال مشيته وصبره في ساحة الوغى وقد توسَّم فيه الخير لانهُ لم يركبهُ في قتال الاّ عاد منصورًا وما في معسكر عبد الرحمن من لا يعرف تعلق هانىء بادهمه حتى توهموا انه شغل به عن ملاذ الدنيا · وبالحقيقة انه لم يكن همّهُ الاّ مراعاة ذلك الجواد واتقان عدته حتى البسه لجاماً مذهباً وسلسلة وركابين من فضة وعلق على جبهته لؤلؤة كبيرة عثر عليها في بعض غرواته في غاليا فصاغها في شكل نجمة وعلقها هناك · وكان الادهم شديد التعلق بصاحبه اذا ناداه اتاه صاغرًا واذا استحثه في ساحة الوغى اسرع حتى تظنه طائرًا فاذا استوقفه وقف بغتة



الفصل الثالث

الغنائم والسبايا

فأقبل هانىء في اصيل ذلك اليوم على ادهمه كأنه جبل يسعى وقد تعمم بعمامة حمراء وتزمل بعباءة حمراء وتقلد حسامه وقد نقش اسمه على نصاله ورصع قبضته بالحجارة الكريمة وامر بعض رجاله ان يفرزوا الغنائم كل صنف منها على حدة فجعلوا الاسرى في جانب والسبايا من النساء والاطفال في جانب والغنائم من الاسلحة والآنية والاموال والمجوهرات في جانب · واستدعى هانىء امراء الجند وهم جماعة كبيرة وفيهم البربر من اهل افريقية وهؤلاء كثيرون · لان العرب كان معتمدهم في حروبهم بالاندلس وفرنسا عليهم وكان هؤلاء اهل بطش وشدة ولكنهم لم يكونوا على قلب واحد في نصرة الاسلام لما كان من امتهان العرب يومئذٍ لغير العرب ولو كانوا مسلمين (١) فكان البربر يصحبون العرب في حروبهم رغبة في الغنيمة اكثر مما في نصرة الاسلام · على ان بعض قبائلهم كانوا يرافقون العرب في الجهاد وما هم من الاسلام على شيء او ربما تظاهروا به وهم يهود او وثنيون · ويقال نحو ذلك في سائر فرق الجند غير العرب · فقد كان في جملة رجال هذه الحملة اناس من الاسرى او العبيد اشتراهم العرب وربوهم في حجر الاسلام وهم في الاصل من الصقالبة (السلاف) او من الافرنج او الروم او غيرهم (٢)

فلما اجتمع القواد على خيولهم بين يدي هانىء امر بالغنائم من الآنية والاموال فجيء بها فأمر بالخمس وهو حق بيت المال فافرزه جانباً وفرق ما بقي على الامراء باعتبار تعداد رجال كل منهم · وكان اذا رأى اختلافاً بينهم على قسمة بذل من سهمه واسهم رجال في سبيل التوفيق

وبعد الفراغ من قسمة الغنائم تحولوا الى جهة الاسرى وكانوا عديدين وقد شدوهم بعضهم الى بعض بالحبال او السلاسل وساقوهم سوق الاغنام وجاؤوا بهم حتى اوقفوهم بين يدي هانىء فالتفت هانىء الى القواد وقال لهم « ان هؤلاء الاسرى من جملة الغنائم واقتسامهم لا يمكن فاعرضوهم للبيع · · · اين التجار · · ؟ » ولم يتم كلامه حتى جاء جماعة من يهود القيروان

(١) تاريخ التمدن الاسلامي ج٢ (٢) رومي ج ٣

وقرطبة وغيرها من مدن الاسلام كانوا قد صحبوا الحملة للتكسب من امثال هذه التجارة ـ واليهود لاتفوتهم هذه الفرص . فلما حضروا تقدم واحد منهم وعلى راسه عمامة سوداء واسعة ولحيته مسترسلة على صدره وانفه اعقف كبير وعليه قباء واسع ووراءه احمال من الدراهم والدنانير . فقال له هانىء « بكم تشتري هؤلاء الاسرى يا هرون »

قال « بالذي يأمر به مولاي »

فقال « لولا عزمنا على السفر الى الحرب ما بعناهم بل كنا نستخدمهم في منازلنا او نتوقع الفداء من اهلهم اذ ربما كان بينهم من اولاد الاغنياء من يفتديه اهله بالاموال الطائلة ولكننا على اهبة المسير للحرب ولا وقت لنا فاشتر » قال هانىء ذلك عن بساطة وانفة ولكن هرون تمسك بقوله وصمم على الاحتيال للابتياع بأقل الاثمان فقال « صدق مولاي ولكن ابتياع هذا القدر من الناس خطر علينا اذ لا ندري كيف ننقلهم الى اسبانيا او الى افريقية او الى الشام حيث يعرضون للبيع وفي ذلك من مشقة والنفقة مافيه . . »

فضجر هانىء من المطاولة وهو يود الفراغ من هذه البيعة لامر يهمه في البيعة التالية ـ بيعة السبايا ـ فقال « اشتر الاسير بدينار كباراً مع صغار على ان تكون اسلابهم لنا غير ما يكسو عوراتهم »

فضحك هرون وهو يمشط لحيته ثم يقبضها بيده ويرسلها على صدره ويتظاهر انه استكثر المبلغ وقال « ألا يكفي ان ادفع اثمان هؤلاء وهم مئات ثم تطالبني باسلابهم وما عليهم منها الا الثياب . . . »

فقال هانيء « قد بعناك فادفع المال الى هذا الكاتب وهو يحصي العدد ويقبض الثمن » قال ذلك واشار الى كاتبه وساق فرسه الى جانب آخر من تلك الساحة حيث كانت السبايا وفيهم النساء والاطفال فتبعه هرون وهو يقول «لاتبع السبايا لسواي» فاعترضه تاجر آخر شهد بيعة الاسرى وصاح فيه « قد اشتريت الاسرى وحدك فدع السبايا لنا » فأجابه ذاك جواباً جافياً فانتصر بعض الوقوف من اليهود لهرون والبعض الآخر لرفيقه وعلت الضوضاء فسمع هانىء ضوضاءهم فصاح فيهم وقال « لا تغضبوا اننا نقسم البيعة بينكم على السواء»

فلما وصلوا الى موقف السبايا ساق هانىء جواده الى آخر موقفهم وكانوا قد صفوهم صفوفاً نساء واطفالاً فمر بهم الهوينا وهو يتفرس في الوجوه كأنه يفتش عن ضائع والنساء يتضرعن اليه بالايماء والبكاء لانهن لا يعرفن العربية وهو لا يلتفت الى احد حتى وصل الى آخر الصف حيث عثر على ضالته وهي فتاة لم ير الراؤون اجمل منها

وبجانبها امرأة في نحو الاربعين من عمرها والهيبة والجلال ظاهران فيها· ومع عويل سائر النساء والاطفال فانهما كانتا هادئتين لا تبديان حراكاً وليس في ملامحهما ما يدل على الخوف او الاضطراب · وكانت المرأة بيضاء اللون شقراء الشعر زرقاء العينين وقد لمت شعرها وضمته في اعلى رأسها تحت خمار اسود واكتست رداء اسود يجللها كلها حتى يحسبها الناظر اليها من سكان الاديار · وكانت جالسة حينئذٍ على حجر وقد اطرقت كأنها تفكر في امرٍ ذي بال وفي يدها محفظة من جلد قد حرصت عليها حرصاً شديداً

أما الفتاة فكانت واقفة بجانبها وعليها لباس اسود مثل لباسها وقد اسندت يدها الى كتف المرأة وهي مكشوفة الزندين الى الكوع وقد التف زنداها التفافاً بديعاً · وكانت طويلة القامة مع اعتدال ورشاقة وقد بدت النضاضة في محياها مع النشاط · واذا حزرت عمرها ربما حسبتها في الخامسة والعشرين وهي في الحقيقة دون العشرين · سمراء اللون سوداء العينين كحلاء الجفون حادة البصر مع وداعة ورقة · تدل وقفتها على الصحة والقوة معاً ويتجلى فوق ذلك كله لطف نسائي يسحر الالباب · وكان ثوبها الاسود بسيطاً وقد انفتح الرداء من اعلى الصدر فظهر عنقها الدال على الصحة والقوة بامتلائه واستدارته · وضفرت شعرها الكستنائي الجميل ضفيرتين مستطيلتين ارسلتهما على صدرها من جانبي العنق فبلغتا الى تحت الخصر فوق منطقة من جلد · وغطت رأسها بنقاب اسود يكسو شعرها ويسترسل على كتفيها وظهرها · والناظر الى الفتاة بجانب تلك المرأة يتبادر الى ذهنه انها والدتها وان اختلفتا خلقة وشكلاً لان المرأة كانت بيضاء اللون شقراء الشعر والفتاة سمراء كما تقدم

أقبل هانىء اليهما والفتاة تنظر الى والدتها وتخاطبها همساً · فلما وصل اليها رفعت نظرها اليه وتفرست في وجهه وتفرس هو فيها هنيهة لا ندري ما دار في اثنائها بينهما من حديث العيون · ثم امر بعض الغلمان ممن في ركابه ان ينقلها الى مكان منفرد ريثما يفرغ من مهمته · فلم يستغرب احدٌ طلبه لان ذلك من الامور العادية في مثل هذه الحال فالفاتحون يختارون من غنائمهم ما شاؤُا لانفسهم ويبيعون ما شاؤُا

ثم عاد هانىء الى اواسط الصف ونادى التجار وقال « كيف تقتسمون هذه السبايا »

فتقدم هرون وقال « لا يمكن الاقتسام في هذه الحال لان ثمن الفتاة او المرأة يختلف باختلاف درجة جمالها وعقلها وما تستطيعه من الصنائع كالغناء او الرقص او الخياطة او الطباخة وباختلاف صحتها وغير ذلك فالاحسن اذا شاء مولاي ان ينتقي كلٌ منا ما يشاء من هؤلاء على شرط ان من يختار اولاً يدفع ثمناً غالياً ثم يقل الثمن في الاختيار الثاني فالثالث»

فاستحسن هانئ هذه الطريقة فقال « ان الذي يتقدم اولاً لاختيار من يريد من هؤلاء تحسب عليه المرأة بخمسة دنانير والغلام بدينار والذي يتقدم ثانية فانه يدفع نصف هذه القيمة . . » قال ذلك والتفت الى الكاتب وامره ان يتم البيعة ويستولي على الثمن ويقسمه في الجند باعتبار العدد وساق جواده الى السيتين

الفصل الرابع

بسطام

وكانت الشمس قد آذنت بالزوال وتراجع المسلمون الى مضاربهم وتركوا قسمة الغنائم الى امرائهم . وكان الامراء في انتظار الفراغ من بيع الاسرى والسبايا حتى يقتسموا ما يجتمع من اثمانها . فجلسوا في خيمة بجانب فسطاط الامير عبد الرحمن لهذه الغاية وكان في جملتهم اميرٌ من البرابرة يقال له بسطام لم يدخل هو وقبيلته في الاسلام الاَّ طمعاً في الكسب والنهب من الغنائم ونحوها . وكان قويَّ البدن فظ الخلق يكاد الناظر اليه يرتعد من منظره لضخامة هامته وسعة وجهه مع عظم انفه وانتفاخ منخريه . وكان في عينيه احمرارٌ وحدّة خارقة حتى يوهمك اذا نظر اليك انه يخترق صدرك ببصره . وقد زاد منظره وحشةً كثافة حاجبيه وبروزهما بروز الطنف واقترانهما كأنهما خط واحد غليظ . فضلاً عن لونه الزيتوني وعمَّا يتجلى في مجمل سحنته من القسوة والخشونة وما يدلُّ عليه غلظ شفتيه من الميل الشديد الى الملذات الشهوانية . وكان بسطام رئيس قبيلة كبيرة من قبائل البربر فلما سمع بحملة عبد الرحمن الى بلاد الافرنج وكان يسمع بغناها وخيراتها تظاهر بالاسلام وادعى انه انما يريد الجهاد في سبيل الدين ــ ولم يكن حال هذا وامثاله ليخفى على عبد الرحمن ولكنه كثيرًا ما كان يتغاضى عن ذلك رغبة في اكتساب القوة . لان هؤلاء البرابرة أبلوا في تلك الحروب بلاء حسناً وخصوصاً بسطام فانه كان يهاجم الاسوار ويتلقى السهام ويستقبل الفرسان بقلب لايعرف الخوف . وكان كلما فرغوا من معركة واقتسموا غنائمها انتخب ما يطيب له من السبايا وعبد الرحمن يتساهل في معاملته حذرًا من غضبه لئلاَّ تسوقه الحدة والخشونة الى الانقلاب على المسلمين فتنقلب معه قبيلته وقد يقتدي بها غيرها من قبائل البربر او غيرهم من غير العرب (الموالي) ممن انتظموا في تلك الحملة

وفي نفوسهم حسدٌ لما يميّزبه العرب انفسهم عن سائر المسلمين كالاستئثار بالسلطة واحراز الاموال . وكان التحاسد سائداً ايضاً بين العرب انفسهم اليمنية في جانب والحجازية في جانب آخر ناهيك بما بين الامويين والهاشميين من التنازع على الخلافة . على ان المسلمين غير العرب اذا كانوا حسني الاسلام قد يغضون عن هذا التحاسد وخصوصاً في اثناء الجهاد . اما الذين كانوا يظهرون الاسلام رغبة في الغنائم فاذا فاتهم المقصود من انضمامهم انقلبوا الى الضد

فاتفق في واقعة بوردو ان بسطاماً جاهد جهاد الابطال وهو الذي هجم بنفسه على المنزل الذي كانت فيه هاتان المرأتان وقبض عليهما وارسلهما مع بعض رجالهِ الى المعسكر في جملة الغنائم على أمل انهُ متى عُرضت السبايا للبيع طلب الفتاة لنفسهِ وهو لايتوقع ان يكون لهُ مزاحم او معارض في ذلك . . .

وكان بسطام في جملة الامراء المجتمعين في ذلك اليوم ينتظرون اقتسام الغنائم وقد اوصى بعض رجاله ان يراقب تلك الفتاة لئلا تخرج من يدهِ . فلما رأى هانئاً افردها مع رفيقتها لم يجسر الرجل على منعه او الاعتراض عليه ولكنه اسرع الى بسطام فاخبره فغضب وصاح فيه « اذهب وقل لذلك القيسي ان الفتاة للامير بسطام لانها سبيتي وقد نلتها بحدّ سيفي »

فظل الرسول واقفاً ولم يبد جواباً فأدرك بسطام انه لايجسر على مخاطبة هانيء بمثل ذلك فقال له « ما بالك لاتمشي . . ؟ »

فتحول الرسول من الخيمة ومشى الهوينا وهو يغرس انامله في شعر رأسه المتلبد المتكاثف كالعمامة السوداء ويحكّه وقد تأبط جراباً من جلد حرص عليه كل الحرص لما حواه من المواد الثمينة التي نهبها في اثناء الواقعة او التقطها وهم يجمعون الغنائم ولم يكن يرى سبيلاً لحفظها الآن يحملها معهمع ثقلها عليه — وكذلك كان يفعل اكثرهم وخصوصاً الساعون في الجهاد رغبة في الغنائم — مشى ذلك البربري وهو يتباطأ في مشيتهِ ويهمّ ان يلتفت الى الوراء كأنهُ يتوقع من يسترجعهُ . وكان بسطام ينظر اليهِ ويراقب مشيتهُ بعينيهِ الحمراوين وقد حمي غضبهُ لما في ذلك التردد من الاستخفاف بهِ فصاح فيهِ فوقف وتراجع فقال لهُ « يظهر انك خائف منهُ . . . لاتكلمه بل اذهب انت ومن شئت من رجالي فأتوني بالفتاة سريعاً »

فمشى الرجل مثل مشيتهِ الاولى فازداد غضب بسطام ووثب وفي يده خنجر روماني

كان قد قتل صاحبه طمعاً فيه لاتقان صنعه فاستله وضرب به الرسول فأصابت الضربة ظهره فقتلته . وكان بالقرب من الخيمة جماعة من رجال قبيلته واقفين لبعض الشؤون فصاح بسطام فيهم « هلموا الى غنيمة هذا الجبان فهي وكل ما في خيمته من المنهوبات ملك حلال لكم » فأسرعوا الى جثته وهمّوا باقتسام ما في جرابه حتى كادوا يختصمون ويتضاربون

اما بسطام فانه ردّ الخنجر الى مكانه ووثب الى جواده فركبه واستحثه نحو الساحة . وكان قد علم بمكان الفتاة ورفيقتها فسار توًّا اليه ر... ولا خاطبه بهذا الشأن . وكان هانىء لايزال الى ذلك الحين مشتغلاً ببيع السبايا

فلما فرغ من مساومة اليهود ساق جواده نحو الفتاة وهي على مسافة ميل وبعض الميل منه والشمس قد توارت وراء ابنية بوردو واختلطت اظلال تلك القصور حتى صارت ظلاماً خيّم على الغالب والمغلوب والقاتل والمقتول — خيّم على المسلمين وقد اشتدت عزائمهم بما اوتوه من النصر فاشتغلوا باقتسام غنائمهم . وعلى الغالبين من اهل بوردو وقد غلبوا على ما في ايديهم فقتلت رجالهم وسبيت نساؤهم ونهبت بيوتهم ومعابدهم . ولولا اشتغال هانىء بما جاش في فؤاده من عوامل الغرام وما غشي بصيرته من عواطف الشبيبة لاعتبر بما كسا افق بوردو من الشفق وقد اشتدّ احمراره حتى يحسبه الناظر اليه رمزاً عن الدماء التي سفكت في ذلك اليوم هناك . ولكنه كان مشتغل الخاطر بشيء لايعرفه غير الذي يعانيه — وهو الحب — ومن غريب امر الحبّ انه يقع على الناس وقوع السبات من حيث لايعلمون . وربما كان الباعث على وقوعه نظرة واحدة فلا تكاد تلتقي العين بالعين حتى تجيش العواطف وتتجاذب القلوب تجاذباً لاسبيل الى دفعه . ولا يحدث ذلك عند كل نظرة ولا في كل انسان وانما هو تأثير بعض العيون على بعض القلوب . فاذا تفاهمت العينان استيقظ القلبان وتجاذبا كأنهما كانا على موعد وقد تاها وكل منهما يبحث عن رفيقه ثم التقيا بغتة وتعارفا عن طريق النظر

الفصل الخامس

التنازع

كذلك حدث لهانىء فانه لم يكن يعرف تلك الفتاة قبل ذلك اليوم فوقع نظره عليها للمرة الاولى وهو واقف بباب المدينة يراقب اخراج الغنائم والسبايا ويحصيها . وكانت الفتاة

في جملة الخارجين وقد ساقها بعض البرابرة من رجال بسطام باشارة منه كما تقدم . فرآها هانئ تمشي بثوبها ونقابها الاسودين وتحت النقاب ضفيرتاها المرسلتان على صدرها وقد اطرقت لا تلتفت يميناً ولا شمالاً ورفيقتها ماشية بجانبها . فلما بلغت الفتاة الى عتبة الباب سمعت هانئ ينادي كاتبه ويسأله عن عدد الذين خرجوا الى ذلك الحين ثم قال له « لا تحص هذه من جملتهم » فوقع صوته في اذنها وقوع السهم في قلبها . فلم تتمالك ان رفعت بصرها اليه وحدقت به فقرأ في تلك النظرة ما يعجز الخطيب عن ادائه في خطاب ولا يستطيع الكاتب التعبير عنه في كتاب — قرأ فيها الاستعطاف والاستنصار والحب والاستلام مع الانفة وعزة النفس . فأجابها بنظرة قرأت فيها جواباً صريحاً على ما يتمناه قلبها فاطمأن بالها — حدث ذلك كله في لحظة والناس حولها في غفلة بين باكٍ ونادب وراجٍ وخائفٍ — اما هانئ فلما وقع نظره عليها صمم على ان يستأثر بها لنفسه . ثم اكبر ان يتخذها سبية لما آنس من هيبتها وجمالها فعزم ان يقترن بها . ولم يكن قد تزوج ولا حدثته نفسه بالزواج الى ذلك الحين لاشتغاله بالجهاد منذ نعومة اظفاره في بلاد الافرنج التماساً لفتح اوربا . ولذلك فلما دعاه عبد الرحمن الى تلك الحرب لبّى سريعاً . فلما احسّ بتحرك قلبه لم يتمالك عن التفكير بالزواج — والغالب في طالبي الزواج ان يلتمسوه على هذه الصورة . فربما قضى احدهم الاعوام الطوال وهو لا يرى الزواج ولا يسعى فيه فاذا تحرك قلبه بنظرة او كلمة بذل جهده في سبيله — ولذلك فان هانئاً افرد الفتاة و بعد الفراغ من البيع سار الى استلامها بنفسه . ولم يعهد بذلك الى احد من رجاله مبالغة في الحرص عليها

فلما ثنى عنان جواده نحو ذلك المكان رأى بالقرب منه فارساً عرف بنور الشفق من شكل الفرس وعدته انه بربري فاستحث جواده وهو مطمئن الخاطر على حبيبته لعلمه انه ليس في جند المسلمين من يجسر على مخاطبتها بعد ان امر هو بافرادها . ولكن الغيرة من اقوى ظواهر الحب ومن اكبر الادلة عليه . وهي عمياء صماء لا تذعن للعقل ولا تصغي لنصحه — فاركض هانئ فرسه وقلبه يخفق غيرة ومالبث ان رأى الفارس قد وقف بجانب الفتاة وسمعه يتهدد ويتوعد فساق جواده حتى تطايرت اطراف عباءته في الهواء وقبل الوصول اليهم عرف الفارس فناداه « بسطام » فالتفت بسطام وعيناه تقدحان شرراً وهو يقول « ما بالك ايها الامير . . ؟ »

قال « تنحَّ عن هاتين فاني فرزتهما لنفسي »

قال « وكيف تفعل ذلك وهما غنيمتي . . »

ولو لم يكن هانىء قد علق بالفتاة وتعشقها لما جادله عليها ولكنه توقع ان يسترضي بسطاماً من باب آخر لعله يشره هؤلاء البرابرة للمال والغنائم فابتسم وهو يقول « هب انها غنيمتك وقد رأيتني افردتها لنفسي فتجاوز عنها لي ولك عليَّ ما تطلبه من سهمي في الغنائم . . » قال ذلك وهو يتشاغل بتسوية عُرف ادهمه اظهاراً للاستخفاف بالمسألة واخفاء لما ثار في قلبه من عوامل الغيرة

فأجابه بسطام وهو لا يقوى على كظم ما في نفسه « ذلك لا يمكنني واذا كان لابد لك من مقاسمتي في هذه الغنيمة فانهما امرأتان خذ تلك وانا آخذ هذه » قال ذلك واشار باصبعه اولاً الى الكبيرة ثم الى الفتاة

وكانت الفتاة واقفة بالقرب من رفيقتها وكلاهما صامتتان تنتظران عاقبة ذلك الجدال . ومن الغريب انه لم يبدُ في وجه تلك الفتاة شيء من امارات الخوف كأنها وثقت بفوز حبيبها . ولكنها كانت اذا وقع بصره عليها ابتسمت وفي ابتسامها اطراء وتشجيع فاذا حوّلت بصرها نحو بسطام قرأ هانىء في شفتيها كل ملامح الاستخفاف والبغض — وقد ادرك هانىء ذلك منها رغم ما تقاطر من جيوش الظلام . فلما سمع بسطاماً يعرض المقاسمة على هذه الصورة اعظم استخفافه به فأجابه بصوت هادىء ولكن ملئه التهديد وقال « لا احب المقاسمة وانما هذه الفتاة لي فارجع الى معسكرك وخذ سهمك مما بعناه من الغنائم والاسرى والسبايا »

فازداد بسطام هياجاً ووقف على الركاب بغتة حتى أجفل جواده وصاح قائلاً « لا يمكن لأحد ان يأخذ غنيمتي مني ولو كان الامير عبد الرحمن نفسه . . اما كفاكم معاشر العرب ما تسوموننا من الخسف فتستأثرون بكل شيء دوننا كأن غير العرب ليسوا مسلمين — وانت تعلم اني قادر على ان اعرقل مساعيكم وارجعكم على اعقابكم فلا تفتحون بلداً ولا تكسبون غنيمة . . »

فلما سمع هانىء ذلك التهديد كبر عليه أمرهُ ولكنه تصوّر ما يترتب على مجافاته من الضرر . وهو يعلم ان بسطاماً لا يهمه الاسلام ولا المسلمون فاذا غضب وغضبت قبيلته تضعضع الجند وهذا مالا يرضاه هانىء ولا عبد الرحمن . على ان حدة الشباب غلبت عليه وانتخى بين يدي حبيبته فلم يتمالك ان همَّ بسيفه فاستلهُ وهجم على بسطام لا يبالي اي عضو يصيب منهُ . فاذا بالمرأة تقدمت بثوبها الاسود وامسكت بعنان فرسه وخاطبته بالعربية قائلة « لا تقتتلا فما نحن غنيمة احد وقد كفى خصاماً . . » قالت ذلك بلسان اهل

اليمن مع شيء من العجمة . فبغت الاميران وتعجبا لما سمعاه بالعربية

اما بسطام فانه ما زال مصماً على طلبه وخصوصاً بعد ان سمع تهديد هانىء له بين يدي تلك الفتاة وهي تفهم العربية فقال لها « بل انت غنيمتي . . . واذا شئت الانحياز الى هذا الامير فلا باس واما هذه فانها لي . . » قال ذلك وانحنى عن سرجه وتطاول ومد يده الى الفتاة وهمَّ ان يمسكها فتباعدت وهي تنظر اليه شزرًا ولم تضطرب . فتبعها بفرسه فلما رأى هانىء تلك الجسارة لم يعد يتمالك عن الغضب وقد سرَّه تباعد الفتاة لان في تباعدها تصريح بتفضيلها اياه ونفورها من بسطام . فاحسَّ ان تعقله وكظمه لاينفعان مع هذا البربري شيئاً فهمز جواده والسيف لا يزال مسلولاً في يده فوثب الجواد وصهل كانه شارك فارسه بعواطفه وتباعدت المرأة وقلبها يختلج وما كادت تفعل حتى سمعوا وقع حوافر جواد يعدو نحوهم من جهة المعسكر وصوتاً ينادي « هانيء هانيء اغمد سيفك » فالتفتوا فاذا بالفارس قد اقبل حتى دنا منهم وقبل ان يروا وجهه عرفوا من فرسه ولباسه انه الامير عبد الرحمن . فاستغربوا قدومه في تلك الساعة على حين غفلة وبغتوا ولم يفه احد منهم بكلمة ولم يتمالك هانىء عن اغماد سيفه

الفصل السادس

مريم

وكان عبد الرحمن ربع القامة جليل الطلعة صبوح الوجه عريض اللحية والجبهة قد خالط شعره بياضٌ . وكان كبير العينين مع حدة وذكاء بغير جحوظ اقنى الانف وقد تزمل بعباءة سوداء وعلى رأسه عمامة بيضاء كبيرة . فلما وصل استولى السكوت على الجميع فالتفت الى هانىء وقال « اراكم تختصمون وتفترقون وكأن قلبي دلَّني على ذلك مذ سمعت بسطاماً يخاطب رسوله في خيمتي فخفت النزاع بين امراء هذا الجند ونحن في اشد الحاجة الى الاجتماع فراقبت رجوع بسطام فلما ابطأ أسرعت اليكم فأحمد الله على ذلك »

فأعجب الجميع بسهر هذا الامير على مصلحة جنده وسعيه في جمع كلمته واحس هانىء بتوبيخ ضميره لانه تعاهد هو وعبد الرحمن على الاتحاد والاجتماع كما تقدم فقال « لم اكن

لأُخاصم مسلماً على شيء وان عزَّ ولكن بسطاماً يعترضني في سبية اخترتها من بين مئات بعناهنَّ الآن بيع السلع . فلو اننا بعناها لبعض اولئك اليهود فما الذي كان يفعله ..؟ »

فاعترضه بسطام قائلاً « كنت افتديها من شاريها بالذي يرضيه .. »

فتقدمت المرأة نحو عبد الرحمن بقدم ثابتة وجاش رابط وقالت « اظنني واقفة بين يدي عبد الرحمن الغافقي امير هذا الجند ؟ .. »

فاستغرب عبد الرحمن تكلمها بالعربية وقال « نعم اني هو . وكيف عرفت ذلك .. »

قالت « عرفتك من سهرك على اجتماع جنـدك وقد كنت اسمع ذلك عنك - ان الاميرين يختصمان علينا وما نحن لواحد منهما ولكن لنا امراً نعرضه على الامير .. »

فرآها عبد الرحمن تخاطبه بجسارة لاتكون في الاسرى او السبايا فهابها وزاده تهيباً ما آنسه من رزانتها وبساطة لباسها وسواده ووقعت عينه في اثناء ذلك على الفتاة فأعجبه جمالها ومال بكليته الى استطلاع حقيقتها فقال للمرأة « قولي ما بدا لك »

قالت « لا اقول شيئاً الآن وانما اقصُّ حديثي على الامير في خلوة »

وكان في ركاب عبد الرحمن رجلان من خاصته فأمرهما ان يأتيا بفرسين يحملان المرأة ورفيقتها الى فسطاطهِ على انهُ لم يتمالك وهو ينتظر قدوم الفرسين عن سؤال المرأة عن رفيقتها من هي فقالت « هي ابنتي .. »

وكان هانئ واقفاً صامتاً وقد وقع في حيرة من امر الفتاة وامها وخاف ان يكون في حديث الوالدة ما يحول بينه وبين ابنتها وقد ازداد تعلقاً بها بعد ما عاينه من رغبتها فيه واحسَّ انها تحبه حباً شديداً فاغتنم اشتغال الامير بخطاب المراة ودنا من الفتاة واراد ان يسمع حديثها ويستطلع امرها فقال وصوته يدلُّ على هيامه « ما اسمك يافتية ..؟ »

فأجابته بصوت ادلَّ على لواعج الحب وبلسان عربي فصيح « اسمي مريم » فأعجبته غنة صوتها وزاد افتتانهُ بها للثغة في لسانها تنطق بها الراء غيناً فكأَنهُ سمعها تقول « اسمي مغيَم »

فقال « وانا اسمي هانئ ... هل حفظتهِ كما حفظتُ اسمك ؟ . »

فأدركت غرضه وقالت « لقد حفظته قبل ان اعرفه فكيف بعد ان عرفته ورايت منه ما رأيته » ففرح بذكائها وسرعة خاطرها واطمأن باله من نحوها فاجابها وهو يقلد لثغتها تحبباً « اغجو ان تكون محففة مباغكة »

فابتسمت مريم ابتسامة اخذت بمجامع قلبه وتوردت وجنتاها خجلاً واطرقت اطراق الحياء وتشاغلت باصلاح ذيل منطقتها

اما بسطام فكان يراهما يتكلمان والحنق يكاد يخنقه وهو لا يجسر على الكلام في حضرة الامير ولكنه اضمر لهما الشر . وبعد هنيهة جاء الجوادان فركبت مريم وامها وساقوا الخيول الى المعسكر وكان هانئ لا يرفع نظره عن مريم فرآها امتطت الفرس بأسرع من لمح البصر كأنها ولدت على ظهور الخيل فازداد هياماً بها . ولكنه ما زال موجساً من تلك الخلوة حتى اذا اقتربوا من فسطاط عبد الرحمن وهي اكبر الخيم وفي بابها الاعلام التفت عبد الرحمن الى هانئ وقال « عد الى تدبير امر الجند وكن كعهدي فيك فاننا في بلاد العدو » والتفت الى بسطام وقال « وانت يا بسطام امير ذو بطش فامضِ الى شانك وانسَ ما دار بينك وبين هانئ . . . اننا مقبلون على فتوح كثيرة وستصيب من الغنائم والسبايا ما يعوض عليك اضعاف هذه الخسارة . . »

فسار الاميران وتحول عبد الرحمن ودعا مريم وامها للنزول فنزلتا ودخلتا الخيمة في اثره وفي يد الوالدة تلك المحفظة وقد ضمتها الى زندها وقبضت عليها بكفها كانها تخاف ان يخطفها احدٌ من يدها

الفصل السابع

الخلوة

فلما دخلوا الخيمة اشار عبد الرحمن الى من كان فيها من الامراء والحاشية فخرجوا جميعاً وبقي هو والمرأة وابنتها وقد تشوق لاستماع ذلك الحديث فجلس في صدر الخيمة على بساط ثمين كانوا قد خصّوه به من غنائم ذلك اليوم واجلسهما بين يديه . فالتفّت كل منهما بردائها الاسود والنقاب الاسود على رأسيهما . فنظر عبد الرحمن الى وجه المرأة على نور المصباح فرأى الجمال لا يزال بادياً في وجهها مع تجاوزها سن الشباب . ونظر الى مريم فرأى بصره قد علق في عينيها الجذّابتين وقد زادها التنكر والاطراق هيبة فسبح الخالق على ذلك الصنع العجيب . ثم غلب عليه شوقه الى استماع تلك القصة فحول نظره الى المرأة فرأى الاهتمام ظاهراً في عينيها وهي تنتظر الاشارة للشروع في الكلام فقال لها عبد الرحمن « ممن انت يا اخية وما خبرك وما هو غرضك ؟ »

قالت « اما خبري فسأطلعك عليه في فرصة أخرى . واما غرضي فهو نصرة هذا الجند حتى تتحقق امانيه

فلما سمع عبد الرحمن كلامها استغرب تلك الغيرة من امرأة لايعرف من هي وقد توسم في كلامها وان كان عربياً شيئاً من العجمة . فأراد ان يستطلع حقيقتها فقال لها « ما الذي حملك على هذا الغرض وكلامك يدل على انك غير عربية وقيافتك ولباسك يدلان على انك غير مسلمة فلا يعقل ان يكون هذا هو غرضك فاصدقيني »

فنظرت اليه نظر الاستغراب وقالت « لم امثل بين يدي الامير عبد الرحمن الغافقي لأُلفق له حديثاً مكذوباً ولا أرى فراسته في صحيحة لاني وان كنت غير عربية ولا مسلمة فليس ثمة ما يمنع غيرتي على نصرة العرب او المسلمين . وفي نفس هذه المدينة وفي غيرها من مدن النصارى والافرنج من يؤثر انتصار المسلمين العرب على انتصار النصارى الافرنج لاسباب لم اكن اظنها تخفى على مولاي الامير »

فأطرق عبد الرحمن وقد تضاعف استغرابه ولكنه صبر الى النهاية لعله يستنشق شيئاً في عرض الحديث يكشف له الحقيقة فقال لها « لم افهم مرادك ...... هل يتمنى اهل هذه البلاد انتصار المسلمين على ملوكهم ؟ . »

قالت « كانوا يتمنون ذلك مذ سمعوا بحال الاسبان بعد دخولهم في حوزة العرب لانهم رأوهم انتقلوا تحت ظل الاسلام من الرق الى الحرية ومن الظلم الى العدالة ... »

قال « وهل عدلوا اليوم عن ذلك الرأي »

قالت « نعم »

فقال « ولماذا .. ؟ ارجو الافصاح »

قالت « لايخفى على مولاي ان المسلمين لما فتحوا اسبانيا منذ ٢٢ عاماً عاملوا اهلها بالرفق والحق فلم ينهبوا بيعة ولاسفكوا دماً بريئاً ومن اختار البقاء على دينه حافظوا على عهده ومن اعتنق الاسلام وكان عبداً فانه يصير حراً له ما للمسلمين وعليه ما عليهم — وكان حكام القوط يعدون رعاياهم ملكاً لهم يستخدمونهم في منازلهم وحقولهم استخدام الارقاء فلما جاء المسلمون وفتحوا بلادهم خيروهم بين الاسلام والجزية وان من اسلم وكان عبداً صار حراً فتهافت جانب عظيم من اولئك الارقاء الى الاسلام استهلاكاً في سبيل الحرية لانها كانت عزيزة عندهم لاينالها الا افراد قليلون مكافأة على شجاعة عظيمة او خدمة ذات بال . ومع ذلك فان المعتقين في ايام القوط والرومان لم يكونوا يتمتعون بكل حقوق الاحرار وانما

كانوا وسطاً بينهم وبين الارقاء . اما المسلمون فمن اسلم من رعاياهم عاملوهُ معاملة الاحرار تماماً ومن ظل على النصرانية تركوا له الحرية في معاطاة دينه وعاداته وآدابه وسائر معاملاته حتى الحكومة والقضاء (١) فأحسَّ الاسبانيون انهم انتقلوا بالفتح الاسلامي من الضيق الى الفرج ومن الرق الى الحرية فشاع ذلك في سائر انحاء هذه البلاد فرأى موسى بن نصير سهولة الفتح عليه لهذا السبب فعزم على اتمامه حتى يعود الى دمشق من طريق القسطنطينية بعد ان يفتح كل اوربا . ولكن المسلمين عجلوا عليه وعلى ابنه عبد العزيز رحمهما الله بما لا يخفى عليك . ولولا ذلك لتم الفتح للمسلمين من ذلك الحين ولكانت هذه البلاد التي جئتم لفتحها الآن مُلكاً لهم منذ نيف وعشرين سنة . ولكن الذين خلفوهما على امارة الاندلس كان معظمهم من اهل المطامع فاساؤا الى النصارى والى المسلمين من غير العرب ففسدت النيات وشاع خبر ذلك في هذه البلاد فأصبح فتحها صعباً لان اهلها لا يرون فائدة من الانتقال الى دولة غير دولتهم دينها غير دينهم . . »

الفصل الثامن

هانىء

ولما بلغت الى هنا توقفت وتنحنحت وتشاغلت بمسح فمها وعبد الرحمن ينظر اليها وهو يستغرب حديثها لما فيه من الحكمة وسعة الاطلاع وجعل يتأمل ملامحها ويفكر في من عسى ان تكون هذه المرأة وصبر لعل في خاتمة حديثها ما يكشف له القناع عن حقيقتها ولكنه أراد ان يستنطقها خلسة فاغتنم سكوتها وقال لها « يظهر لي انك اكثر اطلاعاً على حقيقة الاحوال من معظم رجالنا واشدُّ غيرة على مصلحة المسلمين من المسلمين انفسهم . . . » ثم تنهد وقال « ان الامر الذي ذكرتهِ يا أخية هو الواقع بعينه واظنك سمعت اني استدركته قبل اقدامي على هذا العمل فلم اخرج الى هذه الحرب حتى طفت مدن الاندلس وغيرها مما فتحه المسلمون من بلاد الافرنج (فرنسا) وتعهدت احكامها وعزلت الضعفاء واهل المطامع من امرائها وابدلتهم برجال من اهل الدراية والحكمة ليحسنوا سياسة الناس على اختلاف النحل

(١) دوزي ج ٢

ورددت على النصارى كنائس كان بعض الامراء المسلمين قد اغتصبوها منهم واعدت ما كان لهم من العهود من زمن موسى بن نصير وابنه عبد العزيز[1] ـ وقد بذلت الجهد في هذا السبيل لعلمي ان الاسلام يأمرنا بذلك وان الصحابة الاولين لم يستطيعوا ما استطاعوه من الفتح الا بما كانوا يتوخونه من الرفق ومعاملة اهل الذمة بالحسنى والعدالة ٠٠ »

فقالت وهي تصلح نقابها والتفكير ظاهر في عينيها « قد علمت بكل مافعلته وما تفعله وكل مانويته وما تنويه ولذلك كنت اتوقع لك الظفر ٠٠ ولكنني رأيت خلاف ما سمعته فصرت أخاف فشلك ٠٠٠ »

فقال وهو يستغرب حريتها وتعقلها « وكيف ذلك ؟ ٠٠ »

قالت « اظنك تعلم ما اعلمه من هذا القبيل ويكفي ماشاهدته الآن بنفسك مابين هانئ وبسطام الم يكد يسفك الدم بينهما من اجل هذه الفتاة ؟ ٠٠ » وأشارت الى مريم وكانت جالسة بجانب والدتها تسمع حديثها باهتمام وشوق كأنها لم تكن تعرف منه شيئاً

فلما سمع عبد الرحمن كلام المرأة تشاغل باصلاح شاربيه وحك عثنونه بين سبابته وابهامه وظهر التأثير في عينيه وجبينه ٠ والتفت الى المرأة وهو يحاذر ان يتنهد وقال « ان ما رأيته انما هو من قبيل المنافسة بين أميرين على سبية جميلة وما ذلك بالامر الغريب ٠٠ »

فضحكت ضحكة اغتصابية وقالت « الامير عبد الرحمن الغافقي لايجهل ان سبب هذه المنافسة انما هو فساد نيات الامراء فيما بينهم لاختلاف أغراضهم في هذه الحملة لان اكثرهم جاؤا للنهب والسلب وخصوصاً البرابرة ومن على شاكلتهم ـ فهؤلاء لايفهمون معنى الجهاد او الفتح ولا يعرفون ما هو الاسلام لانهم انما اتوا اليه رغبة في الغنائم ومن كان هذا غرضه لايهمه رضي أهل البلاد او غضبوا ـ يدلك على ذلك ما رأيته بنفسي في أثناء هذا الفتح اليوم فان بعض رجالكم لم يميزوا بين المنازل والكنائس ولا بين الرهبان والعامة ٠ فقد نهبوا كنيسة بوردو وهي من اعظم كنائس الغاليين فأصبح هؤلاء فضلاً عن نفورهم من المسلمين يعتقدون ان صاحب هذه الكنيسة سينتقم لهم منكم ٠٠٠ »

فلم يتمالك عبد الرحمن عن قطع حديثها فقال « نهبوا الكنائس ٠٠ ؟ نهبوها ؟ ٠٠ رغم ما أوصيتهم به من المحافظة عليها واستبقاء كرامة القسس والرهبان ٠٠ ؟ » ثم صفق وصاح

---

(۱) رينو ٠ وروسي ج ۳

« ياغلام » فدخل رجل من غلمـانه الذين يقفون ببابه خفيف اللباس خفيف العضل ممن يقتنونهم للمراسلة ونحوها . فابتدره حال دخوله قائلاً « ادعُ الامير هانئاً الساعة »

فأشار الغلام اشارة الطاعة وخرج . فعجلت المرأة بالكلام قبل خروجه وقالت للامير « فاتني ان اطلب اليك الافراج عن خادمي فانه أُخذ في جملة الاسرى على شيخوخته وعلى كونه عربياً .. »

فنادى عبد الرحمن الغلام فوقف فقال له « وقل للامير هانئ ان في الاسرى شيخاً » والتفت الى المرأة وقال « وما اسمه .. » قالت « اسمه حسَّان » فقال « قل للامير ان في الاسرى شيخاً عربياً اسمه حسَّان فليأت بهِ معه .. »

ولا تسل عن مريم عند ما سمعت اسم هانئ فانها أحست بنبضان قلبها بغتة وكانت جالسة مطرقة فتحركت واعتدلت في مجلسها . ولو انتبه عبد الرحمن لوجهها لرأى فيه احمراراً يشف عن شاغل قلبي ظهرت آثاره في بريق عينيها

قضوا مدة غياب الرسول صامتين وخصوصاً عبد الرحمن فانه لبث مطرقاً وهو يلاعب لحيته بين اصابعه ببطء كانه يخاف العجلة ان تشوش على مجاري افكاره فتقطعها او تعترضها . وسكتت المرأة تهيباً لمنظر عبد الرحمن . وبعد قليل سمعوا وقع حوافر جواد ثم سمعوا صهيله فعرف عبد الرحمن انه صهيل الأدهم وان هانئاً قادم . ولم تمض هنيهة حتى دخل ذلك الغلام وقال « ان الامير هانئاً بالباب »

فقال عبد الرحمن « يدخل »

وقبل ان يرجع الرسول بالاذن اقبل هانئ كانه داخل الى بيته نظراً للدالة التي كانت له على الامير وكان لايزال بثوبهِ الاحمر وسيفه المرصع وسائر سلاحه . فلما رآه عبد الرحمن داخلاً لم يتمالك ان بشَّ له ورحب به ودعاه الى القعود بجانبه فقعد وبصره في مريم ووالدتها ولكنه تشاغل بالالتفاف بعباءته وهو يصلح مجلسه . اما مريم فانها اطرقت حياء وعيناها تسترقان النظر الى هانئ وتراعي كل حركة من حركاته . ودخل في أثر هانئ شيخ طاعن في السن عليه لباس اهل غاليا وعلى رأسه عمامة صغيرة وقد شاب شعره مع كثافة واسترسلت لحيته كثيفة وخف عضله وتغضنت جبهته وتجعد خداه ورقبته حتى يتوهم الناظر اليه انه في حدود التسعين واذا تكلم اومشى أوهمك بخفة حركته وشدة عارضتهِ انه في مادون الستين . فدخل الخيمة وعليه قباء الى الركبة بعضه مبطن بالجلد . واما ساقاه فكانتا عاريتين وقد غشاهما شعر كثيف لايبان الجلد من تحته وقد شد بقدميه نعلين من صنع

بوردو ـ ووقف الشيخ بباب الفسطاط فلما رآه عبد الرحمن اشار اليه ان يقعد فقعد هناك متأدباً . اما هانئ فلما قعد قال له عبد الرحمن « اظنك تعبت في هذا اليوم ياهانئ .. »

قال « ما في الحرب من تعب اذا كانت خاتمتها النصر كما كانت خاتمة حربنا مع هذه المدينة بعون الله وسيف الامير عبد الرحمن .. »

قال « لم يكن لعبد الرحمن يدٌ في هذا النصر وانما تمّ بك وبرجالك وسائر المسلمين .. على اني لم ادعك للبحث في ذلك وانما دعوتك لامر ذي بال فارعني سمعك .. »

فاصاخ هانئ بسمعه وتطاول بعنقه وقال « قل .. »

قال « أتعلم السبب الذي ساعد المسلمين على فتح الدنيا من ايام الصحابة الى اليوم ... »

قال « اعلمُ ان الله نصرهم بالاتحاد والاجتماع وهذا هو الامر الذي نتوخاه في كل حركة من حركاتنا »

قال « انا أعلم ذلك واعتقد انك اكبر مساعد لي في جمع كلمة هذا الجند الكبير المختلف المقاصد والاغراض وتحمل معي مضض التوفيق بين تلك المختلفات المتناقضات ولكن هناك سبباً آخر ساعد السلف الصالحين على الفتح وايد دولتهم .. أتعلم ماهو ؟ »

الفصل التاسع

بسطام

فأطرق هانئ واعمل فكرته وعبد الرحمن يتفرس فيه كأنه يستعجل جوابه فقال هانئ « ان الذي اعلمه ان دولة الاسلام تأيدت بالعدل والرفق ... »

فقطع عبد الرحمن كلامه وقال « ذلك هو بعينه ... لان العدل اساس الملك والرفق بالرعية يدعوهم الى الطاعة والمحبة وخصوصاً اهل الذمة من النصارى واليهود وعلى الاخص الرهبان والقسس اصحاب البيع والكنائس ـ فقد ورد النهي عن اذيتهم في كتاب الله وفي حديث رسول الله ولذلك كان الخلفاء الراشدون اذا انفذوا جنداً الى حرب اوصوهم

باهل الذمة خيراً ومنعوهم من اذيتهم وامروهم بالكف عن الكنائس واصحابها [1] الا تعلم ذلك ٠٠ ؟ »

قال « نعم اعلمه جيداً ونحن طالما تحادثنا في مافرط من بعض الخلفاء و امراء الاندلس من هذا القبيل وتواثقنا على منعه ٠٠ »

قال « فما معنى هجومكم على كنيسة بوردو في هذا النهار ونهب آنيتها واذية رهبانها ٠ ؟ »

فظهر الغضب في وجه هانئ مع الاستغراب واطرق لحظة ثم هزّ رأسه وهو يقول « قبح الله بسطاماً ما اطمعه وما اقلّ طاعته ٠٠ اني نهيته بنفسي عن هذا الامر ونحن في اثناء الواقعة بعد ان رأيت منه ومن رجاله ميلاً الى النهب بلا مراعاة٠ وقد علمت بما في كنيسة بوردو من آنية الفضة والذهب فخفت ان تسوقه المطامع او تسوق احداً من قبيلته الى نهبها فاستوقفته في وسط المعركة وقلت له احذر ان يتجرأ احد من رجالك على الكنائس او المعابد او القسس ونحوهم ٠٠ فأجابني بالسكوت فظننت من تلك الساعة انه لا ينوي الاجابة لما اعلمه من طمعه وقسوته ٠٠٠و٠٠٠ »

فابتدره عبد الرحمن قائلاً « اتظن تلك فعلة بسطام ؟ »

قال « لا اظن احداً سواه يجرأ على ذلك بعد ما كان من تشديدنا في منعه ٠٠ وقد رأيت مع بعض رجاله في اثناء قسمة الغنائم صلباناً من ذهب ومباخر من فضة مما لا يكون في غير الكنائس ٠٠ »

فصفق عبد الرحمن ونادى غلامه فدخل فقال « ادع الامير بسطاماً » وبعد خروج الغلام التفت عبد الرحمن الى هانئ وقال « لا تخف من غضبي عليه فاني ساخاطبه باللين لما اعلمه من فظاظته وغلظه والاّ افسدنا الجند علينا ٠٠ »

فقالت المرأة « ما لكم ولهذا النصير الخطير ٠٠٠ ما كان اغناكم عنه وعن قبيلته ٠ »

فتنهد عبد الرحمن وقال « لو شئنا ان ننقي جندنا من امثال هؤلاء الغلاظ لاقتضى ان نجرده من اشد رجاله واكثرهم عدداً لان في جملة رايات هذا الجند قبائل من البربر وجماعات من الصقالبة والجرامقة والجراجمة والاقباط والانباط وغيرهم وفيهم من لا يزال على اليهودية او النصرانية او الوثنية او المجوسية وانما يتظاهرون بالاسلام [2] ـ والبربر

---

(١) تاريخ التمدن الاسلامي ٥٦ ج ١ (٢) البيان والتبيين للجاحظ ج ١

من اشجع الامم لايهابون الموت ولا يخافون العدد — والحق يقال انهم هم الذين فتحوا لنا اسبانيا وسلموها الينا ولو اردنا الاستغناء عنهم لامتنع علينا هذا الفتح لان العرب لا يزالون الى اليوم قليلي العدد بالنظر الى مثل هذا المشروع العظيم . فاستخدام البربر في هذه الحروب يفيدنا كثيراً وانما يطالب منا ان نحسن السياسة في معاملتهم لئلا نغضبهم وهم انما يرضيهم الكسب من الغنائم ونحوها وهذا امر ميسور لهم لاننا كثيراً ما نتنازل لهم عن الغنيمة لنطمعهم في الجهاد لمصلحة المسلمين وان لم يكونوا كلهم مسلمين في قلوبهم . . »

فأعجبت تلك المرأة بتعقل عبد الرحمن وسعة صدره وقالت له « اخلق بجندٍ انت قائده ان يعود ظافراً منصوراً »

فلما سمع ذلك الاطناب مال بيمناه الى هانئ والقى يده على كتفه وقال « هذا هو يدنا اليمنى لانه قائد فرساننا » فخجل هانئ لهذا الاطراء واراد ان يعتذر واذا بالرسول قد دخل وهو يقول « الامير بسطام في الباب »

فقال عبد الرحمن « يدخل »

فدخل بسطام وعباءته مطلقة من الامام وسيفه يجرّ وراءه وعمامته مع صغرها منحرفة من جانب رأسه الى الاذن وفي يده بقية عنقود من العنب كان يأكله في اثناء الطريق فلما رأى نفسه في حضرة الامير تراجع ورمى تلك البقية وعاد وفي مشيته وبجمل منظره تيهٌ واعجابٌ ولكنه مع ذلك لم يكن يستطيع مخاطبة عبد الرحمن الا بالاحترام لانه على كونه اميره لم يكن يسمع منه الا كل ما يطيب خاطره ويدعوه الى احترامه لما قدمناه من حسن سياسة عبد الرحمن ورقة جانبه — وربما توهم بعضهم ان الرئاسة انما يتأيد نفوذ صاحبها بالغلظة والكبرياء وشدة الوطأة ولكن ذلك من الاوهام الباطلة لان الرئيس الشديد الوطأة قد يملك ألسنة مرؤوسيه واما الوديع الرقيق الجانب فانه يملك قلوبهم ورقابهم — فلما دخل بسطام حياً فبشّ له عبد الرحمن ودعاه للقعود فقعد وهو يجيل نظره في اطراف الخيمة فرأى مريم وهانئاً فتوهم لاول وهلة انه دعي لامر يتعلق بهما ثم سمع عبد الرحمن يخاطبه قائلاً « دعوناك يا امير لنسألك عن امر يهمك كما يهمنا لان المصلحة واحدة وهي رفع منار الاسلام وتأييد كلمة الله . . »

فانشرح صدر بسطام لهذا الاطناب لان البربر لم يكن العرب يعاملهم الا معاملة الموالي كما تقدم فلما سمع بسطام ذلك الكلام قال « يأمر الامير بما يشاء وله ما يرضيه مني فاني اطوع له من بنانه »

قال « بورك فيك ونفع المسلمين بسيفك ٠٠ اما الامر الذي استقدمناك لاجله فهو ان بعض نصارى هذه المدينة يشكون مما اصاب بيعتهم من النهب وهم كما لا يخفى عليك اهل كتاب قد اوصانا الله برعايتهم وبحرمة كنائسهم وبيعهم وخصوصاً اننا في احوال تقضي علينا بمجاسنة اهل هذه البلاد حتى يهون علينا الفتح ونحن سائرون الى بلاد امنع ورجال اشد من اهل هذا البلد. فاذا اعتقدوا فينا الرفق والعدل ساعدونا — ولذلك كنتُ كثيراً ما اوصيكم بالاغضاء عن اماكن العبادة على يد اخينا الامير هانيء. فاذا كنت على بينة من امر تلك البيعة ونهبها ارجو ان تسعى في رد مانهب من آنيتها وادواتها ٠٠ »

الفصل العاشر

العرب في اسر الافرنج

فقال بسطام « لا انكر على الامير سداد رأيه في هذا الشان وقد كنا الى اليوم ونحن نراعي هذه القاعدة ونحترم البيع حتى رأيتُ في هذا الصباح امرًا اقشعرّ له بدني ولم اتمالك عن الانتقام لهُ بنهب تلك الكنيسة — رأيت في بعض منازل هذه المدينة رجالاً من المسلمين وغلماناً ونساء يستخدمهم اهلها استخدام العبيد الارقاء ٠٠٠ نعم لا انكر حقهم في ذلك لاننا نفعل باسرانا مثل هذا الفعل. ولكنني رأيت بعض الاسرى المسلمين مقيدين بالاغلال الحديد في ارجلهم والاحمال الثقيلة على ظهورهم وقد ساقوهم الى العمل في الكروم سوق الدواب (١) فلم اتمالك عند مشاهدتي هذه القسوة من الانتقام بنهب كل مانقع يدي عليه — لم استثن كنيسة ولا ديرًا ٠٠ »

فلما بلغ بسطام الى هذا الحد التفت عبد الرحمن الى المرأة كأنه يستفتيها في ذلك فقالت « لا انكر على مولاي ان معاملة الافرنج لاسراهم من العرب اكثر شدة من معاملة المسلمين لاسراهم من الافرنج وان تساوى الفريقان في اعتبار الاسرى ملكاً للغالبين يبيعونهم بيع السلع ومتى دخل الاسير في حوزة مالكه استعمله في ماينفعه من فلاحة اوزراعة او خدمة في شيء ولا يزالون عبيدًا هم واولادهم الى سلالات عديدة حتى يفتديهم اهلهم او اصدقاؤهم بالمال او غيره. اما المسلمون فان رجوع الاسرى الى الحرية عندهم اسهل مما عند الافرنج

(١) رينو

واما تقييدهم بالسلاسل فالغرض منه على ما اظن منعهم من الفرار اذ ربما حاولوه مرة ولم يظفروا فاثقلوهم بالاغلال ليمنعوهم منه ...»

فقطع عبد الرحمن كلامها ووجه خطابه الى بسطام قائلاً «هب انهم فعلوا ما تقول فالعبرة في النتيجة واذا كنا نأتي مثل ما اتاه هؤلاء فأي فضل لنا وبماذا نتوقع النصر في الدنيا والنعيم في الآخرة . فالذي يهمنا ان نعمل بمقتضى الكتاب والسنة ونقتدي بالسلف الصالحين . و زد على ذلك ان طمعنا بالقليل من الغنائم قد يأول الى فشلنا و يقف في سبيل الفتح فنخسر اضعاف تلك الغنائم ناهيك بالفشل وما قد يلحقنا بسببه من العار» ثم وجه خطابه الى هانئ وقد بدا الاهتمام بين حاجبيه وقال « لا يخفى عليكم اننا ساعون في عمل اثمن كثيراً من الذهب والفضة والآنية واعظم من ان يقاس بالحطام الفانية . نحن ساعون في فتح هذا العالم الكبير ــ فاذا توفقنا الى فتحه كسبنا الاموال والارواح ونشرنا الاسلام في قبائل من اهل النصرانية والوثنية لا يحصيها الا الله فنملك المدن والرقاب وتخفق راياتنا على رومية والقسطنطينية وغيرهما من عواصم النصرانية و يصير صعلوكنا اميرًا وفقيرنا غنيًّا فتحرز يا بسطام ما شئت من الذهب والفضة والجواهر وتملك ما تريده من الجواري والغلمان ... واذا كنتُ مخطئاً في قولي فنبهوني .. »

فأدرك هانئ ان عبد الرحمن انما ينتظر الجواب من بسطام احتيالاً عليه في اجابة الطلب فقال بسطام وقد تحير بلطف عبد الرحمن وتخيته « انك مصيب كل الاصابة والحق يقال ان البربر وغيرهم من الموالي لم ينتصفوا في حقوقهم بازاء العرب مثل انتصافهم في ايامك . فقد كان اسلافك ولا يزال كثيرون من امراء العرب الى اليوم يعدُّون المسلمين من غير العرب عبيداً فاذا حاربوا معهم في واقعة لا يقاسمونهم الغنائم كما يقاسمون العرب[1] فلا تظننا غافلين عن هذا الفضل .. »

فقطع عبد الرحمن حديثه قائلاً « لم اعامل غير العرب الا بالعدل لان المسلمين اخوة ... والآن اسرع الى الغنيمة قبل اقتسامها ومعك الامير هانئ فاستخرجوا آنية الكنيسة واحملوها الينا لننظر في اعادتها الى اصحابها »

خرج بسطام وهو منتفخ الصدر بما آنسه من الرعاية والاطراء ونسي ما كان في نفسه على هانئ بشان مريم ــ واهل الفظاظة والخشونة من اقرب الناس الى المصافاة لخلو قلوبهم من نتائج الكظم فاذا ساءهم احدٌ بعمل جاهروا بما في نفوسهم عليه فهم لا يحقدون ... وخصوصاً في

(١) تاريخ التمدن الاسلامي ج ٢

حال مثل حال بسطام بالنظر الى مريم فانه انما كان يطلبها لانه استلطفها ووعد نفسه بها ولكنه لم يعلق بحبها كما فعل هانئ . اما هذا فانه سار في اثر بسطام وظل قلبه في ذلك الفسطاط اولعله استعاض منه بقلب مريم لانها أحست عند خروجه كان قلبها اقتلع من صدرها وخافت الفضيحة لظهور اثر ذلك على وجهها فتشاغلت باصلاح الخمار الاسود

فلما خرج الاميران التفتت المرأة الى عبد الرحمن وقالت « يأذن مولاي الامير بارسال فتاتي هذه مع هذا الشيخ الى مقرّ تقيم فيه تحت حمايتك ريثما أتمّ حديثي معك ونرى ما يكون . . »

فصفق عبد الرحمن وصاح « يا غلام » فدخل احد الغلمان فقال له « شيع هذا الشيخ وهذه الفتاة الى خباء نسائي واوص قيّمة الخباء باكرامها وان لا تعدّها في جملة الجواري وانما هي ضيفة علينا اكرامها ورعايتها . . »

فاستحسنت المرأة ذلك والتفتت الى حسّان وقالت « سر يا عمّاه مع مريم في حياطة مولانا الامير وكن معها حتى آتيك . . »

فأشار مطيعاً وخرج وهو يتوكا على عكازه وخرجت مريم في أثره والغلام امامها

الفصل الحادي عشر

بعض السر

فلما رأى عبد الرحمن من تلك المرأة التماس الخلوة توهم انها ستطلعه على سرّها فلما خلَوا بادأها هو بالكلام قائلاً « اطلعيني يا اخية على اسمك قبل كل شيء . . . لأناديك به على الاقل . . »

قالت « اذا كان هذا هو المراد من معرفة اسمي فنادني سالمة »

قال « لقد ادهشني ياسالمة ما رأيته من غريب شانك وأراني كلما سمعت حديثك ازداد رغبة في استطلاع حقيقة أمرك . وكأني بك قد التمست الخلوة رغبة في مكاشفتي بسرّك . . »

فاصلحت سالمة من شأنها والتفّت بثوبها واخفت يديها في كمها وفيه المحفظة ونظرت الى عبد الرحمن والاهتمام بادٍ في عينيها وقالت « اعلم ايها الامير انك تخاطب امرأة غير

عربية وغيرمسلمة ولكنها من اشد الناس غيرة على العرب وعلى المسلمين. واستأذنُ مولاي الامير بالاقتصار على ماعرفه من أمري لاسباب ستبدو له قريباً ان شاء الله . واما الآن فاني أهبُ نفسي لخدمة المشروع الذي قمتم لأجله فأبذل ما في وسعي في سبيله »

فاستغرب عبد الرحمن تسترها وخاف ان يكون من ورائه خديعة او دسيسة فقال لها « ومن يضمن لنا انك تقولين الصدق ؟ »

قالت « لقد أعجبني سوء ظنك فيَّ .. ولو لم يبد ذلك منك لاستضعفتك لان من كان قائداً لمثل هذا الجند الكبير لاينجو من اهل الخداع والدسائس فان لم يسيء الظن في كل احد بات في خطر من دسائسهم . اما دعواي فلو صرحت لك بامري لهان عليك تصديقها واما الآن فيكفي دليلاً على صدق ما أقول ان اجعل ابنتي ووحيدتي رهناً بين يديك فان بدرت مني بادرة تدل على الخيانة او الغدر افعل بها ما شئت .. »

وكأن كلام سالمة نبههُ الى ما يحدق به من اسباب الخداع والمكر فبالغ في اساءة الظن بها فقال لها « ومن يؤكد لنا انها ابنتك فان الشبه بعيدٌ بينكما ... ويظهر انها عربية وما انت كذلك »

فأطرقت سالمة هنيهة ثم قالت « اما هذا فلا سبيل الى اثباته بغير الاستفهام من الفتاة نفسها والخادم الشيخ فانه عربيٌ مسلم وهو وحدهُ المطلع على سرّي ولكنه لا يبوح به الاّ في حينه فاسألوه .. » قالت ذلك ودلائل الاخلاص وصدق اللهجة يتجليان في عينيها وبما بدا في وجهها من امارات الحياء والاهتمام

فتحقق عبد الرحمن بفراسته انها تقول الصدق فاكتفى بقولها وقال « لقد صدقتك ياسالمة فأخبريني متى ياون كشف سرّك .. »

قالت « وكشف هذا السر غير مقيد بزمان وانما هو مرهون بحادث لا يجوز كشفهُ الاّ بعد حدوثه »

قال « وما هو ذلك الحادث ... »

قالت « لا أقولهُ الآن وانما يقربنا منهُ صدق النية في فتح هذه البلاد وسرعة النجاز وهذا هو الامر الذي وهبت نفسي له فاذا اذن مولاي ان اساعده فيه فعلت »

فلبث عبد الرحمن ساكتاً وهو مطرقٌ يفكر في ما سمعه ويحلله في ذهنه فرأى مفتاح السرّ كله في معرفة والد الفتاة مريم فرفع بصرهُ الى سالمة وقال وهو يلاعب اطراف حمائل السيف بين اناملهِ « لا باس من تاجيل خبرك وانما التمس منك أمراً هل تصدقينني

فيه ٠٠٠ »

قالت « اذا استطعتُ ذلك فعلته »

قال « اريد منك فقط ان تخبرني من هو والد هذه الفتاة واين هو؟ ٠ »

فلما سمعت سؤاله بغتت وتصاعد الدم الى وجهها وتغيرت سحنتها وبدت الكآبة في جبينها وحول فمها واطرقت مدة لا تتكلم ثم رفعت بصرها اليه وقد ابرقت عيناها بما غشاها من الدمع وقالت « تسألني عن مكان ابيها وانت تراني في هذا الثوب الاسود ٠٠ ؟ » قالت ذلك وامسكت طرف الخمار بين الابهام والسبابة وقد غصّت بريقها

فندم عبد الرحمن على سؤاله عن المكان فقال « لم يكن مرادي تذكيرك بمصابك بوفاة زوجك وانما اردت معرفة اسمه — ولا ارى مانعاً من اطلاعي عليه ونحن في خلوة ليس فيها ثالث واعاهدك على كتمان ذلك عن كل انسان ٠٠٠ لا اطلب منك الاطلاع على سرك وانما اريد معرفة اسم زوجك » قال ذلك وهو يتوقع اجابته على سؤاله

اما هي فلما رات الحاحه في معرفة اسم زوجها بدا الغضب في وجهها وقالت « يظهر اني اخطات في عرض نفسي لخدمتكم حتى لاقيت ما اراه من الالحاح عليّ والضغط على افكاري — لو كان التصريح باسم ذلك المسكين ممكناً لفعلت ولم اكلفك هذا العناء في السؤال ثم اني لا ارى فائدة من ذكره الآن وسيأتي وقت تعرف فيه كل شيء ٠٠ »

فاستغرب عبد الرحمن تكتمها وازداد رغبة في معرفة سرها ولكنه لم يرَ الزامها ذلك قهرًا مراعاةً لحاساتها وطمعاً في الانتفاع من خدمتها لنجاءها من جهة أُخرى فقال « حسناً بقي سؤال واحدٌ ارجو ان لا يكون حظي في الجواب عليه مثل حظي في سواه — هل اقوله ؟ »

قالت « قل ما بدالك »

قال « أرى ابنتك من الجمال في ماليس بعده غاية وهي في سن الزواج وانت وحيدة فلماذا لم تزوجيها بشاب تعيشين في حمايته ٠٠ ؟ ولا ريب عندي انك تجدين من الطلاب من تقرُّ به عينك لما هي عليه من الجمال والهيبة »

فالتفتت سالمة وقد انقشعت علامات الكآبة عن محياها وتحوّل انقباضها الى الانبساط وقالت « اما هذا السؤال فلا بأس من الجواب عليه ٠٠ »

فاستبشر عبد الرحمن وقال « وما هو »

قالت « ان الابنة مخطوبة منذ طفوليتها »

قال « لمن »

قالت « لرجل مسلم يغار على الاسلام والمسلمين ويكره الظلم والظالمين باسل شجاع واسع الصدر كريم النفس »

قال « وما اسمه ؟ »

قالت « لست على يقين من معرفة اسمه الآن ٠٠ »

قال « وهل تعرفهُ ابنتك ؟ »

قالت « لا اعرفه انا ولا تعرفه هي ولا يعرفه احدٌ سوانا ٠٠ »

فدهش عبد الرحمن لتلك المعميات وقال « كيف يكون ذلك ياسالمة ٠٠ ؟ يظهر انك تمزحين او تدافعين بالباطل »

قالت « اقسم بالرب المعبود انني اقول الصدق »

فقال « وكيف تكون ابنتك مخطوبة لرجل لا تعرفون له اسماً ولا لقباً ؟ »

قالت « اما لقبه فاننا نعرفه »

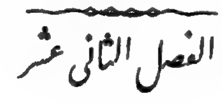
قال « وما هو »

قالت « يلقب بفاتح بلاد الافرنج بالسيف ٠ ومؤيد الاسلام فيه بالحق والعدل ٠ »

ففهم عبد الرحمن انها تريده هو اذ لا يصدق ذلك اللقب على سواه ولكنه أراد ان يتحقق ظنه فقال وهو يتجاهل مرادها « ومتى يكون الاقتران واين ؟ »

قالت « يجوز الاقتران في اي وقت اراده الخطيب ولكنه لايكون الآ وراء نهر لوار »

قالت ذلك وهي تنظر في عيني عبد الرحمن نظر مستفهم كأنها تقول له « هل فهمت من هو ؟ »



نهر لوار

فادرك عبد الرحمن ان المراد بتقييد الاقتران بذلك المكان تعجيل الفتح حتى يقطع المسلمون نهر لوار وهو آخر حدود اكيتانيا من جهة الشمال في الطريق الذي هم سائرون فيه ٠ فثار في خاطره حب الفتح وأحسَّ من تلك الساعة بميل الى مريم بنت سالمة وكان قد استلطفها منذ شاهدها في ذلك المساء وهو في شاغل من امر الحروب والنصر وتنظيم

الشؤون . فلما سمع ما قالته سالمة تذكر الفتاة وما في عينيها من الجواذب فشعر بميل اليها احياه فيه الامل بالحصول عليها — وذلك طبيعي في الناس في مثل هذه الحال فقد يرى احدهم الفتاة مرارًا ويستلطفها ولكنه لسبب من الاسباب لا يرجو الحصول عليها فاذا تنسم خبرًا ينبه فيه عاطفة الامل بالحصول عليها يشعر للحال بانعطاف ينمو فيه حتى يصير شغفا . ولا تنحصر هذه القاعدة في الحب ونحوه بل هي تطلق على سائر مطامع بني الانسان باعتبار اميالهم . فقد يكون احدهم محباً للسلطة مثلاً ولا يكون له مطمع فيها لتقاصره عنها بضعفه او فقره فاذا ظهر له من بعض ثقاته اعتقاد امكان ذلك له شغف به وبذل نفسه في الحصول عليه — وقد اصاب عبد الرحمن الغرضين معاً لان عبارة سالمة نشطته لتمام الفتح واحيت فيه الميل الى مريم فاكتفى بما دار من هذا القبيل لئلا تظهر منه خفة في هـذا الموضوع . فتجاهل وعاد الى تجاراتها في كتمان اسم زوجها وغرضها من الاستهلاك في مساعدتهم على امل استطلاع ذلك في فرصة اخرى وقال لها « دعينا الآن من هذا واخبريني ما لذي تنوين مساعدتنا فيه من اسباب هذا الفتح »

قالت « ليس لي سيف اناضل به عنكم او اشترك فيه معكم ولكنني خبرت طبيعة هذه البلاد وعرفت من احوال اهلها ما لو عرفه المسلمون لفتحوها على اهون سبيل ... »

فقال « وما ذاك »

قالت «هل يخفى على الامير عبد الرحمن ان الغاليين اهل هذه البلاد هم غير الافرنج الذين يحاربونكم ليمنعوكم منها ..؟ وان الدوق اود حاكم اكيتانيا هذه وجنده ليسوا اقرب الى قلوب الغاليين من قائد جند المسلمين ورجاله ...؟ »

قال « وكيف ذلك ..؟ »

قالت « ان سكان هذه البلاد اخلاط من الروم والغال . ومعنى ذلك ان الغاليين اهل هذه البلاد الاصليين كانوا أمة كبيرة ظلوا في حال البداوة والاستقلال حتى جاءهم الروم في القرن الاول قبل الميلاد ففتحوها على يد يوليوس قيصر القائد الشهير وما زالت في حوزتهم نحو خمسة قرون وقد تضعضعت دولة الروم فهاجمتها قبائل الجرمان من الشمال كما هاجمتها قبائل العرب بعد ذلك من الجنوب . والافرنج احدى قبائل الجرمان فتحوا غاليا هذه واستولوا عليها ويعرف حكامهم بعائلة ميروفي نسبة الى اول من تولاها منهم . وتوالى الحكم في هذه العائلة الى الامس وقد افضى الأمر الى ملوك ضعفاء طمع فيهم وزراؤهم وأمراؤهم فاقتسموا البلاد بينهم . ومن اقسامها اكيتانيا التي نحن فيها وآخر حدودها من الشمال نهر لوار ويحكمها الدوق

اودصاحبكم ثم اوستراسياوراء هذا النهر وحاكمها شارل (قارله) وزير آخر ملوك الميروفية وكلاهما من قبائل الفرنك . ولكن كلاً منهما ينظر الى الآخر بعين الحذر والاهالي ينظرون الى كليهما بعين المقت لعلمهم انهم انما يرغبون في فتح بلادهم ليتمتع بها . ثم جئتم انتم والفتح امّا لكم واما لهم . فالغاليون محكومون في الحالين ولا يهمهم لمن تكون الغلبة من الجندين الا اذا رأوا في احدهما مزية على الآخر بالنظر الى مصلحتهم وراحتهم ...»

فلم يتمالك عبد الرحمن ان قطع حديثها بقوله «وبالطبع هم يفضلون الافرنج لانهم نصارى مثلهم»

فابتسمت سالمة وقالت «ليس الامر كذلك يا مولاي ... ان الدين لادخل له في هذه الحرب وانما ساق قبائل الافرنج الى هذا الفتح حب السلطة والطمع في الكسب ولذلك فانهم اقتسموا فيما بينهم فان اود حاكم اكيتانيا التي نحن فيها الآن يحاذر من شارل حاكم اوستراسيا كما قدمت ويخاف سلطانه وكل منهما يجتهد في تبغيض الآخر الى الاهالي — وهؤلاء يبغضون كليهما لانهم لم يروا من معاملتهم ما يبشرهم براحة لما تعلمونه من عادتهم في استعباد الرعية وابتزاز اموالهم وسائر قوامهم — خلافاً للعرب عند اول الفتح فانهم لما فتحوا اسبانيا تركوا لاهلها الحرية في كل معاملاتهم ولم يتعرضوا لهم في شيء من دينهم وافضل امراء المسلمين في ذلك موسى بن نصير وابنه عبد العزيز وخصوصاً هذا الاخير ولو لم يعجلوا عليه رحمه الله لفتحت هذه البلاد على يده . اذ احس الاسبان في ايامه انهم انتقلوا من الضيق الى الفرج لكنهم ما لبثوا ان ذاقوا مرارة الظلم من بعض الذين خلفوه من امراء المسلمين ثم افضت الامارة اليكم . وبلغني انكم سائرون على خطة ذلك الفاتح العظيم في محاسنة الناس وانصاف اهل الذمة ورعاية العهود معهم فيما يتعلق بكنائسهم ودياناتهم وقد تحقق لي ذلك الآن — فالغاليون اذا ضمنوا سلامتهم وسلامة اهلهم ومعائشهم على يد المسلمين فانهم يكونون عوناً لهم على الفتح . ولا تنس اليهود فانهم نصراؤكم في كل فتوحكم من اول ظهور الاسلام . فهؤلاء انما نصروكم لانهم تحققوا ما تنوونه من اسباب الراحة لهم وكذلك النصارى وغيرهم من اهل هذه البلاد . واما ما يبدو لكم من شارات النصرانية والغيرة عليها فمحصور في طائفة الاكليروس ومن يهمهم نصرة الكنيسة من بقايا الرومان ومن انتمى اليهم من الغاليين . اما قبائل الافرنج فبينهم من اتخذ الدين ذريعة للسلطة وكسب الاموال كما فعل بعض قبائل البربر وغيرهم من جنودكم »

فلما سمع عبد الرحمن قولها تحقق سداد رأيه في ما شرع فيه من محاسنة اهل الذمة

وتوخي العدل والانصاف وقال « انتِ تعلمين اني فاعل ذلك من تلقاء نفسي فما الذي تفعلينه انتِ في هذا السبيل .. ؟ »

قالت « اني اقدم نفسي للذهاب في اي مهمة تفرضونها عليّ والافضل على ما أرى ان اتقدمكم في البلاد التي تنوون المسير لفتحها فأغرس في قلوب اهلها الامتنان للمسلمين وسلطانهم و يساعدني على ذلك مبالغتكم في اكرام نصارى بوردو وطمأنة قلوبهم ومحاسنتهم واحترام شعائر دينهم والمحافظة على اعراضهم وارواحهم فاذا فعلتم ذلك هان عليّ اقناع اولئك ان المسلمين الفاتحين اهل حرمة وذمام يخافون الله ويعملون بالعدل وليس كما يتوهمهم بعض ذوي الاغراض ان المسلمين قساة القلوب لا دين يردعهم عن ارتكاب المحرمات ولا حنان في قلوبهم يمنعهم من الظلم والعسف [1] ـ وقد حمل الناس على تصديق ذلك ما كان يرتكبه بعض الذين كانوا يرافقون جند المسلمين لمجرد الرغبة في النهب والقتل ولم يكن أميرهم حكيماً عاقلاً مثل عبد الرحمن ليصلح ما يفسدونه مما رأيناه منه في هذا المساء ... »

فازداد عبد الرحمن اعجاباً بتعقل تلك المرأة وغيرتها على المسلمين وقال « افعلي ما يتراءى لك واني فاعل بنصارى بوردو ما تريدينه فما الذى يرضيهم .. ؟ »

فقالت « انما يرضيهم في الدرجة الاولى المحافظة على شعائرهم الدينية واستبقاء كنائسهم ومعابدهم ثم ردّ اسراهم بالافتداء على جاري العادة. وهناك امر ذو بال اوجه التفاتكم اليه وذلك ان بيع اسرى النصارى الى اليهود مما يسوء النصارى لما تعلمه من الضغائن بين الطائفتين وخصوصاً بعد ما ظهر من ممالأة اليهود لكم وتسهيل الفتح عليكم ... »

فقطع عبد الرحمن كلامها قائلاً « ولكن اليهود تجار نبيعهم الاسرى بالمال فمن اراد من اهل البلاد ان يفتدي اسيره افتداه منهم بالمال .. »

قالت « ولكن بعض اليهود يبتاعون الاسرى للتنكيل بهم تشفياً مما كان النصارى يسومونهم اياه من قبل وكثيراً ما كان اليهود يبتاعون الاسرى النصارى ويذبحونهم صبراً [2] فتجنب هذا الامر مستحسن في كل حال »

---

(١) روحي ج ٣ ورينو (٢) تاريخ التمدن الاسلامي ج ١

الفصل الثالث عشر

الآنية

ولم تتم سالمة كلامها حتى سمعوا قرقعة وضوضاء خارج الفسطاط ثم دخل بعض الغلمان وهو يقول « الامير هانيء بالباب ومعه اناس يحملون اكياساً ٠٠ »

ثم دخل هانيء ووراءه عبيدٌ يحملون اكياساً وأدوات وهو يقول «هذه ادوات الكنيسة لم نقدر على جمعها الاَّ بعد شق الانفس لانها كانت قد تفرقت في اصحاب الغنائم» قال ذلك وأمر الرجال ان يفرغوا ما في الاكياس بين يدي الامير ولم تمض لحظة حتى امتلأ البساط بالشمعدانات والصلبان والكؤوس وفيها الفضة والذهب فضلاً عن اصناف من المعالق والصحون والصور المذهبة والمفضضة وقطع من الذهب اقتلعوها عن الصور الكبرى التي لم يستطيعوا حملها وعن جدران الهيكل واساطينه

فلما خرج الحملة ولم يبق في الخيمة الاَّ عبد الرحمن وهانيء وسالمة التفت عبد الرحمن الى سالمة وقال لها « هذه هي الآنية فماذا نفعل بها ؟ »

قالت « أرى أن ترسلها الى اسقف الكنيسة في بوردو مع رجل يخبره ان نهب هذه الكنيسة حصل بغير ارادتك ٠ ثم يعتذر لهُ عن ذلك ويخبره ان الاسرى باقون الى مساء الغد في هذا المعسكر فمن اراد ان يفتدي اسيره افتداه ولاحرج عليه ٠ وبعد رجوع الرسول اذهبُ انا الى الاسقف فاغتنم انجذابهُ برفق المسلمين وعدلهم واطلب اليه المساعدة في اقناع اهل البلاد الاخرى الواقعة في طريقكم الى نهر لوار بالمراسلة انَّ المسلمين ارفق بهم من الافرنج بل هم يكونون في حوزة المسلمين احراراً فى دياناتهم وعاداتهم وحكومتهم وقضائهم وسائر احوالهم كما كان اهل الاندلس في اول الفتح ٠٠ »

فلم يستطع عبدالرحمن ان يزيد على رأي سالمة كلمة واحدة ولم يزددالاَّ انجاباً بسداد رأيها وسعة اطلاعها فقال لها « فليكن كما تقولين وبالطبع يجب ان يبقى كل ما دار بيننا مكتوماً عن كل انسان غيرنا لئلا يفسدوا سعينا علينا » والتفت الى هانيء وقال لهُ « اعهد الى رجل من خاصتك تثق بعقله وحسن اسلوبه ان يوصل هـذه الآنية الى الاسقف ويبلغه هذه الرسالة »

ولم يكن هانئ اقل اعجاباً بسالمة من عبد الرحمن بل هو يفضله في ذلك بما في خاطره من امر ابنتها التي ملكت لبّه من اول نظرة فلما سمع رأيها استحسنه وزاد احترامه لها وحبه لابنتها وبادر في الحال الى رجال حمّلهم الآنية وخرج لانجاز تلك المهمة

ثم نهضت سالمة والتمست من عبد الرحمن من يرسلها الى مقر ابنتها لتبيت هناك الى الصباح ثم تخرج لمهمتها . فاراد عبد الرحمن المبالغة في اكرامها فاسترجع هانئاً وقال له ادع لي رجلاً من خاصتك يشيع سالمة الى خباء النساء حيث تقيم ابنتها . »

فعدّ هانئ تلك المهمة فرصة يجب اغتنامها فقال « ومثل هذه الفاضلة لا يليق في خدمتها غير الامراء .. اني ذاهب الى قرب ذلك الخباء فانا اشيعها اليه »

فاستحسن عبد الرحمن شعور هانئ في احترام سالمة تشجيعاً لها فابتسم وقال « بورك فيك .. لنها اهل لفوق ذلك ... »

فمشت سالمة في أثر هانئ وظل عبد الرحمن وحده وقد بهره ما شاهده في ذلك المساء من الغرائب وتوسم خيراً بنجاح حملته وزاد رغبة في تفقد جنده والسهر على جمع كلمته

الفصل الرابع عشر

الخباء

اما مريم فانها خرجت مع خادمها حسان من خيمة الامير عبد الرحمن والغلام دليلها الى الخباء كما تقدم . وكان الليل قد نصب سرادقه فمشت مريم وفكرها مشتغل بهانئ واحست بجاذب يجذبها نحوه لا تدري ما هو . وقد ذهب من خاطرها ما كانت تسمعه من والدتها عن اهمية مستقبلها وان كانت في الواقع لم تسمع منها شيئاً صريحاً بهذا الشأن . ولكنها كانت تحملها على اتقان التلفظ باللغة العربية وتعليمها ركوب الخيل وفنون الفروسية وسائر الالعاب الرياضية حتى تخشنت عظامها وقوي عضلها وشبّت على الحمية وعزة النفس والشجاعة ولكن اللطف النسائي ما زال غالباً على طبيعتها وانما زادتها تلك الرياضة صحة واكتسب وجهها رونقاً واشراقاً

مشت في اثر الغلام وبجانبها حسان يتوكأ على عكازه بنشاط وخفة وقد تزمل بقبائه

وعلى رأسه قبعة (طاقية) قد لصقت من كل اجزائها براسه وكان رأسه حليقاً فظهرت كانها جلداً ثانياً له . فمروا في اثناء الطريق بجماعات من الرجال كل جماعة من قبيلة بعضهم في الخيام والبعض الآخر في ما بينها وقد علت الضوضاء . واكثر ما يُسمع من اصوات الرجال عبارات الاختصام على قسمة الغنائم وخصوصاً ما كان فذاً ثميناً من الاثواب الموشاة او الآنية الذهب او الفضة او الادراع او الطنافس فربما افضى الخصام في بعضها الى تجزئتها الى قطع وتفريقها في المختصمين واجزاؤها لا تفيدهم شيئاً . وكانت مريم تسمع اصوات الامراء يهددون رجالهم او يوبخونهم ولا تسل عن قلبها لما سمعت صوت هانئ في خيمته على بضع خطوات منها وهو يحادث بعض الناس لاقناعهم بتسليم آنية الكنيسة عملاً باشارة عبد الرحمن . فلما سمعت صوته اختلج قلبها في صدرها وودت لو انها تقف هناك برهة لتسمع حديث حبيبها وتستأنس بصوته وتمنت لو ان الخباء على مقربة لعلها اذا خرج هانئ من هناك يمرُّ بها . فنادت الغلام وسألته عن موقع الخباء فقال « انه خارج هذا المعسكر يامولاتي »

قالت « وهل هو بعيد من هنا »

فتطاول الغلام بعنقه وهو ينظر نحو الافق ثم قال « ان الخباء يا سيدتي بقرب هذه النار » واشار باصبعه الى نار موقدة وراء حدود المعسكر

فنظرت مريم فاذا هي لا تزال بعيدة عن المكان فقالت « ولماذا جعلوا الخباء بعيداً بهذا المقدار »

قال « لانهُ دار النساء والعادة في هذه الدور ان تقام خارج المعسكر ومتى وصلنا الى هناك ترين اخبية عديدة لنساء الامراء والقواد وغيرهم من رجال الجند . ولولا من يقوم بخدمتهن من الخدم والخصيان والعبيد لحسبت نفسكِ في مدينة من النساء

فصبَّرت مريم نفسها وسكتت وهي تجدُّ في المشي وحسان ماش وهو ساكت كأنهُ استأنس بصوت خفق نعاله ووقع عكازه على الحجارة . حتى اذا خرجوا من المعسكر سمعت عند خروجهم اصواتاً آتية من اطراف المعسكر تشبه ان تكون تهديدية فاجفلت وتراجعت فطمأنها حسان وهي اول مرة نطق بها في اثناء الطريق فقال « لا تخافي يا بنية ان خفراء الجند يطلبون منا شعار الليل فاذا لم نجبهم به استغشونا »

فقالت « وكيف ذلك ...؟ وما هو الجواب »

قال « هو عند هذا الغلام » والتفت اليه ليسأله فاذا به يقول بصوت عالٍ جواباً

على ما قاله الخفراء « طليطلة وقرطبة » فتحول حسان نحو مريم وقال « هذا هو شعارهم الذي يتعارفون به اليوم » فسكت الخفراء ومشت مريم وحسان في أثر الغلام حتى انتهوا الى الاخبية فسمعوا من خفرائها مثل ذلك النداء فاجابوا عليه مثل ذلك الجواب • وتحول بهم الغلام الى خباء منفرد امامه نارٌ عظيمة فعلمت مريم انه الخباء الذي هي آتية اليه • فلما دنت منه رأت الخدم ببابه وفيهم البيض من الصقالبة الذين يباعون في تلك البلاد والسود الزنوج الذين رافقوا الحملة من افريقيا واكثرهم من الخصيان • ولما أقبلت مريم على الخباء تأملت في بنائه فاذا هو عبارة عن بناء من نسيج احمر متين مربع الشكل قائم على اعمدة من الخشب محيطة بالقماش • وربما بلغت مساحة الخباء خمسين ذراعاً في خمسين يكتنفه سور من ذلك النسيج مسندٌ بالاعمدة ومشدود في الارض بالاوتاد والامراس • وسقف الخباء عبارة عن قبة كبيرة من ذلك النسيج قائمة على عمد متينة وقد قسم الخباء داخل السور الى غرف وافنية يفصل بينها جدران من نسيج اخضر مسندة بالعمد ايضاً

وهي تتأمل في ذلك البناء اذ أقبل عليهم رجل من خصيان الخباء ابيض اللون عرفت مريم من سحنته انه صقليٌّ فاستقبله الغلام وتعارفا وتفاهما • وكأن الغلام افهم الخصي المهمة التي هو قادم بشأنها فتركهُ وهو يقول بلسان عربي تخالطهُ عجمة « اني ذاهب الى القهرمانة قيمة الخباء استقدمها لاستقبالها » ومضى حتى دخل الخباء فوقفت مريم وحسان والغلام في انتظاره ثم عاد وهو يقول « تفضلي يامولاتي بالدخول ويبقى خادمك معنا في اكرام ورعاية »

فمشت مريم وقد التفت بثوبها الاسود واصلحت نقابها الاسود وتمهدت شعرها استعداداً لاستقبال القهرمانة قيمة الخباء • فدخلت باب الخباء في أثر الخصي فرأت نفسها في دهليز انتهت منهُ الى شبه قاعة فيها مصباح منارٌ بالزيت قد علقوه بحبل في سقف الخباء بين عامودين من أعمدته لم تشك مريم انه من مصابيح بعض الكنائس في البلاد التي فتحوها • وأرض الخباء مفروشة بابسطة ثمينة وفيها معظم مايحتاجون اليه من الآنية الضرورية كأن اهله مقيمون هناك منذ اعوام

فلما دخلت القاعة سبقها الخصي واخبر القهرمانة فتقدمت لاستقبال ضيفتها • وكانت القهرمانة كبيرة الجثة ثقيلة الحركة عريضة الوجه كبيرة العينين خشنة الصوت متدلية الخدين من الكبر غليظة الشفتين قد نبت على شفتها العليا وحول ذقنها شعر متفرق مستطيل

وقد غطت صدرها وعنقها بالقلائد والعقود وفيها الذهب بين مرصع وغير مرصع وحول زنديها الاساور والدمالج وفي أذنيها الاقراط وفي رجليها الخلاخل حتى يكاد الناظر اليها وهي تمشي وتتوكأ على وركيها يتوهم انها تنوء تحت اثقال تلك الحلى مع ان دلائل القوة ظاهرة في كبر وجهها ووضوح تقاطيعها • وكان بينها وبين عبدالرحمن قرابة نسائية وقد القى اليها مقاليد خبائه وفوضها في تدبير شؤون نسائه وجواريه وفيهن القوطيات والصقليات والروميات والبربريات وغيرهن • فلما رأت مريم وما هي فيه من الجمال والهيبة أحبتها واستخفت روحها فاستقبلتها ورحبت بها وخصوصاً بعد ان علمت برغبة عبدالرحمن في اكرامها • وكانت مريم قد استوحشت من منظر تلك القهرمانة فلما سمعت ترحابها استأنست بها وهمت بتقبيل يدها فامتنعت وقالت لها « أهلاً بك ياحبيبتي ما اسمك ... ؟ »

قالت « مريم » ولفظت الراء غيناً

فاستلطفت تلك اللثغة منها ودعتها الى الجلوس على البساط ثم دعت بعض الخدم فجاؤها بالطعام وكانت لم تذق طعاماً من صباح ذلك اليوم فأكلت ثم جلست والقهرمانة تحادثها وتسألها اسئلة كثيرة ومريم تجيبها وهي مشتغلة البال بما جال في خاطرها من أمر هانيء وكلما تذكرته خفق قلبها وتسارعت ضرباته • فلما رأتها القهرمانة قلقة منقبضة حملت ذلك منها محمل الاستيحاش وتذكرت ما أوصى به عبدالرحمن من اكرامها ففكرت في سبيل تستأنس هي به • وبعد اعمال الفكرة مدة ومريم صامتة قالت العجوز « يظهر ان حديث العجائز لم يرق لك وقد أوصاني الامير باكرامك ورعايتك ولعل من اسباب استيحاشك قرب عهدك من الاسر ويسوؤك انك أُخذت من اهلك فاعلمي انك تكونين عندنا كانك بين أهلك • واني داعية لك من نساء هذا الخباء امرأة أصلها من أهل هذه البلاد وقد تعلمت العربية وهي بارعة في الجمال ولها منزلة رفيعة عند الامير فاظنك اذا لقيتها استأنست بها » قالت ذلك وصفقت فدخل خصيٌّ من الصقالبة وتأدب في موقفه فقالت له « قل لميمونة ان القهرمانة تدعوك اليها » فخرج الخصي فالتفتت القهرمانة الى مريم وقالت « أظنك ستستأنسين بميمونة لانها من أعز اهل هذا الخباء على الامير وهي في الاصل من جواري لمباجة بنت الدوق اود صاحب هذه البلاد • أظنك تعرفين حكايته مع المينذر الافريقي احد أمراء المسلمين الذي كان والياً في الجبال على حدود اسبانيا وكان قد أبرم مع الدوق اود معاهدة لانعرف فحواها ولكننا علمنا ان اود ازوج ابنته

للمنيذر المذكور نخاف أميرنا عبد الرحمن من خفايا ذلك الاتفاق فرَّ بالجيال وهو قادمٌ لهذا الفتح وقتل المنيذر واغتنم الجند أمواله ونساءهُ وارسلوا امرأته لمباحة الى الخليفة في دمشق • فكان من نصيب الامير عبد الرحمن ميمونة هذه • وقال انها كانت أعز جواري لمباحة اليها وأشبههنَّ بها جمالاً وقدًّا وتعقلاً وسترينها الساعة »

الفصل الخامس عشر

ميمـونة

ولم تتم القهرمانة كلامها حتى دخل الخصي ولم يتكلم فعلمت ان ميمونة قادمة في أثره• ثم دخلت ميمونة وعليها ثوب ارجواني واسع الكمين طويل الاردان يجرُّ وراءها مع طول قامتها واعتدالها ولها شعرٌ ذهبيٌّ طويل قد ضمتهُ حزمة واحدة وأرسلتهُ على ظهرها ولو تأملته جيداً لرأيت لونه يختلف باختلاف الجهة التي تنظر اليه منها •فاذا نظرت اليه وأنت تستقبل وجهها رأيتهُ ذهبياً ناصعاً واذا تفرست فيه وأنت الى جانبها رأيت فيه ميلاً الى الشقرة اللامعة • ومع ذلك فقد كانت سوداء العينين واسعتهما طويلة الاهداب سوداءها • وترى في عينيها لماناً يدلُّ على الغنج والدهاء اكثر مما يدلُّ على الصدق والوفاء • وكانت صغيرة الانف مطمئنة الفم رقيقة الشفتين بارزة الذقن عريضته بيضاء البشرة وخصوصاً العنق مع صفاء اللون • فلم تتمالك مريم عند وقوع نظرها عليها من الاعجاب بما يتجلى في وجهها من الهيبة والجمال ورأت نفسها مظلمة منقبضة بما التفت به من الكساء الاسود

فلما دخلت ميمونة ووقع نظرها على مريم هشت لها وابتسمت ابتسامة انفتح لها قلب الفتاة وأحست للحال بأنس انساها ما كانت فيه من القلق واجابتها بابتسامة يتوسم المتفرس فيها غير ما يتوسمه بابتسامة تلك ولا يميز ذلك الاَّ الناقد البصير• دنت ميمونة من مريم وحيتها ورحبت بها كأنها كانت على موعد من لقائها او كأنها كانت تعرفها من زمان طويل • فازدادت مريم استئناساً وطمأنينة ونسيت ما سبق الى ذهنها من التهيب عند مقابلة القهرمانة • اما هذه فانها حال دخول ميمونة خاطبت مريم قائلة « هذه ميمونة التي اخبرتك عنها الساعة فأرجو ان تستأنسي بها وترتاحي الى مجالستها » واشارت الى مريم وقالت

« وهذه ضيفة الامير عبد الرحمن قد بعث الينا بها واوصانا برعايتها »

فجلست ميمونة بقرب مريم وهي تقول « اهلاً بالضيفة الكريمة من اين اتيتِ ياحبيبتي » قالت ذلك بكلام عربي تخالطه لهجة افرنجية فتبسمت مريم من مجمل سحنتها ونسق كلامها انها افرنجية الاصل كما قالت لها القهرمانة فأجابتها « قد كنت في جملة اهل بوردو الذين قضي عليهم بالوقوع في اسر هذا الجند »

قالت « هل قبضوا عليكِ وحدك وليس معك احد من اهلك ٠٠ ؟ »

قالت « كلاّ ٠ ولكنهم قبضوا على والدتي ايضاً وخادم شيخ غادرته مع جملة خدمة هذا الخباء خارجاً »

قالت « اراكِ تتكلمين العربية جيدًا وتقولين انك من اهل بوردو فكيف ذلك ٠٠ ؟ »

قالت « لا ادري السبب ولكن هذا هو الواقع » قالت ذلك وهي تعلم ان والدتها لا تريد التصريح باكثر منه

فقالت « وهل قتل ابوكِ في هذا الفتح ؟ »

قالت « كلاّ »

فقالت « وهل أُسر ؟ او فرّ ٠٠ ؟ »

فسكتت واومأَت برأسها ان « لا هذا ولا ذاك »

فأدركت ميمونة ان والدها ميت من قبل لكنها لم تكتفِ بذلك فقالت « وما اسم والدتك لعلي اعرفها »

قالت « اسمها سالمة »

قالت « هي اذاً عربية »

قالت « لا ادري »

وكانت ميمونة في اثناء تلك المحادثة تتفرّس في وجه الفتاة وتستحث ذاكرتها لتستحضر صورة مثل صورتها اذ خيل لها انها تعرفها من قبل واطالت السؤال لعلها تستدل على ذلك من كلامها فلما رأَتها قطعت الحديث بقولها « لا ادري » عدلت عن زيادة البحث والتفتت الى القهرمانة فرأَتها قد دلّت رأْسها على صدرها ونامت واخذت في الشخير فقالت لمريم « هلمّ بنا الى غرفتي فتمكثين عندي في اثناء هذه الضيافة »

فأطاعتها مريم ونهضت معها وتحولتا الى غرفة من غرف ذلك الخباء فجلستا هناك وقد

عادت ميمونة الى استحثاث ذاكرتها لعلها تستحضر صورة ذلك الوجه واين شاهدته ومريم في غفلة عن ذلك وفي شاغل مما عاد الى ذهنها من الهواجس بشأن هانيء وما غادره في فؤادها من لواعج الحب فغلب الانقباض عليها وبدت في وجهها ملامح الاضطراب

خلتا صامتتين مدة وكل منهما في هاجس واذا بصوت القهرمانة يقرع الآذان وهي تنادي « ميمونة ... مريم .. »

الفصل السادس عشر

سرّان

فذعرتا وخافت ميمونة من غضب القهرمانة لئلاّ تعدّ خروجها من عندها على تلك الصورة ذنباً فتشكوها الى الامير او تسيء معاملتها لانها الآمرة الناهية على اهل ذلك الخباء — وللقهرمانات نفوذ عظيم في بيوت الامراء والخلفاء والسلاطين في كل العصور واذا كان الامير او الخليفة ضعيفاً اصبحت القهرمانة صاحبة الامر والنهي حتى في اعمال الحكومة تعزل وتولي وتقبض وتطلق كما تشاء — فلما سمعت ميمونة نداءها نهضت للحال فنهضت مريم معها ومشتا نحو القاعة ودخلتا واذا هناك امرأة بلباس اسود يجللها من رأسها الى قدمها فحالما رأتها مريم علمت انها والدتها فتقدمت اليها وسلّمت عليها فقبلتها سالمة اما ميمونة فلم تكد تتفرس في وجه سالمة حتى انجلت لها الصورة التي كانت تستحث الذاكرة في استحضارها فبدت في وجهها امارات الاضطراب والبغتة ولكنها تغلبت على عواطفها وتقدمت للسلام على سالمة وهي تهشّ لها وترحب بها . اما سالمة فحالما وقع نظرها على ميمونة عرفتها فخفق قلبها دهشة لانها لم تكن تتوقع ان ترى ذلك الوجه هناك ولا في كل اوربا فردّت السلام عليها ببرود وهي تتفرس في وجهها لتتحقق ظنها فيها وميمونة تغالطها بعبارات الترحاب والمجاملة والممازحة كقولها « لقد سرّني كونك هنا سروراً مزدوجاً لسببين الاول انني استأنست بك وفرحت لفرح حبيبتي مريم بك وان يكن لم يسبق لي حظ بمعرفتك والثاني لان نداء خالتي القهرمانة لم يكن من غضب عليّ .. » قالت ذلك وضحكت وتشاغلت باصلاح شعرها هنيهة ثم عادت الى الكلام وهي تلاعب كمّ ثوبها وتضحك وعيناها تبرقان وقالت « فرحباً بك لقد اتيت اهلاً ووطئت سهلاً فعسى ان نقضي مدة اقامتنا هنا معاً بسرور »

ثم وضعت ميمونة يدها على كتف مريم كأنها تحاول ضمها اليها وقالت . ولا تلوميني اذا علقت بحب ابنتك من اول نظرة فانها تعشق بما خصها به العناية من اللطف والجمال فلا غرو اذا لاقت من الامير عبد الرحمن هذه العناية والاكرام .. »

وكانت ميمونة تتكلم وهي تضحك وتتلاطف وسالمة تحدق فيها وتتبين لهجة كلامها وغنة صوتها لتتحقق ظنها في معرفتها واستغرقت في التفكر وتحيرت في الذي تعمله بعد ان علمت حقيقة تلك المرأة التي سمت نفسها ميمونة وليست هي ميمونة وتظاهرت بأنها من جملة نساء ذلك الجند الداعيات بدعوة المسلمين وقد تكون بلاءً كبيراً على الجند وأهله . فتحيرت سالمة بين ان تكشف امرها وتبين لها انها عرفتها او تكتم خبرها وتتجاهل . على انها لحظت من الجهة الاخرى ان ميمونة عرفتها وعرفت حقيقتها فخافت ان تبوح بها الى احد وهي تودّ بقاء أمرها مكتوماً كما علمت فعزمت على التجاهل موقتاً لترى مايكون فقالت « انه ليسرني أيضاً ان تكون ابنتي في حجر اخت حنونة نظيرك وفي رعاية الخالة ايدها الله » قالت ذلك وأشارت الى القهرمانة

فضحكت العجوز حتى بانت لثتها وما فيها من الاسنان القواطع الا اثنتان واحدة في الاعلى والاخرى في الاسفل وبينهما ثغرة مربعة الشكل ثم قالت « ان ابنتك ياسالمة ضيفة عندي وما للضيف غير الكرامة وليست هي من نساء هذا الخباء اوسراريه او جواريه ليجري عليها الامر والنهي .. »

فقطعت سالمة كلامها قائلة « لا اعدّها الا تحت أمرك واذا شئت ان تعديها ابنة لك كان ذلك من زيادة فضلك » فهمت القهرمانة بالوقوف وهي لثقلها لاتستطيع النهوض الا بالاعتماد على يديها والزحير والتوكوء كانها تحمل حملاً أثقل كاهلها . فلما قاربت الوقوف قالت « هي ابنتي واعز من ابنتي ولذلك فاني عهدت برعايتها الى احب اهل هذا الخباء الى الامير عبد الرحمن » وأشارت الى ميمونة

فأتمت ميمونة عبارتها قائلة « كوني مطمأنة ياسالمة فان مريم تكون عندنا كانها في حجرك ومن يستطيع ان يرى هذا الوجه ولا يحبه ويتعشقه . ولا يترك محبها الينا باسم الضيفة فان الامير لايلبث ان يراها حتى يتعلق بها و يود استبقاءها عنده فيزيد بذلك سرورنا ونفرح ببقائها بيننا » قالت ذلك ونظرت الى مريم وتبسمت

فلما سمعت مريم ذلك بدت البغتة في وجهها وخافت ان يصح قولها فتخسر حبيبها وتضيع آمالها فتصاعد الدم الى وجهها حتى اصطبغ واطرقت . فظنت ميمونة انها اطرقت

حياء على عادة البنات اذا خوطبن بمثل ذلك

فقطعت القهرمانة كل حديث بقولها « هلمّ الآن الى الرقاد فقد مضى معظم الليل » ثم صفقت فخالط صوت الصفيق خشخشة الاساور والدمالج وجاء احد الخصيان فقالت له « أعدد غرفة خاصة بالضيفتين »

فقالت ميمونة « اجعليها بقرب غرفتي ان لم تكن هي نفسها لاني قد استأنست بالحبيبة مريم وهي استأنست بي » فأشارت القهرمانة الى الخصي ان يفعل

الفصل السابع عشر

العقد

وبعد قليل عاد الغلام وقال انه اعدّ كل شيء فانصرفوا جميعاً وسارت سالمة ومريم في أثر الغلام نحو الغرفة وقبل ان تصلا اليها سمعتا صهيل فرس اختلج له قلب مريم اختلاجاً متسارعاً لانه يشبه صهيل ادهم هانيء فلم تتمالك ان سألت والدتها قائلة « كأني اسمع صهيل فرس الامير هانيء فهل هو هنا ؟ »

قالت « لقد جاء معي الى هذا المكان وكنت احسبه عاد حالاً لانه سائر في مهمة ذات بال تتعلق باسقف بوردو فالظاهر انه في شاغل موقت هنا ثم ينصرف »

فتوسمت مريم من بقائه هناك خيراً ودلها قلبها على انه انما بقي لمشاهدتها فاشتغل خاطرها في ذلك وظهر الارتباك في وجهها ولو تفرست امها فيها لرأت في عينيها ارتباكاً وتفكيراً وقلقاً ولكنها لم تنتبه لشيء من ذلك لانشغالها بأمر نفسها واستعدادها للمسير في الغد الى بوردو

أما القهرمانة فلما خلت بنفسها اخرجت من جيبها منديلاً مصروراً على شيء في داخله ومشت نحو المصباح وفتحت المنديل وأخرجت منه عقداً من اللؤلؤ باسلاك من الذهب وفي وسط العقد صليبٌ من الذهب مرصع بالياقوت والالماس على شكل بديع فوضعت العقد على كفها وأخذت تقلبه وهي تبتسم وتقول في نفسها « لابد من غرض لهانيء باهدائه هذا العقد لي والا فليس في وجهي ولا في قامتي مايدعو الى الشغف او العشق ولا هو يحتاج الى وساطتي لدي عبد الرحمن لانهُ صاحب الكلمة النافذة عنده »

ثم امسكت العقد بأحد طرفيه بين اصبعيها ورفعته امام المصباح فأبرق الصليب بما فيه من الحجارة الكريمة فقالت « لاشك ان هذا العقد من جملة ما أصاب هانئ من الغنائم في واقعة اليوم فلا يهمه خروجه من يده ولكن لابد له من غرض في اهدائه » ثم انتبهت بغتة وقالت في نفسها « عرفت غرضه . ولا بأس به » ثم صفقت فدخل غلامها فقالت له « قل للامير هانئ يوافيني الى غرفتي من بابها الخارجي — خذ بيده الى هناك .. » قالت ذلك وأرجعت العقد الى جيبها ومشت نحو الغرفة وهي تتوكأ وتترجرج فوصلت اليها قبل هانئ ببعض ثوان فجلست على وسادة بجانب جدار الخباء ثم أقبل هانئ وعلى رأسه بدل العمامة خوذة من الفولاذ وقد ارخى العباءة فانفتحت عن صدره فبانت الدرع من تحتها وحول خصره حمائل يتدلى منها سيفه المعهود — دخل مسرعاً حتى اقترب من القهرمانة وهي جالسة لم تتحرك ولكنها قالت له « مرحباً بالامير هانئ — تفضل اجلس »

قال « لاصبر لي على الجلوس ياخالة لاني ذاهب في مهمة مستعجلة وقد أحببت ان أراك قبل ذهابي »

قالت « بورك فيك يابني فهل من حاجة اقضيها لك ؟ »

فتبسم هانئ وقال « لي حاجة سهلة جدًّا لا أظنك تضنين بها عليّ »

قالت « وما هي »

قال « أرأيت مريم ؟ . أحب ان أراها واخاطبها ساعة بحضورك حتى تكوني على بينة من سلامة نيتي »

قالت « الآن ؟ »

قال « كلاّ . غداً صباحاً بعد ذهاب والدتها .. لاشك انك تجيبين سؤلي وليس فيه مايخشى منه »

فتنحنحت القهرمانة وضحكت وأشارت بعينيها أنها تفعل مايريده فهمّ بيديها ليقبلها فمنعته فخرج وانصرف

اما مريم فقد تركناها ذاهبة مع والدتها الى المضجع وهي غارقة في بحار الهواجس ووالدتها لاتخاطبها فوصلت الى غرفة هي عبارة عن حجرة جدرانها من القماش وفي ارضها بساط وعليه فراش وعلى أحد جدران الحجرة ركوة لشرب الماء معلقة بخيط فجلستا على الفراش ومريم لاتزال ساكتة فلما استقر بهما الجلوس قالت سالمة « نحمد الله يابنية على نجاتنا من هذه الواقعة ونجاحنا في اقناع أمير هذا الجند بما نريده وفيه خيرهُ وخير

هذه البلاد — فاعلمي يامريم أني ذاهبة في صباح الغد الى اسقف بوردو وربما ابقى عنده يوماً اويومين لقضاء بعض المهام فهل يشق عليك هذا الفراق ؟ . »

فقالت مريم « ولماذاهذا الغياب وما هي تلك المهام التي تقتضي أياماً للفراغ منها — وأنا لم افارقك قبل اليوم مطلقاً فهل استطيع البقاء وحدي بين أناس لا أعرفهم ... فاتركي عندي حساناً فاني استأنس به »

قالت « اني في حاجة اليه في هذه المهمة .. والاَّ فان غيابي يطول كثيراً »

قالت « لقد شغلت بالي ... هل تقولين لي سبب ذلك الغياب ؟ »

قالت « لا أخفي عنك يابنية اني اتفقت مع الامير عبد الرحمن على ان أكون واسطة بينه وبين الغالين سكان هذه البلاد الاصليين على شرط ان يعاملهم بالرفق والاحسان كما عامل موسى بن نصير وابنهُ عبد العزيز نصارى الاندلس عند فتحها وانا ذاهبة في صباح الغد الى اسقف بوردو فالاقيه بعد ان تكون الآ نية قد وصلته واعتقد صدق أمير المسلمين فاستعينه واستعين سواه من سراة هذه المدينة في اقناع سراة البلاد الاخرى واساقفتها وكهنتها ان المسلمين خيرٌ لهم من أود وغيره من أمراء الافرنج . وانا اعتقد أنهم اذا وافقوني على ذلك أفلحوا .. واعلمي يامريم اني كاشفتك بسرّ يجب ان يبقى مكتوماً عن كل انسان »

ولم تكن مريم تهتم بهذا الحديث مع اهميته لما جاش في خاطرها من امر هانئ وودت لو انها تعود الى ذكره لعلها تستطلع شيئاً من امره . ولكنها لم تستطع ذلك لان والدتها نهضت الى تبديل ثيابها التماساً للرقاد فسايرتها مريم وذهبت الى فراشها ولكنها لم يغمض لها جفن معظم ذلك الليل وهي تتوقع ان يناديها هانئ او يناديها احدٌ عنه فلما طال انتظارها يئست من ذلك

الفصل الثامن عشر

دسيسة

اما ميمونة فانها ذهبت الى مضجعها بازاء مضجع سالمة لايفصل بينهما الا الجدار وكانت مشتغلة الخاطر بما شاهدته من سالمة وعلمت انها لم تدخل ذلك المعسكر الاَّ لامر هام فتظاهرت بالسكون واصغت لما عساه ان يدور من الحديث بين سالمة وابنتها فسمعت مادار

بينهما فلما اطلعت على السرّ همها امره كثيراً لانه يحول دون الغرض الذي رافقت تلك الحملة من اجله فباتت وهي تدبر الحيل وتهيء نصب الشراك

وقبل ان ينبلج الصباح نهضت ميمونة من فراشها وتزملت بردائها وتظاهرت بالخروج الى خباء بالقرب من خباء الامير وكانت على موعد في كل صباح من ملاقاة رجل من الجند تزعم انه كان من غلمانها يوم كانت بمعية لماجة في ايام المنذر الافريقي · فرأت في اثناء خروجها فارساً قادماً من جهة المعسكر عرفت من قيافته ولون جواده انه هانئ فاستغربت قدومه في ذلك الصباح فلما توارى عن بصرها ذهبت الى موعدها فمكثت هناك حتى جاءها الرجل وهو بربري عليه ثياب افراد الجند قصير القامة خفيف الشعر خفيف العضل في نحو الثلاثين من عمره وفي عينيه حولٌ شديد فاذا نظر اليك يوهمك انهُ ينظر الى رجل على مسافة بعيدة منك — فلما أقبل عليها تبسم واشار بحاجبيه وبعينه الشاردة انه في شوق شديد الى رؤيتها وانه قتيل هواها

فابتسمت ميمونة لهُ واظهرت الدلال وقالت له « يظهر يا عدلان انك نسيت سيدك وتغافلت عن وعودك كأن الغنائم شغلتك عن ميمونة وظننتها تنسى مثلك »

فاعجبه ذلك العتاب واستدلّ من ورائه على ماله من المنزلة عند تلك الحورية ربة الجمال والغنج — وقد كان مع علمه بما بينه وبينها من البعد الشاسع طامعاً بحبها وانما يقنعهُ من ذلك الحب ان يسمع مثل تلك العبارة فهو من قبيل ما يعبرون عنه بأذناب العشاق · لان العشاق ثلاثة عاشقٌ لايقنع بغير الحب المتبادل الذي يملأ القلبين وعويشقٌ يقنعه ان يقدم لمعشوقته طاقة من الازهار او عقداً من الجوهر ويكفيه منها قبول هديته ولا مطمع له بما وراء ذلك وذنبُ العشاق وهمّهُ ان يخدم معشوقته خدمة تروق لديها كايصال كتاب او حمل عتاب او ابتياع بعض حاجيات الطعام او نحو ذلك — وكان عدلان من النوع الثالث وقد جعله يعشقها ويستهلك في خدمتها ما كانت تبديه له من التلطف حتى اطلعته على بعض سرها وماطلته بالرضاء التام حتى يتمم لها خدمة وعدها باتمامها منذ تشتت شملها بقتل المنيذر الافريقي الذى ذكرناه في غير هذا المكان — فلما سمعها تعاتبه وتستعطفه ابتدرها بالجواب وهو ينظر الى وجهها الجميل نظر المحب الولهان وقال « كيف تقولين ذلك يامولاتي وانت تعلمين استهلاكي بخدمتك منذ اعوام واما الغنائم فلا يخفى عليك ما تركه اولئك العرب منها وخصوصاً اليوم فانهم بعد ان فرقوا الغنائم فينا عادوا فاسترجعوها واهانوا الامير بسطاماً اهانة ليس بعدها اهانة »

قالت « الامير بسطام ؟ وكيف تركته يقبل بذلك ولم تحرضه على المطالبة بحقه ٠٠ الى متى هذا الذل ؟ »

قال « لقد حرضته ولكن غريمه صعبٌ لا ينال ٠٠ »

قالت « ومن هو غريمه ٠٠ »

قال « هو الامير هانىء نفسه واظنك رأيته قادماً في هذا الصباح الى هذا الخباء ٠٠ »

قالت « نعم رأيته وما غرضه فيه »

قال « غرضه تلك الفتاة الجميلة التي بعثها الامير عبد الرحمن اليكم بالامس فانها غنيمة الامير بسطام وقد اخذها الامير هانىء رغم انفه وساعده الامير عبد الرحمن على ذلك »

فقالت « وهل هي رضيت بهذا العربي وفضلته على ذلك الامير ؟ »

قال « يظهر انها احبت هانئاً وتعلقت به ٠٠ »

فأدركت ميمونة ان الحب قد تمكن بين مريم وهانىء وان هانئاً انما جاء في ذلك الصباح لمقابلتها فرأت ان تغتنم تلك الفرصة وتدس الدسائس وتوقع الخصام بين الاميرين فقالت «وهل رضي بسطام بهذا الذل ٠ كيف يرضى ان تخرج فريسته من بين يديه ويصبر على الهوان٠٠؟ اذا قبل هو بذلك فانا لا اقبل له به ٠ هل لك ان تخبره اني باذلة اقصى جهدي في ارجاع هذه الفتاة اليه ؟ قل له ذلك كما تعلم من غير ان يشعر هو بما دار بيني وبينك ٠ هل فهمت ياعدلان ؟ انه يسوؤني ان يستأثر هؤلاء العرب بالطيبات ويحملوكم الاثقال والاخطار فتفتحون لهم الحصون وتجمعون لهم الغنائم فلا يصيبكم غير التعب والشقاء ٠ ولكن لا بأس سوف ترى مني ما يسرك » ثم رأت وهي تخاطبه فارساً خارجاً من خباء الامير عرفت من سواد ثيابه انها سالمة ذاهبة في مهمتها وتحققت ذلك من مسير حسان في ركابها وهو يعدو بين يديها فعلمت ان هانئاً سيظفر بعد ذهاب سالمة بلقيا مريم فقطعت ميمونة حديثها مع عدلان بقولها « فاذهب انت الآن بحراسة الله» قالت ذلك وتحولت نحو الخباء على عجل وظل هو واقفاً ينظر الى قامتها ويتمتع بمنظر ذلك الشعر الجميل حتى اذا كادت تتوارى التفتت نحوه وابتسمت فاحس كأنما ملكته الارض وما عليها تخفق قلبه ابتهاجاً وعاد

اما هي فلما ايقنت بوقوع التنافر بين هانىء وبسطام عادت الى اعمال الفكرة للايقاع بين هانىء وعبد الرحمن ليتم لها افساد امر ذلك الجيش الكبير لعلمها ان فوزه انما يقوم باتحاد هذين الاميرين ٠ وكانت قد علمت ان عبد الرحمن انما ارسل مريم الى الخباء لتكون

في مأمن من سواه وقدّرت ان « حب » هانىء لمريم يسوء عبد الرحمن فعزمت على إيقاد نيران الغيرة بينهما فسارت توًّا الى غرفة مريم فلم تجدها وبحثت عن القهرمانة فقيل لها انها في غرفتها فتحقق ظنها فعادت الى غرفتها مسرعة وقد خطرت لها حيلة ظنت انها تنال بها أربها فنادت غلاماً من غلمان الخباء كان في الاصل من غلمان المنيذر الافريقي وأخذ في جملة من أُخذ من الاسرى وأصله من الافرنج الذين أتوا مع لمباجة بنت اود يوم تزوجها المنيذر ولما أُخذت ميمونة ظل هو في جملة الخدم وقد استبقته هي لاستخدامه في اغراضها عند الحاجة • فلما جاء الغلام قالت له « اسرع ياداود الى الامير عبدالرحمن هل لك اجنحة لتطير بها اليه ؟ »

قال « نعم يامولاتي »

قالت « طرْ اليه على عجل وقل له ان ميمونة تقرئك السلام وتقول لك بادر اليها الآن لامر هام تريد ان تطلعك عليه في هذه الساعة •• »

فقال « حبًّا وكرامة » وتحول وسار وهو يثب كالغزال النافر يطلب المعسكر وجلست ميمونة في مكان ترى منه كل من يخرج من الخباء

الفصل التاسع عشر

لقـــاء الحبيبين

اما هانىء فانه جاء الخباء باكراً كما رأيت لشدة شوقه الى لقاء مريم ولانه لم ينم كثيراً في ذلك الليل فوصل غرفة القهرمانة فاستقبلته واستمهلته ريثما تنصرف سالمة وسارت الى سالمة حتى تهيأت للخروج فودعتها فأوصتها سالمة بابنتها خيراً وركبت وسار حسان في ركابها فعادت القهرمانة وقد سرها ان لاتكون ميمونة في الخباء لئلا تطلع على سر تلك المقابلة • فلما مضت سالمة استدعت مريم الى غرفتها فمشت معها وهي تفكر في هانىء وبعده عنها فلما دخلت الغرفة ورأته هناك بغتت وتصاعد الدم الى وجنتيها وغلب الحياء عليها فأرسلت خمارها على عينيها وأطرقت وقد صبغ الحياء وجهها • فلم يكن ذلك الا ليزيدها جمالاً ورونقاً في عيني هانىء • اما هو فقد كان في انتظارها في الغرفة على مثل الجمر وقد حسب الساعة التي مضت في أثناء انتظاره عاماً طويلاً • فلما سمع خشخشة

الخلاخل والدمالج وراء جدار الغرفة علم ان القهرمانة قادمة ثم ما لبث ان رآها داخلة ومريم في أثرها فلما رأى اصطباغ وجه مريم بالحياء زاد هياماً بها فنهض لاستقبالها فسمع القهرمانة تقول وهي تتظاهر ان وجوده كان هناك اتفاقاً «ما الذي جاء بك في هذا الصباح يا حضرة الامير»

قال «لقد جئت لارى وجهك الجميل ياخالة»

فضحكت القهرمانة وقالت «لا أظن وجهي تعجبك تجعداته وكأني علمت بقدومك فأتيت اليك بهذا الوجه الجميل فهل تعرفه ؟»

فابتسم هانىء وقد غلب عليه الغرام وقال «لقد عرفته وكلفت به ولكن هل هو يعرفني ؟ لا أدري»

وكانت مريم مطرقة فلما سمعت كلامه رفعت بصرها ونظرت اليه بعينين قد أذبلهما الغرام وتلألأت فيهما مياه الحب نظرة تغني عن خطاب فلم يتمالك هانىء عند ذلك ان قال «قد فهمت الجواب»

فضحكت القهرمانة وامسكت بيد مريم واجلستها وقالت وهي تحاول الجلوس «ما اسرع مافهمت جوابها وهي لم تتكلم ..»

فجلس هانىء وهو يلتف بعباءته ويصلح عمامته وكان قد أبدلها من الخوذة في ذلك الصباح وقال «لقد دلني قلبي يا خالة .. ومن القلب الى القلب دليل»

ثم التفت الى مريم وقال «لاتخافي يامريم اني لم آت لازعجك وانما جئت لاتحقق ماحدثتني نفسي به حتى اذا صدق ظني وخدمني سعدي وقفت نفسي لخدمتك وجعلتك اسعد العالمين — الا اذا كان هذا الخبر يسوءك ...»

فتنهدت مريم تسكيناً لما جاش في صدرها من الخفقان مما لم تعهده من قبل وهمت بالكلام ومنعها الحياء وكانت لاتبالي اذا لقيت الرجال في حومة الوغى فكيف تلعثم لسانها بين يدي رجل يتمنى رضاها ويتوقع سماع كلمة من فيها ليتغنى بها ويجعلها تعويذة في عنقه — ولكن هو الحب يذل الاسود ويلعثم السنة الفصحاء — وظهر من خلال شفتي مريم مع ذلك انها تكتم أمراً تود التصريح به لولا الحياء فادرك هانىء ذلك فيها فتوجه بكليته نحوها وقال وقد أخذ الهيام منه مأخذاً عظيماً «قولي يامريم لاتخافي ولا تكتمي فان خالتي القهرمانة لايستحى منها بل هي خزانة أسرارنا قولي .. هل تحبينني ؟»

فالتفتت اليه وتجلدت وقالت « وما الفائدة من الحب اذا لم يكن متبادلاً وأنتم معشر الامراء قد تعودتم اقتناء النساء بالمشترات والحب لا يكون صحيحاً الاَّ اذا كان بين اثنين ليس معهما ثالث »

فبغت هانيء لهذا التعريض وهو لا يرى له محلاً وقال « لستُ من هؤلاء يامريم . وهذه الخالة تعلم اني بلغت هذا السن ولم اتخذ امرأة ولا اقتنيت جارية ولا سرية ... اسأليها تنبئك فانها مطلعة على احوال سائر الامراء في هذا الجند فان لكل واحد منهم خباء لنسائه وجواريه واما انا فلا خباء لي ولا احببت امرأة ولا فتاة ولم يكن يخطر ذلك ببالي قبل ان رأيتك في صباح الامس فعزمت على ان تكوني انت نصيبي في هذه الدنيا وتأكيداً لذلك فاني اعاهدك من هذه الساعة اني لا التفت الى سواك .. فهل تعاهدينني انت ايضاً ؟ »

فابرقت اسرة مريم واشرق وجهها وتجلت في عينيها وحول فمها ابتسامة طار قلب هانيء لها وخفق قلبه سروراً وقال ولم ينتظر جوابها « ولكن لي شرطاً اشرطه عليك وعلى نفسي اني لا اتمم شيئاً قبل الفراغ من هذه الحرب فاذا عدنا منها فائزين ونحن فائزون باذن الله كان ما نتمناه .. فهل تعاهدينني على ذلك ؟ . »

فقالت وهي مطرقة حياء « وذلك هو الشرط الذي اشرطه انا أيضاً لاني اذا فزت بك عند ذلك اكون قد نلت السعادتين .. »

فقال « فلنتعاقد اذاً على هذا الشرط » ومد يده نحوها ونظر الى يدها ولسان حاله يقول « مدّي يدك » فمدتها نحوه ببطء وهي ترتجف من شدة التأثر فامسكها بيده وضغط عليها فاحس كلاهما بمجرى كهربائي ارتعدت له فرائصهما ووقف هانيء مدفوعاً ووقفت مريم وهو يقول « لا بدّ لي من الذهاب الساعة الى المعسكر لنتأهب للقاء العدو واعدك اني سابلو في الاعداء بلاء الابطال لعلمي ان ذلك يسرك فادعي لي بالنصر .. »

ثم مد يدهُ الى كمه واستخرج قارورة تفوح منها رائحة الطيب قويةً وقدمها الى مريم وهو يقول « وهذه قارورة من طيب خاص ليس مثلها عند أحد في هذا الخباء تطيبي بها وحدك حتى اذا اتيت لزيارتك تنسمت ريحك قبل وصولي اليك فأستدل على وجودك قبل ان اراك وانت ايضاً كلما شممت رائحة هذا الطيب تذكرين قتيل هواك .. » قال ذلك وعيناه تتلألآن من شدة الهيام ونظر اليها نظر المحب الولهان

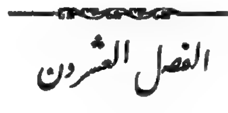
فمدت يدها وتناولت القارورة وهي تبتسم ثم تذكرت فراقهُ لما في تلك الساعة فانقبضت نفسها فالتفتت نحو السماء وترقرقت في عينيها العبرات

وكانت القهرمانة في اثناء ذلك الحديث قد استغرقت في النوم وهي جالسة اذ لا يهمها من هذا الاجتماع الا ما نالته من التحف وما ترجوه من الهدايا المتواصلة . وبينما هي غارقة في احلامها علت الضوضاء خارج الخباء فانتبهت فسمعت قرقعة اللجم ودبدبة الخيل فبغتت وبغت هانئ ومريم . وقبل ان تنهض القهرمانة سمعت بعض الغلمان يصيح من الخارج « اين السيدة القهرمانة »

فنهضت القهرمانة وصاحت « من يناديني ؟ » وخرجت فاستقبلها احد الغلمان وهو يقول « ان الامير عبد الرحمن يدعوك اليه »

فقالت وقد علتها البغتة « واين هو . . ؟ » وهرولت نحو القاعة فقال الغلام « هو ينتظرك في القاعة » فعادت الى هانئ وقالت له « اسرع يا مولاي الى جوادك وامضِ قبل ان يراك الامير هنا فربما رابهُ امرك »

فاكبر هانئ ان يخرج خروج الهارب فتجلد وقال « اذهبي انت اليه ولا تخافي فاني خارج على مهل »



الفصل العشرون

البغتة

فدخلت القهرمانة وقد ارادت ان ترسل مريم من باب آخر يؤدي الى غرفتها وتسير هي توًّا الى القاعة لملاقاة الامير عبد الرحمن

وخرج هانئ من الباب الخارجي وهو رابط الجأْش حتى وصل الى ادهمه وهمَّ بان يركبه فلقي بجانب الجواد رجلاً من ملازمي الامير عبد الرحمن وقد امسك بشكيمته . فلما دنا هانئ منه قال له « ان الامير يتقدم اليك ان توافيهُ الى خيمته في المعسكر فانه عائد اليها على عجل »

فقال « ومن انبأَه اني هنا »

قال « عرف ذلك من جوادك »

اما القهرمانة فلم تكد تخرج من حجرتها ومريم معها حتى لقيها عبد الرحمن وكانت مريم قد ازدادت بتلك البغتة احمرارًا وتجلَّت دلائل الحب في عينيها مع ما يغشاها من الدمع

فلما رأت الامير عبد الرحمن استرجعت جأشها ووقفت للسلام عليه

اما هو فحالما رآها تذكر والدتها فخاطبها اولاً ولم يلتفت الى القهرمانة وقال « مريم ! .. اين والدتك هل سافرت ؟ »

قالت « نعم يا مولاي سافرت في هذا الصباح باكرًا » قالت ذلك بلثغتها المعلومة ولم يكن عبد الرحمن سمعها تتكلم بعد فاعجبته تلك اللثغة وكان لفرط ذكائه وصدق فراسته قد رأى على وجهها آثار البغتة وتذكر انه رأى جواد هانيء بباب غرفة القهرمانة من الخارج فادرك انهاتئاً كان هناك معها . فتظاهر عبد الرحمن بعدم المبالاة وتأكيدًا لعدم مبالاته خاطب القهرمانة ببرود وسذاجة قائلاً « وهل رجع الامير هانيء ؟ »

فلما سمعت القهرمانة سؤاله لم تدر بماذا تجيبه وكاد يرتج عليها لو لم يتدارك الامر هو بقوله « ولكن لا بأس من ذهابه فاني سالاقيه بعد رجوعي » ثم مشى نحو مريم وهو يخاطب القهرمانة قائلاً « قد اوصيتك يا خالة باكرام هذه الضيفة واعيد الوصاية الآن ان تبالغي في رعايتها واكرامها ولا تخفي عنها شيئاً ولا تدعيها تستوحش في هذا الخباء فانها اعز نسائه عندي »

فانبسطت نفس القهرمانة لذلك واطمأن بالها وتبادر الى ذهنها ان عبدالرحمن غافل عما حدث من امر هانيء ومريم وقالت « اني فاعلة حسب امر مولاي وبالحقيقة ان مريم لا يراها احد الاَّ احبها واكرمها »

فقطع عبد الرحمن كلامها وهو يقول « اين ميمونة .. هل هي في غرفتها ؟ . »

قالت « اظنها هناك » ومشت لتبحث عنها

فقال لها عبد الرحمن « امكثي هنا مع مريم او امضي بها الى حيث تشائين وانا اذهب الى ميمونة فاني اعرف مكانها .. »

وكانت ميمونة قد رأت الامير عبد الرحمن عند وصوله الى هناك وعلمت انه رأى جواد هانيء ورأته يخاطب بعض غلمانه ويشير الى ذلك الجواد فدخلت وجعلت تتنسم ماعساه ان يكون من امره بعد ان يرى القهرمانة ومريم ومعهما هانيء فشعرت انهُ لقيهما خارجتين من تلك الحجرة وسمعت ما دار بينه وبينهما فظنته لم يلحظ اجتماعهما فعزمت على التصريح بذلك

اما عبد الرحمن فمشى يلتمس حجرة ميمونة والخدم يتناثرون بين يديه تهيبًا او يقفون له وقارًا حتى اقترب من باب الحجرة فتظاهرت ميمونة انها قلقت لابطائه في الوصول اليها

فاسرعت الى الباب وجعلت انها كانت في انتظاره على مثل الجمر . فلما اقبل حيته وتادبت وعيناها تنظران اليه نظر المحب العاشق بلا تصنع مع انها غير عاشقة وانما كان ذلك منظر عينيها لما فيهما من اللمعان مع ما تتكلفه من اظهار الوجد بالابتسام والاطراق فينخدع الناظر اليها ويحسبها متفانية في حبه وخصوصاً اذا كان هو يحبها . اما عبد الرحمن فكان يستلطف ميمونة كثيراً ويحب قربها ولكنه كان ينظر اليها نظرهُ الى بعض جواريه وكان من الجهة الاخرى قد عاهد نفسه ان لا يقرب النساء حتى يفرغ من تلك الحروب ويقطع نهر لوار فضلاً عن اشتغال خاطره بمهام الفتح عن مجالسة النساء ومسامرتهن . ولذلك قلما كان يأتي الى الخباء واذا اتاه اظهر لميمونة تلطفاً خصوصياً لغرض في نفسه لم يكاشف به احداً . وكانت هي ربما ادركت غرضه وتجاهلت او انها تظاهرت بما يريده هو وجعلت انها تفعله عفواً ولها من وراء ذلك مأربٌ لو تصوره عبد الرحمن لعجل بها الى الفناء

الفصل الحادي والعشرون

المكر المتبادل

علمت مما تقدم ان ميمونة سبية افرنجية كانت في جملة خدم لمباجة بنت الكونت أود حاكم تلك المقاطعة في فرنسا وقد سبيت في جملة غنائم المنيذر الافريقي زوج لمباجة المذكورة — وكان اهل الخباء يعتقدون ان ميمونة كانت من خاصة نساء لمباجة واقرب المقربات اليها . فكان عبد الرحمن يرجو الانتفاع من ذلك في بعض المخابرات مع اود او بعض قواده ولكنه كتم هذا الامر في نفسه ولم يظهره حتى ولا لهانئ . فلما بعثت ميمونة اليه في ذلك الصباح اسرع اليها على عجل وهو يتوقع منها خبراً يتعلق بالحرب من قبيل ما تقدم

فلما راى وقفتها على تلك الصورة خيل له انها تعشقه وتستهلك في خدمته فسرهُ ذلك على امل استخدامها في غرضه فابتسم لها ودخل حتى جلس على وسادة هناك وهو يقول « ما الذي تريدينه مني يا ميمونة »

فقالت وهي تحاول القعود بتأدب « اريد اموراً كثيرة يا مولاي لا ادري ايها

اقوله اولاً ٠٠ » قالت ذلك وتنهدت واستنزلت دمعتين رآهما عبد الرحمن تتساقطان على خديها وهي مطرقة تظهر انها استحيت من افتضاح سرها بهما

فانخدع عبد الرحمن ولكنه اجابها على الفور « لا ارى حاجة الى ذلك وانت تعلمين ماعاهدت ربي عليه منذ عزمت على هذه الحرب ٠٠ »

فاسرعت في الجواب كأنها تستدرك اصلاح ما تبادر الى ذهنه فهمه خطأ فقالت « لايتوهم مولاي اني اطمع بغير رؤية هذا الوجه الصبوح ٠٠٠ ولكني مخطئة في التطاول الى ما لا استحقه فان في خباء مولاي الامير عشرات من امثالي وما فيهن من تجرأ على هذه الكلمة • اما انا فلا ادري ما الذي جرأني عليها ٠٠ فهل دلني قلبي على الصواب او لعله خدعني ٠٠٠ لا ادري ٠٠ وفي كل حال يكفيني ان يكون الامير عالماً بما له في هذا القلب من الحب الشديد على اني لا اكلفه مثله او مثل بعضه لان الحب لا يكون قهراً ٠٠٠ » قالت ذلك وغصت بريقها وسكتت

وكان عبد الرحمن يعتقد ان ميمونة تحبه ولكنه لم يسمع منها مثل ذلك العتاب قبلاً فتبادر الى ذهنه انها اندفعت الى العتاب غيرةً عليه من مريم والغيرة تفعل العجائب فاراد ان يتحقق ظنه فقطع حديثها وقال « هل رايت الضيفة الجديدة ؟ »

فسرّت ميمونة لابتداء عبد الرحمن بذكرها فاجابت على الفور « كيف لم ارها وقد وقفتُ نفسي لخدمتها من ساعة وصولها لعلمي ان ذلك يرضي مولاي الامير ٠٠٠ ولم افارقها الا ساعة في هذا الصباح لانشغالها في غرفة القهرمانة مع الامير هانىء ٠٠ » قالت ذلك وهي تتظاهر انها تقوله بسذاجة وسلامة ضمير واصغت بكل جوارحها لما عساه ان يبدو من عبد الرحمن بعد سماعه ذلك الخبر

اما هو فاحسّ بشيء من الغيرة وتذكر ان والدة مريم انما ادخرتها له وفكر في اختلاء هانىء بمريم على تلك الصورة فلم له سبباً غير الحب المتبادل بينهما فحدثته نفسه لأول وهلة ان يمنع هانئاً من ذلك ولكن حبه هانئاً ورغبته في حفظ الوفاق معه الى نهاية تلك الحرب — كما شرطاه على نفسيهما — غلب على ذلك الشعور وتصور ماهم فيه من الامر العظيم والخطر الشديد فاضمر في باطن سرّه انهم اذا فرغوا من هذه الحرب فائزين وظلّ هانىء على ما شرطه على نفسه من البسالة والثبات ساعده على نيلها — فتجلد عبد الرحمن واجاب ميمونة وهو يظهر عدم المبالاة « ولكن هانئاً خرج الآن من عندها وشاهدت مريم مع القهرمانة وقد سرني ارتياحها للاقامة في هذا الخباء فارجو ان تعيريها التفاتك لاني موصى باكرامها ولي بذلك

غرض ارجو ان تساعديني عليه »

فلما سمعت ميمونة قوله استغربت ما يكتمه من امر هذه الفتاة وتأسفت لذهاب سعيها هباءً منثورًا ولكنها ارادت تحقق الامر فبالغت في التجاهل واظهار السذاجة وقالت « اؤكد يامولاي اني فاعلة ماتريده وبالحقيقة ان هذه الفتاة من نوادر الخلق جمالاً وتعقلاً ورزانة وهي خفيفة على القلب لا يستطيع جليسها الا ان يحبها فاذا كنتُ لا اكرمها اكراماً لمولاي الامير فاني افعل ذلك حباً بها. ولاباس اذا احبها الامير اكثر من سائر نسائه لانها اهل لذلك »

فخاف عبد الرحمن اذا طال الحديث ان يبدر منه مالا يريد التصريح به فابتدرها قائلاً « لقد خرج بنا الحديث عن اصل الموضوع .. ما الذي دعوتني من اجله الآن ؟. »

فاظهرت الاهتمام وقالت « دعوتك لامر هام وكان يجب ان لا اقدّم قولاً عليه وربما كان فيه وحده ما يغنيني عن الادلة على حبي للامير عبد الرحمن وتفانيَّ في خدمته — فاعلم يا مولاي اني بثثت العيون من بعض الذين تركتهم لخدمتي لاستطلاع احوال العدو بعد سقوط بوردو فعلمت ان الكونت أود ورجاله متربصون لكم في مضيق دردون[1] على مقربة من هذا المكان. والمضيق في طريقكم الى نهر لوار»

ولم يكن عبد الرحمن غافلاً عن اخبار عدوه لان جواسيسه كانت مبثوثة في كل الانحاء واكثرهم من اهل البلاد الاصليين وخصوصاً اليهود فانهم كانوا يبذلون كل مرتخص وغال في مساعدة المسلمين انتقاماً من المسيحيين وطمعاً بالغنائم كما تقدم — فلم يكن خبر أود ودردون ليخفى على عبد الرحمن ولاكانت ميمونة تجهل اطلاعه عليه ولكنها تجاهلت وأظهرت الاهتمام بأمر الجند وأوهمت أنها اطلعت على ذلك السر بسعيها الخصوصي ولو علمت انهُ يجهل ذلك الخبر لبالغت في كتمانهِ. فسايرها عبد الرحمن وأظهر انه فرح بذلك الخبر تنشيطاً لها على السعي في خبر آخر فقال لها « بورك فيك ياميمونة لقد تحققت الآن حبك لنصرنا وأرجو ان لا تغفلي عن مثل ذلك .. »

لم تكن ميمونة تجهل اطلاع عبد الرحمن على ذلك الخبر من قبل ولكنها تجاهلت التماساً لما يسوغ لها استقدامه في ذلك الصباح لتطلعه على حب هانىء لمريم ايقاعاً للفتنة بين الاميرين وقد ساءها ان حيلتها لم تأت بالفائدة المطلوبة . ولسبت حبوط مسعاها الى

(١) ربنو

سعة صدر عبد الرحمن وطول أناته فأضمرت ان تحوّل سهام مساعيها نحو هانيء لانه شاب لا يصبر على الكظم • وغرضها الاول ايقاع الفتنة بين ذينك القائدين وباختصامها فشل ذلك الجند الكبير — فعزمت على تدبير الحيلة في وقت آخر ولما سمعت ثناء عبد الرحمن على سعيها في خدمته ابتسمت ونظرت اليه نظرة يتخللها العتب والدلال والاستعطاف ولولا رزانة عبدالرحمن وقوة ارادته لخرقت تلك النظرة صدره الى قلبه ولهاجت فيه لواعج الغرام وانسته الجند وارايه لما في عينيها من عوامل الجاذبية وما حول فمها من الملامح الفتانة ومافي مجمل ذلك من السحر الآخذ بالالباب — ولاغرو اذا عبر الشعراء عن تلك الجواذب بالسحر لانها تعمل عملاً لا يمكن تعليله بغير السحر • وربما عبر عنه بعض علماء الطبيعة اليوم بالكهربائية فمن كان حسنه جذاباً قالوا ان كهربائيته قوية — وهو عبارة عن تفسير الماء بالماء

الفصل الثاني والعشرون

من شق الحائط

فلما نظرت ميمونة الى عبدالرحمن تلك النظرة فهم انها تعاتبه على ذلك القول ولسان حالها يقول له « اني قتيلة هواك ومستهلكة في خدمتك » فسرّه افتتانها به رغبة في استخدامها لما ينفع الجيش فابتسم لها وهشّ وفي زعمه انه يزيدها بذلك استهلاكاً في خدمته وهي كلما رأت منه انعطافاً بالغت في اظهار الافتتان به • فلما علم عبدالرحمن انها فرغت من الخبر الذي استقدمته لاجله نهض وهمّ بالخروج فنهضت ميمونة وهي تقول « لولا علمي بالمهام الكثيرة التي تتعلق بذهابك أيها الامير لتوسلت اليك ان تبقى هنيهة أخرى ••• فهل أنت عازم على الذهاب لملاقاة العدو قريباً •• ؟ واذا ذهبت فهل تتركني هنا •• »

فادرك انها تقول ذلك تدللاً فلم يجبها بغير الابتسام وخرج مسرعاً يلتمس جواده ليرجع الى المعسكر فمشت ميمونة في أثره حتى اذا اوشك الوصول الى باب الخباء سمعته يقول « مرحباً بالامير هانيء ألا تزال هنا ؟ لماذا لم تدخل الخباء ••• » فازدادت ميمونة استغراباً من ذلك الترحاب

فتقدم هانیء وهو يلتف بعباءته وليس في وجهه وجل ولا خجل وقد أكبر ان يرجع الى المسكر رجوع الهارب بعد انعلم عبدالرحمن بوجوده هناك — شق عليه ان يفعل ذلك انفة وكبراً وخصوصاً بعد انعلمت مريم به • فلما أوعز اليه غلام عبدالرحمن بالذهاب الى المعسكر وقف ورجله في الركاب لايتكلم ولايتنقل • وخيل له ان مريم تنظر اليه وتراقب حركاته فلبث حيناً واقفاً ثم تحول عن الجواد بغتة ومشى نحو باب الخباء يلتمس ملاقاة عبدالرحمن • فقيل له انه في خلوة لايراه فيها احد فعزم على انتظار خروجه فجعل يخطر امام الخباء وعيناه تراقبه

وكانت مريم لما تركها عبد الرحمن مع القهرمانة عادت الى التنكر فيهانیء وخروجه على تلك الحالة فأرادت ان تستطلع أمره فتحولت الى جدار الخباء ونظرت من شق فيه فرأت هانئاً يتمشى خارجاً وعباءته وسيفه يجران وراءه وهو يلاعب شاربيه ولحيته ويتمايل بمشيته كالاسد • فاختلج قلبها في صدرها سروراً بلقياه وودت لو انها تخاطبه ولكنها خافت من القهرمانة فاكتفت بالنظر اليه وتأمل حركاته على غفلة منها • وبعد قليل سمعت ضجة في الخباء فعلمت ان عبد الرحمن خارج فاحبت ان تعلم مايكون من أمره اذا لقي هانئاً فتحولت بحيث تراها ولا يراها احد لاشتغال القهرمانة وسائر اهل الخباء بوداع الامير • فرأت هانئاً مشى نحو عبد الرحمن حتى التقيا وسمعت عبد الرحمن يخاطبه مخاطبة الاخ ويعاتبه على تخلفه وهانیء يدلّ عليه دلال الابن على ابيه وعبد الرحمن يبتسم له ويرحب به وسمعت هانئاً يقول وهو يخطو نحوه « بلغني انك سألت عني •• »

فاجابه عبد الرحمن وهو يقترب منه حتى وضع يده على كتفه « وهل يسأل المرء الا عن اخيه او حبيبه » قال ذلك وابتسم واهل الخباء يسمعون وأكثرهم سروراً بذلك مريم واشدهم غيظاً ميمونة ثم مشى عبد الرحمن ويده بيد هانیء فقدموا لهما الافراس فركبا الى المعسكر وحولهما الخدم والاعوان

وظلت ميمونة ومريم تنظران الى ذلك الركب وكل منهما في ناحية وقلبها في ناحية حتى تواروا فعادت ميمونة الى خلوتها واعملت فكرتها في حيلة اخرى وقد اسفت اسفاً لا مزيد عليه لفشلها وذهاب سعيها هدراً



الفصل الثالث والعشرون

المكاشفة

اما مريم فانها عادت من وراء ذلك الجدار وقد انتشبت نيران الحب في قلبها والتمست الخلوة لتراجع في ذهنها مادار بينها و بين حبيبها استئناساً بذكراه ومخافة ان يكون قد بدر منها عبارة تؤاخذ عليها . جلست في غرفتها هنيهة كأنها في عالم الخيال ثم انتبهت للقارورة وكانت لاتزال في قبضتها فنظرت اليها وفتحتها واشتمت رائحتها فطربت لها واستأنست بهالانها من هانيء وصبت قليلاً من الطيب على كفها دهنت به شعرها ووجهها وكفيها ففاحت منها رائحة ملأت الخباء بطيبها

وبينما هي في خلوتها اذ دخلت عليها ميمونة وهي تبتسم ابتسام محب معجب بحبيبه فقابلتها مريم بمثل ابتسامها وقد ارتاحت اليها وتاقت الى مكاشفتها بما شغل خاطرها من الحب ولكنها امسكت نفسهالئلاّ يكون في ذلك مايغضب حبيبها. على انها رحبت بميمونة وتحفزت للوقوف احتفاء بها فسبقتها ميمونة الى الحديث فقالت وهي تهش لها « أراك عدت من غرفة القهرمانة وقد زدتِ طيباً »

وكانت القارورة لاتزال في قبضتها فضحكت وبدا الحياء في وجهها و بادرت الى القارورة فخبأتها في جيبها ولم تحر جواباً

فأدركت ميمونة ان بين تلك القارورة وهانيء علاقة فعمدت الى استكشاف سرها منها فقالت « لقد زادك الحياء طيباً ياحبيبتي .. العلّ الطيب من ضيفك البطل الصنديد الامير هانيء .. ارجو ان لايكون من سواه لانه يليق بك . ولو خيرتِ ان تنتقي لك حبيباً من بين رجال العالمين لما وقع اختيارك على خير منه »

فأدركت مريم اطلاع ميمونة على ذلك السرّ ولكنها تجاهلت وقالت « كيف تحكمين على الامر قبل التثبت . من أين عرفتِ ذلك ؟ »

قالت وهي تضحك وتقترب من مريم « عرفته من مصدر وثيق .. وتحققته من قرائن الاحوال .... واذا كنت تنكرين ذلك عليّ فان ملامحك تشهد عليك ... على اني لا ألومك على التستر لان الحب يحلو بالكتمان وقد كان يجدر بي ان اسايرك وأظهر اقتناعي بانكارك ولكنني لم أرض بذلك شفقة عليك وحباً بك »

فلما سمعت مريم قولها استغربت تلميحها بالشفقة ولم تفهم مرادها فرفعت بصرها اليها وقالت « لم أفهم مرادك من الاشفاق العل في حالتي مايبعث على الشفقة ؟ افصحي ٠٠ »

فقالت « لا أقول شيئاً قبل ان تعتقدي حبي لك وغيرتي على مصلحتك ٠٠ »

قالت « أنت تعلمين أني احببتك وقد وثقت بك من اول نظرة وخصوصاً بعد ماعاينته من حبك لي فلا حاجة بعد ذلك الى برهان »

قالت « صدقتِ ياحبيبة اني اشعر من قلبي باخلاصك ولكنني أخاف اذا قلت لك قولاً ان تحمليه على غير محملهِ ومع ذلك فاني افعل ماتدعوني اليه محبتك ٠٠ نعم ليس هناك مايدعو الى القلق الكثير ولكنني اختبرت هؤلاء العرب واطلعت على سجاياهم وفي جملتها انهم يغارون على اعراضهم غيرة شديدة ٠ وانت تعلمين انك هنا في خباء الامير عبد الرحمن وكل من في هذا الخباء من نسائه فيجدر بك انتحاذري من التظاهر بشدة ميلك الى الامير هانئ في حضرتهِ — وأظن الامير هانئاً نفسهُ يتوقع ذلك منك — لاتظني اني اقول هذا بناء على قول سمعته فاني اعتقد حب الامير عبد الرحمن لهانئ ومراعاته جانبه حتى انه لايمنع عنهُ شيئاً يريده لان عليه معتمده في هذه الحرب وهو يمينهُ التي يناضل بها ٠ ولكنني أردت تنبيهك لعلي ان هانئاً يريد ذلك منك وان كان لايظهرهُ لك انفةً وترفعاً ٠ واما أنا فقد خبرت عادات القوم وآدابهم في هذا الشأن ٠٠٠ ولعلك سمعت عن منزلتي عند الامير عبد الرحمن والا فاني أخبرك أني اقرب نسائه منهُ وهو يعتمد عليّ في كثير من المهام : فاذا علمتِ ذلك كوني على يقين ان الامير عبد الرحمن لايفعل الا مايرضيك »

فقبلت مريم تلك النصيحة باخلاص وازدادت وثوقاً بميمونة بعد ماعرضت به من مساعدتها وهان عليها مكاشفتها بما في قلبها فالتفتت اليها وقد انبسطت نفسها وقالت « أشكرك على ذلك ياسيدتي وسأعمل حسب اشارتك ٠٠ ولا ريب انك عالمة بكل ذلك وأنت من اكثر نساء هذا الخباء ذكاء ولطفاً ٠٠ »

فاكتفت ميمونة من ذلك الحديث بما وصلت اليه وأرادت الانتقال الى موضوع آخر فقالت « ذكرتُ لك الطيب فلم تجيبيني عليه ٠٠ أين القارورة ؟ »

فمدت مريم يدها واستخرجت القارورة ودفعتها الى ميمونة ففتحتها واشتمت رائحتها وهي تقول « لم اشتم في عمري مثل رائحة هذا الطيب انه طيب خاص ليس عند احد من اهل هذا الخباء مثلهُ ٠٠ » قالت ذلك وارجعت القارورة ولم تمس ما فيها »

فقالت مريم « تطيبي بشيء من هذا الطيب فانك اهل لذلك ٠٠ »

فامتنعت ميمونة وهي تسد القارورة وتقول « لا يجوز لاحد سواك ان يمس هذا الطيب لانه هدية خصوصية لك » ودفعت اليها القارورة وهي تبالغ في الامتناع

فاستحسنت مريم تمنعها وزادت وثوقاً بصدق مودتها فتحت لها قلبها وصارت لا تستأنس الا بقربها مع ميل الى مكاشفتها بعواطفها وميمونة تعمل فكرتها لاستخدام ذلك عند الحاجة

الفصل الرابع والعشرون

الاطمئنان

اما عبد الرحمن وهانئ فانهما ركبا وسارا نحو المعسكر وحولهما الفرسان في موكب وكل منهما يفكر في جهة ومرجع التفكير الى مريم . فكان هانئ يتذكر مادار بينه وبينها وما آنسه من مجاملة عبد الرحمن ولطفه على حين انه كان يتوقع امتعاضه — فاذا تذكر ذلك انشرح صدره لانه كان يخاف اذا بدا له من عبد الرحمن برود ان يأول ذلك الى نفور مضر . . وكان عبد الرحمن يفكر بسالة وما دار بينه وبينها بشأن مريم وتلميحها بأنها ستكون له بعد الفراغ من تلك الحرب لسر لم تصرح له به وتذكر استلطافه مريم وتصور ما هي فيه من الجمال والهيبة ثم ما ظهر له من الحب المتبادل بينها وبين هانئ . فلما بلغت تصوراته الى ذلك الحد شعر بغيرة شديدة ولكنه انتبه لما هم فيه من الحرب وشدة احتياجه الى هانئ حتى ان النجاح ليتوقف على اتفاقهما . وعلم ان ذلك الاتفاق لا يتم الا بارتياح هانئ وارتياحه لا يكون الا بحصوله على مريم — فلما تمثل له ذلك عاد الى تعقله وسعة صدره لعلمه بخطارة المشروع الذي هم بصدده فهان عليه ارضاء هانئ وخاف ان يكون في سكوته في اثناء الطريق باب للشك ففتح الحديث قائلاً « الم نحمد الله على انتصارنا في هذه الحرب يا هانئ ؟ »

قال « لقد حمدته حمداً كثيراً على ذلك والفضل فيه راجع الى بسالة الامير عبد الرحمن وتدبيره

قال « بل الفضل فيه للامير هانئ قائد فرساننا . . بل أرى الفضل فيه لما توفقنا اليه من الوفاق المتبادل وارجو ان يبقى ذلك الى نهاية هذه الحرب »

قال « وأنا ارجو ذلك ايضاً واذا تم لنا الفتح كان فيه الفخر للعرب كافة لاننا نفتح لهم

بلاداً واسعة يحكمون أهلها ويجبون خراجها وينشرون الاسلام فيها »

قال « واظن سرورك بفتح بوردو يضاهي سرورنا جميعاً بما فتحناه وسنفتحه من البلاد ‥ » قال ذلك وابتسم

فادرك هانيء تعريضه بمريم فضحك وقد انشرح صدره وقال « لا استطيع انكار ذلك ايها الامير لانه ظاهر في كل جارحة من جوارحي وارجو ان يكون اخي مسروراً معي »

قال « اني أُسرّ بكل مايسرّك . وثق اني عون لك في كل ماتريده ‥ ولكنك تعلم ماعاهدت نفسي عليه منذ ركبت هذا المركب الخشن ‥ »

فلم يفهم هانيء مراده فقال « وأي عهد تعني ؟ »

قال « اعني اني عاهدت الله ان لا اقرب النساء قبل ان افرغ من هذه الحروب او ان نقطع نهر لوار على الاقل ‥ فهل انت على هذا الرأي ؟ »

ففهم هانيء مراده فقال « نعم اني اعاهد الله على هذا ايضاً وقد كان رأيي في النساء كما تعلم ضعيفاً فلم اتزوج امرأة ولا اقتنيت جارية ولولا وقوع هذه الفتاة من نفسي موقعاً عظيماً ما غيرت رأيي — اما الآن فاعترف لك اني اصبحت عالق القلب بمريم وهي كما ترى اهل لذلك ‥ »

فقطع عبد الرحمن كلامه قائلاً « انها من خيرة النساء جمالاً وتعقلاً واذا توفقنا الى ما نرجوه من النصر كنت اول مسرور بنيلك اياها غير اني ارجو ان يبقى ذلك مكتوماً عن كل انسان لاسباب تعلم بعضها وتجهل البعض الآخر ولا تكلفني التصريح بما وراء ذلك »

فاحس هانيء من تلك الساعة بثقل أُزيح عن صدره وارتاح باله وان كانت اشارة عبد الرحمن الى الاسباب التي لايعلمها شغلت خاطره قليلاً . على انه شعر بميل شديد الى مكاشفة مريم بما دار بشأنها مع عبد الرحمن — وذلك طبيعي في المحبين فانهم يتلذذون بمكاشفة بعضهم بعضاً اخبار الناس فكيف ما يتعلق بهم وخصوصاً ماكان منه راجعاً الى تحقيق أمانيهم . وعلى الاخص اذا اؤتمن احدهم على سرّ وطلب اليه كتمانه فانه يزداد ميلاً الى مشاطرة حبيبه بالاطلاع عليه كأنه يعدّ ذلك اكراماً خصوصياً لاختصاصه اياه بشيء ثمين اؤتمن هو عليه

ثم عاد الاميران الى السكوت مدة والركب ماش حتى دخلوا المعسكر وكان الجند قد فرغوا من اقتسام الغنائم وهم فرحون بما نالوه منها وخصوصاً البرابرة لما علمت من

مطامعهم — ظل الاميران سائرين حتى وصلا خيمة الامير عبدالرحمن فدخلاها ثم صفق عبد الرحمن فجاءه بعض الغلمان فقال له «ادع الامراء الى هنا الساعة»

فلما خرج الغلام التفت عبد الرحمن الى هانئ وقال له «قد علمتُ من أخبار الجواسيس وغيرهم ان طاغية أكيتانيا الكونت اود معسكرٌ بجنده في مضيق دردون على بضع ساعات من هذا المكان[1] فينبغي لنا ان نبادر اليهم قبل ان يتأهبوا للدفاع فاذا غلبناهم وقتلنا أميرهم ذهب عنا نصف العناء في هذا الفتح او هو العناء كله ولم يبق من يقف في سبيلنا الى نهر لوار ... ماذا ترى ؟»

قال «أرى ان نبادر الى الحرب والجند متشدد على أثر النصر»

قال «فتى حضر الامراء فاوضناهم ولا اظنهم الا موافقين على الزحف فنرحل برجالنا ونترك الاخبية في مكانها وعندها بعض الحامية والغنائم . فاذا هزمنا الافرنج باذن الله حملنا نساءنا وعيالنا وغنائمنا وسرنا الى تورس على نهر لوار ...»

وبعد قليل جاء الامراء وهم بضعة عشر أميراً وفيهم العربي والبربري والشامي والمصري والنبطي وغيرهم وفي جملتهم الامير بسطام . فعرض عبدالرحمن عليهم رأيه وساعده هانيء على تنفيذه فوافقوا جميعاً على الرحيل في صباح الغد على ان يتركوا النساء في الاخبية حيث هي . فلما اجمعوا على ذلك التفت عبدالرحمن اليهم وقال لهم «انتم تعلمون أننا سائرون لمحاربة هؤلاء الافرنج في معسكرهم والمسافة بيننا قريبة وهم متحصنون في جبالهم فينبغي لنا ان نسير اليهم خفافاً . ولا يخفى عليكم ما قد صار الى رجالنا من الغنائم في أثناء الفتوح التي توفقنا اليها منذ خروجنا من الاندلس وهي ثقيلة حتى لقد يثقل على الرجل حمل غنائمه وحدها بلا حرب[2] فكيف اذا اضطر الى الهجوم والركض فالرأي على ما أرى ان يتركوا غنائمهم في هذا المعسكر بقرب الاخبية فتبقى هناك هي والنساء ونجعل معها حامية من رجالنا فاذا بلغنا من عدونا ما نريده اضفنا اليها ما نغتنمه منهم ..»

قال عبد الرحمن ذلك وهو يتوقع معارضة بعضهم لعلمه بحرص اولئك القوم على حطام الدنيا وفيهم من لم يأت الى تلك الحرب الاّ رغبة في الاموال — فاستدرك هانئ ما خافه عبد الرحمن قائلاً «ان الامير مصيب برأيه ولا اظنكم الا موافقين عليه لاننا نخشى اذا جاهد رجالنا وهم مثقلون بالغنائم ان يعجزهم حملها فينوؤن تحت أثقالها فيقصرون

(١) رينو — والمسافة اطول من ذلك (٢) رومي ج ٣

في ساحة الوغى ولا يخفى عليكم ما يترتب على ذلك من الفشل »

وكان عبد الرحمن يخشى الاعتراض خصوصاً من الامير بسطام لحرص رجاله على الاموال لاسباب تقدم بيانها وكان عبد الرحمن في أثناء كلام هانىء يتفرس في وجوه الامراء فوجد التردد ظاهراً على الخصوص في وجه بسطام فاستأنف الكلام قائلاً «والذي أراه ان نعهد بحراسة تلك الغنائم الى الامير بسطام ومن يختارهم من رجاله ومعهم جماعة من رجال سائر الامراء ..»

فوقع ذلك الرأي موقع الاستحسان عند الجميع فوافقوا عليه وخرجوا للعمل به ولكي يأمروا رجالهم بالتأهب للرحيل في صباح الغد

فذهب هانىء الى خيمته ولم ينم تلك الليلة لما خالج افكاره من الهواجس بمريم على أثر ما سمعه من عبدالرحمن حتى حدثته نفسه ان يطير اليها في ذلك الليل ويكاشفها بما دار بينه وبين عبد الرحمن بشأنها ويخبرها بعزمهم على الرحيل الى محاربة الافرنج ويصبرها الى الرجوع وقد زاده رغبة في الذهاب اليها انه فارقها ولم يتمكن من وداعها كما يريد — ولكنه تذكر اهمية وجوده في الصباح هناك وخاف غضب عبدالرحمن فرجع عن عزمه

الفصل الخامس والعشرون

المنديل

وفي الصباح قام المسلمون للصلاة ثم نفخ في النفير فتأهبوا للمسير وساروا كأنهم بحر يتلاطم بالامواج وفيهم الفرسان والمشاة وبينهم الرماحة والرماة وقائد الفرسان العام هانيء وقد ركب أدهمه ولبس خوذته والتف بعباءته وقوضوا الخيام ولم يتركوا منها الا ما وضعوا فيه غنائمهم ومعها الامير بسطام وبعض رجاله ونفر من رجال القبائل الاخرى

و بعد المسير بضع ساعات اشرفوا على جبال اخبرهم الجواسيس ان اودُ ورجاله متحصنون فيها فنزل المسلمون في سهل بالقرب من ذلك المضيق وترجل الفرسان وسرحوا خيولهم للعلف والراحة على ان يستريحوا ريثما يطيب لهم الهجوم . وقد اقاموا الخفر حول المعسكر و بثوا سراياهم يستطلعون احوال اعدائهم ومناعة مواقعهم ليعلموا من اين يهاجمونهم

وذهب هانئ للاستراحة في خيمته وفي المساء جاءت الطلائع فاخبروا ان الافرنج مقيمون في الجبال وهم كثيرون وقد تحصنوا واقاموا لا يبدون حراكاً . فاجتمع امراء المسلمين وتفاوضوا في الامر فرأوا الهجوم على حصون الافرنج شديد الخطر فتربصوا ليروا ما يبدو منهم فاذا لم يخرجوا من حصونهم نظروا في الهجوم عليهم

فبات هانئ تلك الليلة وقد عادت اليه هواجسه وعاد الى التفكر في مفارقة المعسكر بضع ساعات ولا خطر على الجند في غيابه للاسباب التي قدمناها على انه ما زال متردداً في الذهاب خوف الفشل وحياء من عبد الرحمن

فاصبح في اليوم التالي وخرج على قدميه وقد تراكمت عليه الهواجس وهو يفكر في حاله وحال مريم وحال الجند . وبينما هو يتمشى في سهل خارج المعسكر راى رجلاً بلباس عربي قادماً من عرض البر يهرول نحوهُ ويشير اليه فوقف . فلما دنا الرجل منه تفرس هانئ فيه فاذا هو ملثم فناداه فمد الرجل يدهُ الى جيبه واستخرج منديلاً وسلمه الى هانئ . فلم يكد هانئ يستلم المنديل حتى شمَّ منهُ رائحة مريم — عرف ذلك من طيبها الذي اعطاها اياه بالامس فصاح في الرجل «من انت وما خبرك ؟»

فقال «ان هذا المنديل ينبئك عني ان صاحبه في حاجة اليك على عجل» قال ذلك وسار يعدو في عرض البر . فبهت هانئ ثم انتبه لنفسه وصاح في الرجل ان يقف فلم يلتفت اليه فوقف هنيهة وهو يعمل فكرته في ماذا عسى ان يكون سبب تلك الدعوة المستعجلة ولم يشك ان المنديل منديل مريم والطيب طيبها فلم يرَ بدًّا من المبادرة الى اجابة الدعوة وهو مطمئن البال على المعسكر واسرع الى خيمته فركب جواده والتف بعباءته وسار يلتمس الخباء ولم ينبئ احداً بمسيره لعلمه انه سيعود قبل انقضاء النهار فلا بأس من غيابه وخاف اذا شاور عبد الرحمن ان يستخف بعملهِ او ان يمنعه من الذهاب

سار هانئ وهو يستحث جواده لا يلتفت يميناً ولا شمالاً حتى وصل الخباء وقد مالت الشمس عن خط الهاجرة وتبلل هو وجواده بالعرق . وحال وصوله ترجل ودخل توًّا الى خباء الامير عبد الرحمن واستدعى القهرمانة فجاءت وهي تتوكأ على ركبتيها وتمشي الهوينا وحالما وقع نظرها عليه ابتدرته قائلة «اين مريم ؟»

فبغت لسؤالها وقال لها «اتسأَلينني عن مريم وانا انما جئت لأَسأَلك عنها . . . اين هي ؟»

قالت «هي عندك . . أَلم تبعث بطلبها في هذا الصباح ؟»

قال « انا ؟ بعثت بطلبها ؟ ·· اين هي ؟ قولي ان الوقت لايساعدنا على المزاح »

فقالت وقد ظهرت البغتة في ذلك الوجه الكالح وامتقع لونها « اظنك انت المـازح ·· ألم تبعث اليها في هذا الصباح مع رسولك ومعه جوادك وعباءتك وخوذتك ؟ »

فصاح فيها وقد تعاظم غضبه « كلاً لم ابعث احداً وهذا جوادي معي وهذه عباءتي ·· تبصري في ما تقولين ؟ قولي لي الصحيح والا قطعت راسك بهذا السيف » قال ذلك ويده على قبضة سيفه

فخافت القهرمانة وتحيرت بماذا تجيبه وقد ارتج عليها من الخوف والاستغراب وقالت تمهل يا بنيّ لاقص الخبر عليك ·· جاءنا في هذا الصباح رجل اظنه من رجالك وقد ركب جواداً ومعه جواد آخر ادهم لم نشك انه ادهمك عليه عباءة وخوذة وقال لي انك تطلب مريم حالاً بامر الامير عبد الرحمن لامر ضروري يتعلق بوالدتها ودفع اليّ هـذا الكيس (ومدت يدها واخرجت كيساً فيه دراهم) فامتنعت في بادىء الرأي ولم اطلعه فالح عليّ واوراني الجواد والعباءة وقال لي انك تطلب مريم لغرض مستعجل يتعلق بالحرب وانك بعثت لها جوادك لتركب عليه فلم أقبل منه فذكر لي علامة لا يعرفها احد سوانا وهي قارورة الطيب وقال العلامة لصدقه انك اجتمعت مريم عندي وأعطيتها قارورة الطيب فلم استطع الا تصديقه ومع ذلك فاني لم اسلم بارسالها الاّ بعد ان اتى بعلامة من الامير عبد الرحمن لا يعرفها سواي وأخيراً سلمته اياها وانا خائفة عليها ولشدة خوفي اخرجت معها احظى نساء الامير عبد الرحمن عنده واوصيتها بها ·· »

وكان هانىء يسمع كلام القهرمانة وهو يرتعد من شدة الغضب فلما تحقق عنـده ذهاب مريم قال « ومن هي تلك الحظية »

قالت « هي ميمونة الافرنجية اظنك تعرفها »

فقال « نعم اعرفها والى اين ذهبوا وكيف ؟ »

قالت « لما توهمت صدق ذلك الرسول ورأيت مريم راغبة في الذهاب اذنت لها فيه فركبت الجواد الادهم وركبت ميمونة جواداً آخر ومضوا نحو المعسكر »

الفصل السادس والعشرون

بسطام

فوقف هانىء وهو لايتمالك عن الارتعاش من شدة التأثر والقهرمانة واقفة بين يديه وقلبها يخفق خوفاً وقد أخذت تخفف غضبه قائلة « لابأس عليها يا بني ان ميمونة معها وهي تحبها حباً شديداً واظنها تحرص عليها كثيراً ... اجلس وخفف عنك ... لابأس عليها .. »

فلم يلتفت هانىء الى تلك الطمأنينة على انهُ ناب اليهِ رشده وفكر في ما سمعه فتذكر ان القهرمانة ذكرت والدة مريم فظن للأمر سبباً متصلاً بسرّ تلك الوالدة منذ رأوها لأول مرة بعد فتح بوردو وخيل لهُ ان سالمة احتالت تلك الحيلة لاسترجاع ابنتها. ولكنه تذكر القارورة فرأى ذكرها لاينطبق على ذلك الظن فلم يدر ما يقول . فلما تشابه الامر عليه رأى ان يبادر الى المعسكر للبحث عنها فذكر للحال ان الامير بسطاماً هناك فتبادر الى ذهنه ان الامير المذكور هو الذي احتال هذه الحيلة لاختطاف مريم منه لانه لم يزل عالقاً بها من يوم الفتح. فالتفت هانىء الى القهرمانة وقال « تقولين انهم ساروا نحو هذا المعسكر ؟ » واشار بيده الى معسكرهم بالامس

قالت « نعم يا مولاي »

فأسرع الى جواده فركبه وحوّل عنانهُ نحو ذلك المعسكر وهمز الجواد واطلق له العنان وقد عزم اذا رأى مريم عند بسطام ان يقتلهُ حالاً — سار ومع سرعة عدو الادهم فقد كان يحسبه واقفاً

وكان في المعسكر مضارب قليلة للغنائم وحولها الخفر من رجال بسطام وغيرهم ولما اشرف عليهم هانىء رآهم يختصمون و يتضاربون وقد علا ضجيجهم فلما رأوه تقدم بعضهم وهم يستغيثون . فصاح فيهم « ما الخبر .. ؟ »

فقال احدهم « نشكو اليك جور الامير بسطام فانه سلط رجاله فاستأثروا بالغنائم واخذوا من اسهم رجالنا فأضافوها الى اسهمهم ولم يسمع هو لصراخنا »

فازداد هانىء غيظاً من بسطام وصاح « اين بسطام .. اين هو ؟ »

ولم يتم كلامه حتى خرج اليه بسطام وهو يمشي الهوينا و يترنح ترنح السكران فلما

رآه هاني لم يتمالك ان صاح فيه « ما هذه الجسارة على اموال المسلمين ... قد امنك الامير على الغنائم فاستأثرت بها ... وسطوت على حقوق المسلمين ... لقد صدق القائلون انك لست مسلماً »

فقهقه بسطام وهو يمسح لحيته من بقايا طعام تساقط عليها كأنه كان على المائدة وقال « مالك وللغنائم ألم تشغلك تلك النصرانية عنها . ؟ دع الحرب واذهب الى الخباء فانك اولى بمعاشرة النساء ... ولكن ستذوق عاقبة غيك قريباً » قال ذلك وهو يضحك كأنه ضامن فوزه

فحمي غضب هانئ من تلك العبارة حتى غاب رشده فاستلّ حسامه وساق جواده نحوه واطلق الحسام وهو يتعمد قطع راسه فخلا بسطام من الضربة فهوى هانئ حتى كاد يقع عن جواده فازداد حنقاً وحوّل الشكيمة نحوه وانقضّ عليه انقضاض الصاعقة فتوسط بعض الرجال بينهما وهانئ لايبالي بهم ولم يعد يصبر عن قتل بسطام ففرّ بسطام الى احدى الخيم واختبأ فيها فهم هاني ان يترجل ويتبعه فأحاط بعض الرجال بجواد هانئ وتقدموا اليه ان يغمد سيفه حباً بالاسلام والمسلمين . فرجع هانئ الى رشده ووقف وهو يرتجف من شدة الغضب كأن ذكر الاسلام خفف من غضبه وسكن روعه وخصوصاً لما تصور ما قد ينجم عن قتل بسطام من الخصام بين فرق الجند . فامسك نفسه وتجلد واكتفى بفرار بسطام ... وعاد الى الامر الذي جاء من اجله فعمد الى البحث عن مريم هناك فجعل ينظر في الخيول الواقفة حول الخيام فلم ير بينها جواداً ادهم ولا رأى هناك نساء فسأل بعض الوقوف ممن يثق بهم من رجاله عمن في الخيم فقالوا له « ليس فيها غير الغنائم »

فافرد نفراً يعرفهم وسألهم « هل مرّ بكم ركبٌ على افراس ومعهم نساء »

فقالوا « كلاّ .. اننا هنا منذ الامس ولم نرَ احداً »

فوقف في حيرة وقد عادت اليه هواجسه في مريم وذهابها والتفت الى ما يحيط به من السهل واكثره عار من الاشجار الابعض التلال عليها الدالية من الكرم وبعض اغراس الزيتون فلم يرَ اشباحاً فتحير في امره فحدثته نفسه ان يعود الى دردون لعلهم ذهبوا بمريم الى هناك

وكانت الشمس قد مالت عن الهاجرة والجواد قد انهكه التعب فخاف اذا بالغ في سوقه وهو في تلك الحال ان يقصر في اثناء الطريق واذا لم يستحثه لا يصل المسكر قبل العشاء على انه لم يجد بدّاً من ملاحظة حال الجواد فحوّل شكيمته وتوجه نحو دردون

الفصل السابع والعشرون

المنزل الخالي

اما مريم فانها خرجت في ذلك الصباح مع ميمونة كما تقدم وقد ركبت على ذلك الادهم وتزملت بالعباءة وعلقت الخوذة بالسرج وساقت الجواد في اثر الرسول وميمونة على جواد آخر بجانبها وهي تنظر الى مريم على الادهم منتصبة القامة كأفرس الفرسان · وكانت ميمونة تظهر استغرابها ذلك الطلب المستعجل ولنها انما رافقتها صيانة لها مما قد يكون من بواعث الخطر على اثر ذلك · اما مريم فكانت تستحث جوادها وافكارها تائهة في عالم التصورات وصورة هانيء تتخلل كل خيال يمرُّ في ذهنها

ساروا ساعة ثم ادركوا المعسكر القديم الى يسارهم عن بعد وكانت مريم تحسب نفسها سائرة الى ذلك المعسكر لانها لم تكن عالمة بانتقال الجند الى دردون · فلما رأت الخيام قليلة سألت الرسول عن مقر الجند وعن المكان الذي هم ذاهبون اليه فقال « ان الجند انتقلوا الى دردون لملاقاة الافرنج هناك وسيعودون الى هنا واما نحن فاننا سائرون الى مكان على مقربة من دردون امرني مولاي الامير ان اوصلك اليه فاما ان يكون هو في انتظارك هناك او انه يأتي بعد وصولك» فصدقت مريم قوله وتطايرت نفسها شوقاً الى لقيا الحبيب · فساروا على تلك الصورة بضع ساعات وقد تركوا بوردو الى يسارهم ايضاً حتى وصلوا الى بناء منفرد قد تداعت جدران سوره فدخل الرسول امامهم من باب السور الى حديقة قد غشيها الاهمال لايخفى على المتأمل فيها انها من مساكن اهل اليسار وانهم غادروها منذ بضعة اسابيع · فترجلتا ودخلتا وساق الرجل الفرسين وراءهما فلما دخلتا الحديقة تصدَّت ميمونة الاعتراض على الرسول غيرةً على مريم فقالت لهُ « الى اين انت سائر بنا ·· ؟ اننا على مقربة من دردون على ما اظن ·· وما هذا البيت الذي ادخلتنا فيه ؟ احذر ان تكون مخطئاً ··· »

فوقف الرجل متأدباً وقال « لست مخطئاً يا مولاتي اننا في قصر بعض امراء اكيتانيا وقد هجره اهله فراراً من جند المسلمين · وفي هذه المزارع قصورٌ كثيرة هجرها اهلها و بقيت غنيمة للمسلمين »

فقالت « واين الامير هانيء ؟ »

قال « يظهر انه لم يأت بعد لاني لا أرى أثرًا يدلُّ على مجيئه ولكنه لا يلبث ان يأتي سريعاً » قال ذلك ومشى بهما حتى ادخلهما البيت من باب كبير كان مفتوحاً وليس في المنزل الا بعض المقاعد او الكراسي الضخمة مما لا يستطاع حملهُ في اثناء الفرار . وقد استولى السكوت على المكان الا ما كان يتردد من صدى خطواتهم وصهيل الجوادين — اما مريم فلما وصلت ولم تجد هانئاً ولا اثرًا يدلُّ عليه شككت في تلك الرسالة ولكنها سكتت لترى ما يكون والقت معظم الهم على ميمونة لانها اكبر منها سناً واوسع علماً بتلك البلاد وبأحوال ذلك الجند . ولم تكن ميمونة تجهل ما يخالج افكار مريم من هذا القبيل فكانت تتظاهر بالاستغراب ايضاً وتسأل الرسول مثل اسئلة مريم حتى وصلوا الى قاعة ليس فيها الا مقعدان قديمان فجلست ميمونة ودعت مريم للجلوس فجلست وهي تتفرس في المكان وتنظر الى ميمونة وميمونة تشاركها في الارتباك . فقضتا برهة وهما ساكتتان ومريم تتوقع قدوم هانئ وقد شاعت عيناها وهي تنظر الى الخارج من نافذة تطلُّ على الحديقة وميمونة بجانبها والمكان هادئ والخادم الذي اوصلهما لم يعد يظهر . فتظاهرت ميمونة بالخوف وقالت « و يلاه اين نحن . . ؟ ما الذي جرى لنا . . ؟ اين ذلك الرسول . . ؟ ياليتنا اصطحبنا بعض الصقالبة من خصيان الخباء » ثم صفقت كانها تستقدم الرجل فلم تسمع جواباً غير الصدى

اما مريم فلما رأت ميمونة خائفة خافت هي ووقفت وقد ظهر الاهتمام في وجهها وقالت « هل خدعونا ؟ اين ذلك الرجل كيف يتركنا هنا و يذهب . . الى اين ذهب » وكانت الشمس قد ادركت الاصيل وهما لم تأكلا من الصباح

الفصل الثامن والعشرون

المكيدة

وانهما لكذلك اذ سمعتا صوت صهيل وقرقعة لجام فالتفتت مريم نحو الباب فرأت فارساً وفي ركابه رجلان ملثمان وهو يركض جواده ركضاً عنيفاً حتى وصل باب البستان فترجل . فظنت مريم لاول وهلة انه هانئ فخفق قلبها ولم تتمالك عن الوثوب نحو الحديقة ولم تبال باختلاف لباس ذلك الفارس وجواده عن لباس هانئ وجواده لاعتقادها انهُ

ارسل اليها العباءة والجواد وقد جاء متنكراً . ولكنها لم تكد تفكر في ذلك حتى رأت القادم رجلاً بديناً يترنح في مشيته وسيفه يجرّ الى جانبه وعباءته مسترخية وراءه . ولا تسل عن اضطرابها لما عرفت انه بسطام فغلب عليها الارتعاد واصطكت ركبتاها وكاد الدم يجمد في عروقها والتفتت الى ميمونة فرأتها تظهر البغتة وقد تصدرت لمقابلة ذلك القادم المخيف بالنيابة عن مريم فلما وصل بسطام استقبلته ميمونة وهي تقول « ما الذي تريده ايها الامير ..؟ »

فاجابها وهو يلهث من التعب والرجلان يمشيان وراءه « ما الذي يعنيك من هذا الامر؟ »

قالت « ليس في هذا المكان رجالٌ ولا احد يهمكم امره فلا حاجة الى دخولكم اليه .. »

قال « ونحن انما جئنا لاجل النساء ... أليست مريم النصرانية هنا .. » قال ذلك وهو يضحك ومد يده الى وجه مريم . فنفرت مريم وتباعدت . فامسكت ميمونة بيد بسطام وقالت « لا تفعل ايها الامير مالا يليق بالامراء .. واعلم انك اذا مسستها عرضت نفسك لغضب امير جند المسلمين .... »

فصاح بسطام فيها صيحة شديدة وقال « من اقامك ناصحاً او نذيراً .. وما هو شانك ... اني لا اخاطبكِ ... » قال ذلك وحوّل وجهه ومشى نحو مريم فبالغت ميمونة في ممانعته وقبضت على زنده فانتتر منها فوقعت على الارض فالتفت هو الى الرجلين وقال « قيدوا هذه المرأة بيديها ورجليها واحبسوها في هذه الغرفة واقفلوا الباب عليها »

ولم يتم قوله حتى انقضّ الرجلان على ميمونة بالامراس وقيدوا يديها ورجليها وهي تصيح وتستغيث وتحاول التخلص ومريم تهمّ بانقاذها وبسطام يمنعها بدون ان يمسها بيده وهو يقول لها « لا تخافي يا جميلة اننا لن نصيبها بسوء وانما اردنا ايقافها عند حدّها » فلما فرغوا من تقييدها جرّاها الرجلان نحو تلك الغرفة فالتفتت نحو بسطام وهي تقول « لا باس عليّ مما فعلتموه بي ولكنني اتوسل اليكم ان لا تمسوا هذه الفتاة بسوء »

ثم دخل الرجلان بميمونة الى بعض حجر ذلك البيت واغلقا الباب . فلما خلوا هناك تركاها وشانها . فقالت لهما بصوت خافت « من هو عدلان منكما ..؟ »

فتقدم احدهما وازاح اللثام عن وجهه فبانت سحنته ونظر اليها بعينه الحولاء نظر المحب الولهان وقال « انا عبدك عدلان ارجو ان اكون قد امضيت مهمتك كما تشائين .. »

قالت « بورك فيك (وابتسمت) قل لي اين هو هانىء وماذا فعلت به ..؟ »

قال « فعلت ما امرتني به يا سيدة النساء ٠٠٠ وانما ارجو ان تكوني راضية عن عبدك واسير هواك وتحققي انك لا تجدين من يصدع باوامرك و ينفذ مآربك سواي ٠٠ »

فابتسمت ابتسامة اخرى وحركت اجفانها حركة الغنج والرضاء وقالت « اذا كنت قد فعلت ما فعلته بخفة ولباقة فاني راضية ٠٠ قل لي اين هو هانئ ٠٠ ؟ »

قال « اظنه لا يزال تائهاً في هذه الصحراء يفتش عن حبيبته ٠٠ »

قالت « وكيف اوصلت اليه المنديل ؟ »

قال « بعد ان اتيتك بالجواد الادهم امس ووكلت به هذا البطل (واشار الى رفيقه) وافهمته كيف يخدع القهرمانة — وكل ذلك بارشادك — ذهبت بالمنديل الى معسكر المسلمين فوصلت اليهم صباحاً ٠ ومن حسن حظ مولاتي وتوفيقها رأيت الرجل خارجاً يتمشى فاسرعت نحوه ودفعت اليه المنديل وانا ملثم فسالني عن غرضي فاخبرته ان صاحبة هذا المنديل تدعوه اليها حالاً وتركته وفررت الى مكان اراه منه ولا يراني فرأيته اسرع الى جواده فركبه وساقه نحو الخباء ٠ فلما تحققت ذهابه اسرعت من طريق آخر الى معسكر مولاي الكونت اود واخبرته بالواقع كما أمرت وحرضته على مباغتة المسلمين حالاً وقائد فرسانهم غائب فاطاع ونادى رجاله وهجموا على المسلمين وهم في غفلة ٠ وقد رأيتهم في فشل عظيم ولا اظنهم الا قد ذعروا وتقهقروا والغالب ان الافرنج قد استولوا على معسكرهم الآن ٠٠ »

وكان عدلان يتكلم وميمونة تراعي حركاته وكلما قال عبارة تبتسم له وتبدي ارتياحها وهو يتكلم بنشاط وسرور ٠ فلما قال ذلك قالت هي « ثم كيف فعلت ببسطام هذا ٠٠ »

قال « اتيته وهو في المعسكر القديم وجعلت اني اخدمه خدمة تسره واني فاعل ذلك من عند نفسي فاخبرته ان مريم خرجت من الخباء الى هذا المكان واني ساذهب به اليها فيبلغ منها ما يشاء على شرط ان يحافظ عليك فانك على غيرتي ودفع الي هدية ثمينة وكنت اتوقع ان يلتقي هانئ به و يقتتلا فيقتل احدهما الآخر ٠ فيكمل توفيقك وتتم رغائبنا بانقسام هذا الجند ٠ فجاء هانئ بعد ذهابه الى الخباء ولم يجد مريم فيه فظن بسطاماً اختطفها فلما لقيه في الخيام تخاصما وهم هانئ ان يفتك به لو لم يجبن هذا و يدخل خيمته ٠ فبعد ذهاب هانئ حرضت بسطاماً على الركوب سريعاً فركب وسرت في ركابه والتقينا في اثناء الطريق باخي هذا وكان قد جاء يستعجلنا فبدلت عباءته بعباءتي وغيرت قيافته وجئنا في ركاب بسطام كما رايتنا »

فقالت ميمونة « بورك فيك من خادم امين ٠٠٠ واذا تحققت امنيتنا بفشل جند العرب

دعوتك بلقب آخر » قالت ذلك واشارت بحاجبيها
فاشرق وجهه وجعل ينظر اليها وقلبه يكاد يطفح سروراً لما شاهده من انسها وتلطفها

الفصل التاسع والعشرون

الخنجر

اما مريم فلما رأت ميمونة مسوقة الى تلك الحجرة وهي مقيدة الاطراف وسمعت تضرعها الى بسطام بشأنها اعتقدت حبها لها ولكنها كانت في شاغل من امر نفسها لانها لم تتوقع بعد ما رأته الا الفتك الذريع من بسطام وهو مع غلظه وخشونته كانت رائحة المسكر تفوح من فيه وقد احمرت عيناه واكمد لون وجهه وتمنطق بجلد عريض غرس فيه خنجراً ضخماً وضع يمينه على قبضته ويسراه على قبضة السيف فتصوّر لعيني مريم شيطاناً رجيماً . فاستعاذت بالله من تلك الوقعة وتضرعت اليه تعالى في باطن سرّها ان ينجيها منه . على انها لم تتمالك عن الاضطراب الشديد من منظر ذلك الوحش الكاسر وكانت لا تزال متزملة بالعباءة الحمراء التي تعتقد انها عباءة هانىء فوق ردائها الاسود وعلى رأسها خمار اسود يغطي جبينها الى الحاجبين وقد تلثمت به من اسفل الذقن فبان وجهها من خلال ذلك مستديراً وقد تلألأت عيناها وزادها الانقباض هيبة . ومع كل ما شاهدته من اسباب الخوف لم تخر عزيمتها . ولعلها كانت عند اول ملاقاة بسطام هناك اكثر اضطراباً منها بعد ظهور تلك الفظاظة بتقييد ميمونة وحبسها وقد أصبحت هي وهو فريدين في ذلك البيت الواسع

اما بسطام فلما اختلى بمريم على تلك الصورة دعاها الى الجلوس على كرسي هناك كانه يريد ان يخاطبها بلطف على سبيل الاقناع . فجلست وجلس هو على كرسي آخر والتفّ بعباءته حتى غطت السيف والخنجر وهو يقول بلغة عربية مستعجمة مع نغمة البرابرة « لا تخافي يا مريم اني لا أريد بك سوءا لاني احبك حباً شديداً جداً (وبالغ في تشديد الدال وانت على ما يظهر قد غشك ذلك الغلام العربي . . فانخدعت باقواله . . . على انك نصيبي وحدي من هذه الحرب ولو شئت ان امنعه منك لمنعته من اول ساعة ولكنني تلطفت بك ورفقت بمزاجك والآن قد وقعتِ بين يديّ ولا مناص لك مني فأطيعيني »

وكانت مريم تسمع كلامه واطرافها ترتعد من شدة التأثر وهي تفكر في تجنبه

الى هناك هل كان على موعد او بالاتفاق واحبت ان تماطله في الحديث ريثما ياتي هانىء لاعتقادها انه قادم اليها فقالت « دع عنك ذلك يا امير فان لكل شيء وقتاً وانتم الآن في حرب فبعد انقضائها ياخذ كل ذي حق حقه ٠٠ »

قال لا تماطليني بالمحال ولا تظني هانئاً بالغاً منك شعرة فقد صرت في قبضة يدي ولا يخرجك منها احدٌ فالافضل لك ان تطيعيني والا فاني بالغ منك ما اريد قهراً ٠٠ »

فلما سمعت تهديده السريع عظم عليها الامر ولكنها ما زالت تود مماطلته ريثما يأتي هانىء لوثوقها ان هانئاً يرغم انفه فقالت « لا أرى باعثاً الى التهديد ايها الامير فان من يعدّ نفسه اميراً ويفتخر بشجاعته وشدّة بأسه لا يليق به ان يهدد فتاة بمثل هـذه العبارات وخصوصاً في مثل ما انتم فيه من الجهاد »

فضحك بسطام ضحكة الاستخفاف وقال « نعم اني أمير شجاع وساحة الوغى تشهد لي بذلك ولولاي لم يكن لذلك الغلام ذكر بين الرجال ولا كان لاولئك العرب راية تخفق في هذه البلاد فاذا علمت ذلك اقلعي عن ذكر سواي ٠٠ »

فلما سمعت تعريضه بهانىء وبالعرب ورأت اللين لا يجدي معه نفعاً عادت الى ماشبّت عليه من الانفة وقالت « دع عنك التعريض والتلميح فانك لست من رجال الامير هانىء ولو حضر الآن ما تجاسرت على التفوّه بحضرته بمثل هذا الكلام »

فحملق بسطام بعينيه ووقف بغتة وامسك مريم بذراعها وضغط عليها بكل قوته كأنه يريد ان يفتها لعلها تلين ٠ فشعر بصلابة عضلها كأنه قابض على حديد ٠ ثم اجتذبت يدها من قبضته ولم يستطع منعها ووقفت وهي تقول ابعد عني ولا تمسني فقد بالغت بالاستخفاف حتى نفد صبري ٠ »

فلما شاهد منها هذا الاصرار ورأى فيها تلك القوة اشتد غيظه وحمي غضبه وأراد نكايتها فقال « لا تعللي نفسك بالمحال فاني ضاربك ضربة بهذا السيف اقضي بها على حياتك هل انت الا سبية تباعين ببضعة دراهم ؟ وقد اخطأت بمحاستك فظننت الحماسة شغفاً وانت تعلمين ان في خبائي عشرات من امثالك يتمنون رضاي »



الفصل الثلاثون

المعركة

وهمت مريم بان تجيب بسطاماً فسمعت ضجيجاً في البستان وقد علت الضوضاء وسمعت رجلاً يقول « ان الامير هانئاً هنا »

فلما سمعت اسم هانىء بغتت واشتغلت عن بسطام باستطلاع الخبر فاسرعت الى الباب واسرع هو أيضاً فرأت جماعة من العرب قد وقفوا حول الجواد الادهم وهم يقولون « أليس هذا جواد الامير هانىء فاين هو ؟ »

فاجابهم بسطام « ليس هانىء هنا ... ماذا تريدون منه ؟ »

فتقدم احدهم وقد غشيهُ الغبار وتجلت البغتة في وجهه وتصبب العرق من جبينهِ وقد عرف الامير بسطاماً فقال « ان الافرنج هاجمونا واشتبك القتال بيننا وبينهم والامير هانىء غائب من الصباح وقد فشل فرساننا وكادت الدائرة تدور علينا فخرجنا للبحث عنه فاذا لم يدركنا لم تقم لنا قائمة ... والامير عبد الرحمن لم يستطع قيادة الفرسان لاشتغاله بسائر الجند — فلما رأينا هذا الادهم ظنناه هنا »

فقال بسطام ليس هذا ادهمه ... والظاهر انه طلب النجاة بنفسه . ابحثوا عنهُ في غير هذا المكان » قال ذلك وتحوَّل الى الداخل

فرجع الرجل ورفاقه الى الادهم وتأملوهُ جيداً فتحققوا انه ليس جواد هانىء فانكفأوا راجعين

وكان جند العرب قد تضعضع لغياب هانىء لأنهم لم يكونوا على موعد من الحرب في ذلك اليوم وانما خرج اليهم الافرنج بغتة وهم في خيامهم لاسباب تقدم بيانها في أثناء حديث ميمونة . وكان عبد الرحمن في صباح ذلك اليوم مشتغلاً في خيمته ببعض الشؤون ينتظر مجيء هانىء اليه للمداولة في أمر الجند . فابطأ هانىء عليه فاشتغل خاطره بشأنه وهمّ باستقدامه واذا ببعض الرجال قد جاؤه مسرعين ينادون « ان الافرنج قد خرجوا الينا كالسيل الجارف » وعلت ضوضاء الجند فخرج عبد الرحمن الى فرسه وبعث رسولاً الى الامير هانىء وسائر الامراء ليجمعوا رجالهم ويتأهبوا للهجوم على جاري

عادتهم ولم يكد يفعل ذلك حتى انهالت النبال على خيمته فنظر الى المعركة فرأى الافرنج هاجين وقد تصاعد غبارهم فركب جواده ونادى رجاله ووقف في انتظار هانئ ليقود الفرسان ويرتبهم فعاد الرسول وهو يقول « لم نجد الامير هانئاً في خيمته ولا رأينا جواده في مربطه »

فارتبك عبد الرحمن في أمره وقد كان كثير الاعتماد على هانيء في تنظيم الهجوم لانه قائد فرسانه والفرسان اوجه فرق الجند عند العرب • فغضب عبد الرحمن لتخلفه غضباً شديداً وأخذ على نفسه قيادة الفرسان فلم يستطع تنظيمهم لانه لم يتعودهم ولا تعودوه والفرصة قصيرة • فالتحم الجيشان والعرب مرتبكون ولولا شجاعة عبد الرحمن وتدبيره في ذلك المركز الحرج لتشتت رجاله من الصباح • لكنه كان رابط الجأش فاخذ يستحث الرجال ويحثهم ويسير امامهم الى صفوف الاعداء لا يبالي بما يتساقط عليه من النبال لان موته في ساحة الحرب ايسر عليه من الفشل

فلما مالت الشمس عن خط الهاجرة ولم يأت هانيء بعث جماعة للتفتيش عنه وظل هو يدبر امور الجند ويصبرهم ويستحثهم ويشجعهم حتى كادت الشمس تدنو من المغيب وكاد الافرنج يظفرون بالعرب وكان الفرسان يحاربون وعيونهم شائعة في عرض البر يتوقعون قدوم قائدهم او سماع خبر عنه • وكان الامراء كلما التقى اثنان او ثلاثة منهم ولو تحت خطر الموت تساءلوا عن هانيء وسبب غيابه وشعروا باهميته في حروبهم اكثر مما كانوا يظنون

اما عبد الرحمن فمع سعة صدره وشدة حبه الامير هانئاً فانه وجد عليه وتوهم ان الغرام حمله على المسير الى حبيبته على أثر ما سمعه من رضائه عن تحابهما • ولكنه كان في شاغل عن التوسع في هذا الشأن بما يحيط به من المشاغل الهامة خوف الفشل • على انه اضمر اذا صح ظنه في هانيء ان يحرمه من مريم — كانت تلك الافكار تتوارد على ذهنه متقطعة يتخللها الارتباك في تدارك الخطر المحدق به وبجنده • وكان مع ذلك لا يفتر عن التلفت والتطلع لعله يرى هانئاً قادماً ولكنه لم يكن يرى الا مايزيده اضطراباً بزيادة التضعضع في الجند وخصوصاً الفرسان حتى كاد الافرنج يصلون الى خيمته



الفصل الحادي والثلاثون

هانئان

وفيما هو يستحث رجاله ويحرضهم على الصبر والثبات لاحت منهُ التفاتة الى يسار الجند فرأى من خلال الغبار والنبال فارساً على جواد ادهم عليه عباءة حمراء وعلى رأسه خوذة وقد أشرع سيفه واطلق لفرسه العنان فبذل الفرس اقصى ما عندهُ من العدو حتى اعتدل عنقه وتطاير عرفه وانتصب ذيله وامتدت قوائمه فاستطال بدنه وتناثر التراب من مواقع حوافره — ولولا ذلك التناثر ما علمت موقعها — وتصاعد الغبار خلفهُ وهوى نحوه كأن الفرس سابح في الهواء وكأن الغبار يحاول اللحاق به فلا يدركه . والفارس ثابت على ظهره كأنه قطعة منهُ لا يبالي بالسهام المتطايرة ولا بارجال المهاجمين . فلما رآه عبدالرحمن خفق قلبه سروراً لاعتقاده انه هانيء فساق جواده نحوه حتى اقترب منه وهو يتوقع ان يقف له ولكنه ظل هاجماً نحو الافرنج وهو يقول « انا لكم هانيء لا تفشلوا ... ولا تخافوا من غلمان الافرنج انهم غنيمتكم في هذا اليوم »

فلم يشك عبدالرحمن انه الامير هانيء نفسه وأراد بعضهم ان يستقدمه الى عبدالرحمن فلم يصغ اليه وساق جوادهُ الى معسكر الافرنج من جهة لم يكن الافرنج يظنون العرب يأتونهم منها . فاشتدت عزائم العرب وخصوصاً الفرسان وساروا في اثره كأنهم الاسود الكاسرة . فبغت الافرنج وارادوا ان يحولوا قوتهم الى الجهة التي هاجمهم منها ذلك الفارس واذا بفارس آخر بعباءة حمراء وخوذة على جواد ادهم أيضاً وقد استل حسامه وهجم على الافرنج من جانب آخر وهو يقول « جاءكم الامير هانيء » فتبعه من بقي من الفرسان فانقسم الافرنج شطرين لملاقاة الفرقتين فتضعضعوا وازداد المسلمون ثباتاً وشجاعة ولم يمس المساء حتى فرّ الافرنج عن بكرة أبيهم وأصبح معسكرهم غنيمة للمسلمين . فاستولى المسلمون على ما هنالك من الخيام والاسلحة والاطعمة والذخائر . وكان الامير عبد الرحمن قد شاهد هجوم الامير الآخر من الناحية الاخرى وهو يشبه الامير هانئاً لان كليهما بلباس متشابه وعلى فرسين متشابهين

فلما فرّ الافرنج كانت الشمس قد غابت واكفهر وجه السماء وعاد عبد الرحمن الى

خيمته حيث يتوقع ان يلاقي الامراء وهانيء في جلتهم ليعهد اليه امر الغنائم على جاري العادة

وبعد قليل جاء احد الفارسين صاحبي الادهمين فاذاهو هانيءٌ نفسه فرحب به فابتدره هانيء قائلاً « لقد غدرنا هؤلاء الافرنج وتوسموا بالغدر خيراً وقد دمرهم الله . ولو علمتُ بعزمهم على الهجوم ما فارقت المعسكر لحظه »

فقال عبد الرحمن وهو يتحوَّل عن جواده ويتشاغل باصلاح ركابه « لقد شغلت خاطرنا على غيابك فنحمد الله على رجوعك » ثم التفت اليه بلهفة وقال « ومن هو ذلك الفارس الذي تقدمك واكتنى باسمك »

فقال « لم يكن معي احدٌ »

قال « اما رأيت فارساً على ادهم مثل ادهمك وبعباءة مثل عباءتك؟ قد رأيته بعيني في وسط المعركة قبل وصولك وسمعته يتسمَّى باسمك »

قال ذلك ونظر الى بعض الرجال حوله وقال « اين ذلك الفارس على الجواد الادهم ؟ »

اجاب احدهم « رأيناه هاجماً وقد اوغل في الصفوف ثم توارى وربما جاء بعد قليل »

فصاح عبد الرحمن « اذهبوا في اثره واستقدموه » وتحوَّل عبد الرحمن وهانيء الى الخيمة وجاء في اثرهما بعض الامراء وجلسوا يتحادثون في امر ذلك اليوم العجيب وما كان يهددهم من الخطر وكلهم يذكرون هانئاً الآخر ويعجبون — على انهم اشتغلوا عن ذلك بعد قليل بتدبير امر الغنائم والاسرى ولم يكن في معسكر الافرنج سبي لانهم لا يحملون معهم نساءهم واولادهم . اما الرجال فانهم اركنوا الى الفرار وفي مقدمتهم الكونت اودصاحب اكيتانيا ورجال حاشيته

فتباحث الامراء في امر الغنائم من الاسلحة والخيام والفرش وغير ذلك ووكلوا الى كتَّاب الجيش النظر في تقسيمها وحفظ حق بيت المال على جاري العادة . ولم تكن الغنائم في هذه الواقعة كثيرة فاقتسموها على عجل . وقضوا تلك الجلسة وكلٌّ منهم يفكر في امر ذلك الفارس ثم تفرقوا الى خيامهم الا هانئاً فانه بقي عند عبد الرحمن ليخبره عن سبب تغيبه . فلما خلوا ساله عبدالرحمن بلطف فقصَّ عليه حديثه باختصار ولم يكتمه شيئاً بعد ما آذنه من مجاراته له في امر مريم . فلما بلغ الى حديث بسطام وما كان من حاله في مستودع الغنائم هزَّ عبد الرحمن رأسه وقال « انا لله وانا اليه راجعون . ان امر هؤلاء

البرابرة ليخوفني واخشى من عواقب استبدادهم اذا نحن بالغنا في استرضائهم — واخشى من الجهة الاخرى اذا جافيناهم ان يفسدوا علينا سعينا . »

وكان هانئ، لما ذكر الجواد الادهم الذي أخذت مريم به تذكر ما قالته القهرمانة عن العباءة الحمراء والخوذة اللتين تشبهان عباءته وخوذته فبادر الى ذهنه علاقة بين ذلك الجواد وهذا الفارس

وبينما هما في ذلك عاد الذين ذهبوا للتفتيش عن هانئ الآخر وقالوا انهم بحثوا عنه في المعسكرين فلم يقفوا له على اثر . فعاد هانئ الى هواجسه وهو قلق الخاطر على مريم ولم يفهم تلك الاسرار وخاف ان يكون قد اصابها سوء او لعلها في ضيق او تكون قد فرّت من معسكر العرب بتلك الحيلة — اما عبد الرحمن فلما سمع ما قصه عليه هانئ من امر مريم وخروجها تذكر والدتها والمهمة التي ذهبت بها فجرّه سوء ظنه (والعاقل سيء الظن) الى اتهام سالمة في الامر وانها انما تظاهرت بما تظاهرت به احتيالاً للفرار من الاسر . ثم راجع ما حفظه من حديثها وما كان يبدو في وجهها من امارات الجد فغلب عليه اعتقاد صدقها

الفصل الثاني والثلاثون

هانئ الآخر

ولبثا برهةً صامتين لا يتكلمان وكل منهما في هاجس يتنازعهما التفكير في مريم وفي ذلك الفارس . وانهما لكذلك اذ سمعا وقع حوافر مسرعة نحو الخيمة فاصغيا واذا بغلام دخل مسرعاً وهو يقول « ان فارسين بالباب يلتمسان الدخول» فقال عبد الرحمن « ليدخلا » فخرج الغلام ثم عاد وفي اثره رجل عليه خوذة وعباءة حمراء فحالما وقع نظرهما عليه علما انه الفارس الذي سمى نفسه هانئاً . فلما رآه هانئ، وقف واقبل نحوه وتفرس في وجهه فرآه قد تلثم تحت الخوذة بلثام اسود ورأى من خلال العباءة ثوباً اسود فصاح فيه « يا هلا بالفارس الذي يسمي نفسه هانئاً » قال ذلك وتقدم نحوه وهو يتوقع جوابه . فظل الفارس ساكتاً ينظر من خلال اللثام . فابتدره الامير عبد الرحمن قائلاً « انك ذو فضل على هذا الجند . . . بالله ألا رفعت لثامك وعرفتنا بنفسك . . »

فرفع الفارس يده الى الخوذة فنزعها فبان من تحتها خمار اسود وألقى العباءة عن

كتفيه فبان من تحتها ثوب اسود فعرف هانيء للحال انه ثوب مريم فلم يتمالك ان صاح «مريم ! مريم !»

فمد الفارس يده الى الخمار فازاحهُ فبان من تحته وجه فتاة يتدفق حياة وجمالاً وقد زاده التلثم دفئاً فتورد وابرقت العينان . ولا تسل عن هانيء لما علم بها انه مريم من البسالة التي تندر في النساء فقال وهو لا يستطيع امساك نفسه «مريم ؟ اهذه الفعال فعالك يا حبيبة .. عهدناك ربة الجمال واللطف ولم يخطر لنا انك ايضاً ربة الجواد والسيف ... حبيبتي ما الذي جرى ؟ اين كنت ؟ ما هذا . ؟ ماذا أرى .. »

قالت « انك ترى مريم واقفة بين يديك ويدي الامير عبد الرحمن ولم آت امراً يستحق هذا الاطناب واذا كنت قد فعلت شيئاً فما هو الا لاني تسميت باسم الامير هانيء .. فلامير هانيء هو الذي فعل ذلك .. » قالت ذلك بلغتها المعهودة وقد تجلى في محياها شيء هو غير البسالة والانفة — تجلت في وجهها ملامح الحب فذهبت بكل ما كان هناك من امارات الشجاعة والرجولية . ثم انتبهت لنفسها وانها قالت ذلك بين يدي الامير عبد الرحمن فغلب عليها الحياء فاطرقت فابتدرها عبد الرحمن قائلاً « بورك فيك وبورك بالامير هانيء انكما متكافئان ولولاكما لاصاب هذا الجيش ضيق لا ندري ما يكون من عواقبه .. تفضلي يا بنية اجلسي وقصي علينا خبرك وما الذي دعاك الى اقتحام هذا الخطر العظيم . فقد سمعتُ من اخي هانيء انك خرجت من الخباء في هذا الصباح بخديعة وذهب هو من الصباح للتفتيش عنك ولم يعد الا بعيد مجيئك — عاد وهو قانط من العثور عليك . فما هو خبرك ؟ »

قالت « ارجو قبل الشروع بالحديث ان تأمر باستقدام رفيقتي وصديقتي التي تحملت العذاب من اجلي .. ميمونة . فانها خارج هذا الفسطاط » واشارت بأصبعها الى الخارج

وكان الاميران قد علما بضياعهما معاً فلم يستغربا كلامها فصفق عبد الرحمن فدخل الغلام فأمرهُ ان يدخل المرأة الواقفة خارجاً وبعد هنيهة دخلت ميمونة وهي تتظاهر بالحياء والدعة . فأشار اليها عبدالرحمن ان تقعد على طنفسه في بعض جوانب الفسطاط وهو يبتسم لها اعترافاً بحسن صنيعها ثم حوّل وجهه الى مريم لاستماع حديثها . وكان هانيء لا يزال واقفاً فأشار اليه عبد الرحمن ان يقعد بجانبه فقعد واصاخ الاميران باذنيهما لسماع القصة

فبدأت مريم بالحديث منذ جاءها الرسول يلتمس ذهابها الى الامير هانيء وكيف ان

ميمونة عرضت نفسها لخدمتها وكيف آنستها واعانتها حتى وصلت الى دخولها القصر المهجور وما كان من مجيء بسطام وما ابداه من الوقاحة وكيف عرضت ميمونة بنفسها للخطر دفاعاً عن مريم . فلما ذكرت مريم ذلك تحولت الانظار الى ميمونة فتظاهرت بالحياء والاطراق . اما هانيء فاحس منذ سمع اسم بسطام بارتعاد من شدة الغيرة والتفت الى الامير عبد الرحمن وهمس في اذنه قائلاً « يا ليتني قتلته في هذا الصباح . . »

اما مريم فانها استمرت في حديثها فقالت « فلما رأى بسطام مدافعة هذه الصديقة عني امر رجاله فقبضوا عليها واوثقوها وساقوها الى بعض الغرف وهي تصيح وتستغيث فلما يئست من نجاتها تقدمت الى ذلك الوحش الكاسر ان يرفق بي . اني لا انسى تلك الاستغاثة — وان كان بسطام لم يعبأ بها فانه لما خلا بي في ذلك القصر المهجور حدثته نفسه بامور كثيرة وطال الجدال بيني وبينه وفيما نحن في ذلك جاء بعض فرسان هذا الجند للبحث عن الامير هانيء هناك فعلمت منهم ان الافرنج هاجموكم وهانيء غائب وان العرب في تضعضع بسبب ذلك . فأصبحت في قلق لاسباب لاتجهلونها . اما بسطام فانه لم يبال بضياع جند العرب كله ولما سمع توبيخي له على ذلك انتهرني وعرض بذكر الامير (واشارت الى هانيء) واتهمه بالجبن وانه فرَّ من المعركة خوفاً من الموت . لاني قلت له « ألا تزال تزعم ان هانئاً غلام لا شأن له وقد رأينا الجند لايستطيعون عملاً بدونه ولم نسمعهم ذكروا بسطاماً ولا سواه » (فلما سمع هانيء ذلك الاطناب حوّل نظره عن مريم حياء)

أما مريم فأتمت حديثها قائلة « فوقع كلامي على بسطام وقوع الصاعقة ولم يتمالك ان هجم عليّ ويده على قبضة سيفه يهمّ ان يجرده ليضربني به فصحت فيه « اخسأ يانذل الرجال ان مثلك لايليق ان يسمى اميراً فبدلاً من ان تجرد حسامك على فتاة اذهب لنجدة اخوانك وقد علمت ماهم فيه من الضنك وجرده على اعدائك . ولو كان هانيء في مكانك مافعل مثل فعالك »

فلم يزده هذا الكلام الا حنقاً وكنت اظنه يخجل من نفسه ويرتدع عن غيه فقال ويده لاتزال على قبضة السيف « لو كان هانيء رجلاً ما تخلف عن ميدان الحرب في مثل هذا اليوم ولكنه جبان » ولم يتم كلامه حتى جرد سيفه وهمّ باطلاقه عليّ فلما رأيت ذلك منه وتبينت الغدر في عينيه تناسيت ضعف النساء وشددت عزيمتي وعولت على الفتك به التماساً للسرعة في الخروج من بين يديه لانظر في امر هذا الجند لان فشله يهمني كثيراً كما تعلمون . ثم امسكت نفسي وعدت الى الملاطفة فقلت له « لاتخوفني بسيفك ولا يغرنك اني فتاة فاني لا اخاف السيوف فارجع عن عزمك واتركني وشأني وذلك خير لك » وقبضت

على زنده وهزته فأكبر ان يصغي لنصحي فانتثر من يدي وكان قد انزل السيف فعاد وشهره واوهم انه مطلقه على عنقي فتراجعت لاخلو من الضربة فظنني خفت فتبعني وسيفه يكاد يقع على رأسي فأعترف لكم اني لم اعد استطيع صبرًا على ذلك فصحت فيه « نصحتك فاقبل نصيحتي يا بسطام .. » قلت ذلك وهو يحاول ان يقبض على ثوبي ليتمكن من ضربي لانه كان يتوقع فراري . فبدلاً من الفرار هجمت اليه وامكست يمناه بيسراي ومددت يمناي الى منطقته واستللت خنجره وغمدته في صدره وقلت له « ابيت الا ان تموت قتيلاً وان تدنس يدي بدمك » فغاص الخنجر الى قبضته وخرّ على الارض وسقط السيف من يده فالتقطت السيف ولم انظر الى وجهه لاني قتلته مكرهة واسرعت الى الادهم فركبته والتففت بالعباءة وجعلت الخوذة على رأسي وهمزت الجواد نحو المعركة لأوهم الناس اني الامير هانيء تشجيعاً لفرسانه فاذا ترتب على عملي هذا نجاح فانما الفضل لذلك الاسم المبارك »

الفصل الثالث والثلاثون

الاخلاص

فلما ذكرت مريم قتل بسطام صاح الامير عبد الرحمن « قتلت بسطاماً ؟ »

قالت « نعم قتلته وقد قصصت عليك السبب الذي دعاني الى قتله فاما ان تعذرني فيه او تقتلني به فاني بين يديك »

فتصدى هانيء للجواب قائلاً - « ان قتله مقدَّرٌ منذ ايام ولو لم تقتليه انت لقتلته انا واذا رأى الامير ان ينتقم له فلينتقم مني »

فقال الامير عبد الرحمن « لا اريد الانتقام له ولكنني اخاف ان يترتب على مقتله تشويش في الجند لما تعلمون من ... » ثم انتبه لوجود ميمونة هناك فتوقف عن اتمام الحديث وحوّل الموضوع فقال « سنعود الى البحث في ذلك والآن اخبرينا عن سبب تأخرك عن القدوم الى الآن مع ان المعركة انقضت منذ بضع ساعات »

فلما سمعت مريم سؤال عبد الرحمن اشارت بيدها الى ميمونة وقالت « قد كنتُ في شاغل من أمر هذه الصديقة لاني تركتها أسيرة في ذلك القصر المهجور واسرعتُ لما قدمته من أمر الحرب . فلما فرغتُ من ذلك واطمأن بالي على الجند تذكرت ما هي فيه من الضيق بسببي فلم أتمالك عن الذهاب لانقاذها . فاسرعت الى القصر قبل المجيء الى هذا المعسكر فوجدتها لا تزال مغلولة وقد غادرها الحارسان فحللت قيودها وجئت بها على جواد كان لا يزال هناك . ولو لم استطع انقاذها لتنغص عيشي لانها انما أسرت وأهينت بسببي — فلما رجعتُ كان الليل قد أظلم فاهتديت الى معسكركم بنيرانه وعرفت خيمة الامير من العلم الذي ببابها فجئت كما ترون »

وكانت مريم تتكلم والحمية تتدفق من محياها والصدق يتجلى في كل لفظ من ألفاظها فازداد عبد الرحمن اعجاباً بها والامير هانئ هياماً بحبها ولم يتمالك هانئ ان صاح « بورك ببطن حملك ووالله لانت بشير خير ورسول سعادة لهذا الجند ... »

فوقفت ميمونة عند ذلك وهي تتظاهر بالامتنان واللطف والحياء وقالت « لا غرو اذا أعجب بها الامير وهو في أبان الشباب فقد عشقتها النساء قبله واعترف اني لم تقع عيني في هذه البلاد ولا في غيرها على فتاة جمعت ما جمعته هذه الحبيبة من لطف النساء وبسالة الرجال وأنفة الامراء وحنو الامهات غير ما في خصالها من صدق اللهجة وعزة النفس فهي جديرة برضاء الاميرين . واما انا فقد كنت أعدُّها صديقتي فبعد ما غمرتني به من الجميل أصبحت وأنا أنظر اليها نظري الى من هو فوق مرتبتي ... »

وكانت مريم في أثناء ذلك مطرقة تكاد تذوب خجلاً وقد كلل العرق جبينها حتى تقطر فوق خدين توردا من شدة الحياء ولم ترَ جواباً لذلك التجمل غير السكوت والاطراق

وادرك عبد الرحمن ذلك فيها فأشفق على عواطفها فعمد الى تغيير الحديث فقال « أرى مريم أهلاً لأكثر من ذلك واما الآن فقد آن لها ان تستريح بعد هذا العناء » ثم صفق فدخل الغلام فقال له « اعدد لهاتين السيدتين خيمة تنامان فيها واحضر لهما كل ما تحتاجان اليه من لوازم الراحة ... وخذ الفرسين الى الاسطبل ... »

فاشار اشارة الطاعة وخرج وخرجت مريم وميمونة في أثرها وهانئ يراعي مريم في أثناء خروجها وقد تضاعف هيامه بها لتذكر ما عاهدها عليه من أمر الاقتران بعد ان يقطعوا نهر لوار . فلما تذكر ذلك هان عليه ان يقتحم جند الافرنج وحده اذا حالوا بينه

وبين ذلك النهر • فلما خرجت المرأتان وبقي الاميران على انفراد لاحظ عبد الرحمن ما بدا في وجه هانئ من دلائل الهيام فسرّه تعلقه بمريم وغلب على ما ربما خطر في باله من الاستئثار بها دونه لما آنسه من المشابهة بين الحبيبين بسالةً وحماسة وأنفة مع ما بينهما من المحبة المتبادلة — على أنه ما لبث أن غلب على فكره امر ذو علاقة كبرى بسلامة ذلك الجند والاحتفاظ باتحاده على أثر ما سمعه تلك الليلة من مقتل الامير بسطام • واصبح لا يشك اذاً بلغ مقتله الى رجاله ان يثوروا ويطالبوا بدمه فاذا علموا أن مريم قاتلته ربما أساؤها فيستاء هانئ وتكون البلية الثانية شرّاً من الاولى — فلبث الامير عبد الرحمن هنيهة وهو مطرق واصابعه في خلال لحيته وقد استغرق في التفكير حتى غلب عليه الجمود وقد قبض على لحيته بانامله والشعر فيما بينها — وكان هانئ مطرقاً مثل اطراقه ولم ينتقل فكره من مريم الا الى ما قد يحول بينه وبينها من جنود الافرنج وحصونهم

الفصل الرابع والثلاثون

حيلة جديدة

وانتبه عبد الرحمن بغتة ونظر الى هانئ فلما رآه مطرقاً ادرك انه يفكر في أمر غير الذي يفكر هو فيه فعذره في مريم بعد ماعاينه منها ولكنه خاطبه بلطف وايناس وقال له « بورك لك بهذه الفتاة فانك والله جدير بها ولكنني لا ازال أتوقع منك رأياً لا يتم لنا أمرٌ بدونه »

فلما سمع هانئ كلامه عاد الى رشده وفاته لاول وهلة أدراك مراد عبد الرحمن فقال « وأي أمر تعني أيها الامير »

قال « اعني بسطاماً وقتله • لا أنكر عليك انه نال ما يستحقه ولكنك لا تجهل حاجتنا الى بقائه اذا لم يكن للاستعانة بسيفه فلحفظ قبيلته على ولائنا • وانت تعلم شأن اولئك البرابرة معنا وخصوصاً رجال بسطام فانهم انما أنجدونا طمعاً بالغنائم ولم يذعنوا لاوامرنا الا وفي نفوسهم ضغائن علينا لاعتقادهم ان العرب ظالموهم ومستأثرون بالسلطة والاموال دونهم • فاذا علموا بقتل أميرهم اخاف أن يحدث منهم ما يفسد امرنا ويفرق كلمتنا ونحن في أشد الحاجة الى الاجتماع فما رأيك • • • »

فابتدره هانئ بالجواب كانه اشتغل في تمثيله وتحريره منذ ايام وقال « ليس اهون عليَّ من ارضاء أولئك البرابرة ... فقد فاتك انهم لم يرافقونا في هذه الحرب نصرة للاسلام وانما ارادوا كسب الاموال واقول لك انهم لم يطيعوا بسطاماً الا لمثل هذه الغاية لانه واسطة بيننا وبينهم فاذا تحققوا بقاء ذلك الكسب ظلوا على الطاعة — وزد على ذلك اننا نوهمهم بأن ذهابه دعا الى زيادة اسهمهم من الغنائم لانه كان كثير الطمع لنفسه ثم نمنح أولئك الامراء هدايا خصوصية ونطلب اليهم ان يختاروا رئيساً منهم بدل بسطام — واذا عهدتَ اليَّ تدبير ذلك فعلته وانا ضامن السلامة باذن الله فان من كانت مطامعه الاموال لايصعب ارضاؤهُ بها ..»

فاعجب عبد الرحمن بسداد ذلك الرأي وعهد اليه تدبير الامر بحكمته وفوَّض اليه اجراء ما يراه ولم يكن ذلك صعباً عليه

وفي صباح اليوم التالي تفاوض الامراء في امر الاخبية فاجمعوا على حلها الى هناك فبعثوا جنداً لنقل المضارب وخيم الغنائم التي كانت باقية في المعسكر القديم واتم هانئ مهمته على نحو ما قال ومكثوا هناك يتأهبون للشخوص نحو نهر لوار بعد رجوع سالمة من مهمتها ليعلموا كيف يتصرفون . لان عبد الرحمن كان يتوقع فوائد كبرى من مساعي سالمة لعلمه ان اتحاد جنده لا يمكث طويلاً لاختلاف عناصره وتضارب مقاصد امرائه فاذا لم يتخذ وسائل أخرى خاف العاقبة فضلاً عما يترتب على مشروع سالمة من حجب الدماء وسهولة الفتح

اما ميمونة فقد علمتَ ماكان من حيلتها وما دبرته لفشل جند المسلمين وكيف انها لم تنجح لاسباب تقدم بيانها . ولكنها كانت بدهائها ومكرها قد حفظت خط الرجوع فاظهرت انها اسيرة بسبب مريم وقد سرها مقتل بسطام لانه مطلع على بعض سرّها وفي مقتله أمان من افشائه . فلما خرجت مريم على الادهم في ذلك اليوم ارسلت ميمونة احد الرجلين في أثرها فلما عاد من المعركة وانبأها بانكسار جند الافرنج امرت الرجلين بالفرار وظلت هي باغلالها هناك على أمل ان تبعث مريم من يستجليها ولم يخطر لها ان تأتي هي بنفسها . فلما جاءتها مريم وجدتها وحيدة فحلت قيودها وسارت بها الى معسكر العرب كما تقدم

وقد رأت مبالغة ميمونة بامتداح شهامة مريم لانهـا رأت الاميرين معجبين بها فارادت مجاراتهما تمويهاً لما قد يظنان بشأنهـا وهما في الواقع لم يخطر لهما شيء من

سؤ الظن بها من هذا القبيل • اما هي فقد كظمت ما في نفسها وعزمت على اتخاذ وسيلة نافذة كانت قد ادخرتها في ذهنها لحين الاضطرار فلما ذهبت مع مريم الى الخيمة تلك الليلة ظلت على اظهار اعجابها بها والمبالغة بما شاهدته من سجاياها حتى اذا خلت بنفسها لبثت تنتظر مجيء عدلان الاحول لتفاوضه في الحيلة التي دبرتها وهي لا تشك في نجاحها

الفصل الخامس والثلاثون

سالمة بوردو

فلندعهم يدبرون وينتظرون ولنعد الى سالمة ومهمتها فقد طال بنا السكوت عنها • — تركناها وقد ركبت من خباء المسلمين تلتمس بوردو وحسان العجوز في ركابها فلما بعدا عن الخباء واطلا على بوردو التفتت سالمة الى حسان وقالت « هل كان يخطر لك ياحسان ان نتوفق الى مثل الامير عبد الرحمن بعد طول انتظارنا عملاً بالوصية ؟ »

فقال « لا والله يا مولاتي — وقد اذكرتني الوصية فهل أنت محتفظة بتلك المحفظة فقد رأيتها بين يديك وكان عهدي انك تحفظينها في مكان لا يراها فيه أحد ••• »

قالت « صدقت يا عماه انها كانت في يدي في اثناء خروجنا في الاسر لاني كنت اخرجتها من مخبئها ساعة يئست من الحياة وحسبت هؤلاء العرب يقتلونني فهممت قبل ان تفيض روحي ان اختم هذه الوصية اليّ واتنسم ريح صاحبها منها ثم اعيدها اليك او الى سواك ان يوصلها الى صاحب هذا الجند— اما الآن فكن في راحة لاني تأبطتها تحت اثوابي ••• وما ظنك في مريم وهي وحدها في خباء العرب ؟ •»

قال « لا باس عليها يا مولاتي والعرب كثيرو العناية في نزلائهم وخصوصاً من كان منهم في ضيافة الامير الكبير • وقد لحظتُ من اهل ذلك الخباء احتفاء كثيراً بمريم فالنساء احببنها واحتفلن بها وخصوصاً ميمونة فقد سمعتُ من الخصيان الصقالبة الذين يخدمونهن انها تعشقت مريم وبذلت كل ما في وسعها لراحتها •• » وكان حسان يتكلم وهو يعدو عدواً خفيفاً بجانب ركاب سالمة وهي تسمع كلامه ممتزجاً بشخير الفرس وطقطقة حوافره فلما قال ذلك امسكت بلجام الفرس ليسير بها الهوينا والتفتت الى حسان وقالت « لا اخفي

عنك يا حسان اني اخاف على مريم من هذه المراة اكثر من سائر اهل هذا الجند نساء ورجالاً ...»

فبغت الرجل وكان يتكلم وهو يتفرس في الارض ليتقي الحجارة والاشواك فلما سمع قولها رفع بصره اليها وقال «وما هو سبب خوفك يا مولاتي»

قالت لاني شاهدتُ هذه التي تسمي نفسها ميمونة فاذا هي داهية دهياء واظنني عرفتها واخاف ان تكون قد عرفتني ولذلك فحالما تقابلنا لم اطل الكلام معها ولا اشك ان بقاءها في هذا المعسكر خطرٌ فحالما افرغ من مهمتي هذه في بوردو وما وراءها ساعود الى الامير واطلعه على حقيقة هذه المراة لئلا تخدعهم وتفضح شؤونهم لانها ذات شان عند الافرنج ويهمها ان يكون النصر لهؤلاء واستغرب ان تكون في خباء الامير عبد الرحمن وعهدي بها في غير هذه البلاد .. وسترى في شأنها عند رجوعنا ..»

فلما سمع حسان قولها مال بكليته الى استطلاع الحقيقة ولكنه لم يجرأ على السؤال عن اسمها فقال «وهل اعرفها انا»

قالت «لا شك في ذلك .. دعنا من هذا الآن»

فسكت حسان وكانا قد اشرفا على اسوار بوردو فرايا الناس خارج السور زرافات ووحداناً وقد خرجوا لافتداء اسراهم وكلهم فرحون بما اوتوه من الرفق واكثر الناس غيظاً من ذلك الرفق اليهود وخصوصاً الذين كانوا قد ابتاعوا الاسرى وهموا بحملهم للاتجار بهم فلما جاءهم امر الامير بالتخلي عنهم غضبوا واستغربوا ذلك وارادوا الامتناع من التسليم ثم اذعنوا — فلما رات ميمونة تزاحم الناس هناك تحولت الى باب من ابواب المدينة بعيد عن ذلك الازدحام وسارت تواً الى اسقف بوردو فترجلت بباب القلاية وتركت حساناً عند الفرس ودخلت تلتمس الاسقف فرأت اهل ذلك المكان من القسوس والرهبان وغيرهم في حركة وقد تجلت في وجوههم امارات السرور لما جاءهم به هانئ في مساء الامس من آنية الكنيسة مع الامر بافتداء الاسرى . وكان اكثر القسوس يعرفونها فرحبوا بها وبشروها بما كان فهنأتهم وطلبت اليهم ان يستأذنوا لها الاسقف بمقابلة خصوصية فالتمسوا لها الاذن فلما دخلت عليه تلقاها بترحاب واحترام مع انه لم يكن يعرف حقيقة امرها ولكنه كان يحترمها لتعقلها وسداد رايها

فلما دخلت قبلت يده فباركها وجلست الى جانبه فاستخبرها فقصت عليه مختصر ما جرى لها حتى انتهت الى امر الاسرى فاكدت له ان العرب اكثر الامم رفقاً برعاياهم

واسرائم وانهم انما امتد سلطانهم في الشرق والغرب لما آنسه اهل البلاد على اختلاف نحلهم من حرية الدين والعمل على غير المألوف عند امم الافرنج في ذلك العصر . وان ما اصاب كنيسة بوردو من النهب انما وقع سهوًا من بعض ذوي المطامع من توابع جند المسلمين غير العرب.

فلما سمع الاسقف كلامها تذكر انه كثيرًا ما كان يسمع منها اطراء العرب من قبل ولم يكن يصدق حتى سمع وكان يظنها تقول ذلك عن هوس مثل هوسها بتعليم ابنتها اللسان العربي وهي مقيمة ببلاد الافرنج مع كونها غير عربية — فلما سمع اقوالها بعد ماشاهده من الرفق اعتقد صدقها فجاراها في الاطراء فاغتنمت تلك الفرصة وتقدمت الى الحديث المقصود فقالت « لا انسى ياسيادة الاسقف ما كنت ألقاه من نفورك اذا امتدحت العرب بين يديك حتى شاهدتَ ذلك بنفسك عن بعد ولو اتيح لك معاملتهم ومعاشرتهم لزدت ارتياحاً لهم ولذلك فاني استغرب محاربة اهل هذه البلاد لهم والوقوف في سبيلهم »

فقال الاسقف « صدقتِ يا ابنتي اننا كثيرًا ما سمعنا بعدلهم غير اننا رأينا من بعضهم ما تشيب لهوله الاطفال من القسوة حتى كاد يثبت عندنا ما كنا نسمعه من انهم يعبدون الاوثان ولا يعرفون عبادة الله . . . »(1)

الفصل السادس والثلاثون

رأي الافرنج في المسلمين

فابتسمت سالمة ابتسام الاستغراب وقالت « يعبدون الاوثان ؟ . . ان ذلك من الاراجيف التي يشيعها اعداؤهم فانهم يعبدون الاله الواحد ويحترمون الديانة النصرانية احتراماً كبيرًا و يكرمون السيد المسيح كثيرًا . ولا يعقل ان تنسب اليهم الوثنية ونبيهم انما قام لابادة الاصنام التي كان العرب قبله يعبدونها فكسرها ومحا الصور التي كانت في معبد الوثنية في مكة وبغض الوثنية الى اتباعه حتى حرّم عليهم التصوير ونحت التماثيل . فما يبلغكم من هذا القبيل انما هو حديث موضوع لغرض من الاغراض — لا انكر عليك ماقد يبديه بعضهم من سوء التصرّف او الطمع او نحو ذلك فهذا لا يصح القياس عليه كما لا يصح

(1) رينو

ان نقيس كل اعمال الاساقفة بعمل واحد منهم شذّ عن المنهج القويم · وزد على ذلك ان العرب مهما يكن من امرهم فهم ارفق باهل هذه البلاد من هؤلاء الافرنج الذين جاؤُا بقبائلهم واستبدوا فيهم واستعبدوا الناس واستخدموهم في اشق الاعمال ولم يقلدوا واحدًا من اهل البلاد وظيفة من وظائفها · فهم القابضون على ازمة الحكومة وهم المستدرون لخيرات البلاد وما الغاليون الاَّ مثل العبيد او الاقنان الذين يشتغلون في الحقول — هل رأيت غاليًا تقلد منصبًا كبيرًا اوهل رأى الغاليون راحة منذ وطئ هؤلاء الافرنج بلادهم ؟ — اما العرب فاذا فتحوا بلدًا اطلقوا حرية الاديان والمذاهب والمعاملات حتى الحكومة والقضاء فانهم يتركونهما لاهله و يقتصرون هم على قيادة الجند وحماية الاهالي من الاعداء لا يلتمسون اجرًا على ذلك الاَّ مالاً يسمونه الجزية لا يساوي بعض ما يقتضيه اولئك الافرنج من الضرائب الفادحة · ناهيك بالحرّية التي يتمتع بها الاهلون تحت عنايتهم · وسيادتكم تعلمون حال اهل هذه البلاد مع الافرنج الفاتحين فانها اصعب مما كانت تحت سلطان الرومان قبلهم — أليس معظم الناس هنا عبيدًا لحكامهم يتصرّفون فيهم تصرُّف المالك بعقاره ؟ نعم ان العرب عندهم العبيد والموالي ولكنهم ارفق حالاً بهم من اولئك · فان الرقّ عند المسلمين غير مستحسن وكأن الاسلام قام يدعو الى ابطاله(١) ولو لم يرَ نصارى الشرق والغرب ما رأوهُ من الرفق والعدل تحت ظل المسلمين مافضلوهم على الروم والفرس — وقد اطلتُ عليك الشرح وانما غرضي ان نسعى في حجب الدماء فهل تساعدني على ذلك ؟ ان المسلمين فاتحون هذه البلاد لا محالة فبدلاً من ان يفتحوها عنوة و يسفكوا فيها الدماء ويهدموا المنازل والقصور فليكن فتحها صلحًا و يسلم لكل واحد ماله وعرضه ··· والسعي في هذا السبيل من واجبات سيادتكم اكثر مما هو من واجبات امثالي ·· »
وكانت سالمة تتكلم وامارات الجد والاهتمام ظاهرة في كل كلمة وكل حركة

وكان الاسقف يسمع اقوالها و يعجب بسعة علمها عن العرب كأنها عاشرتهم وساكنتهم زمنًا طويلاً وكأنها اطلعت على علومهم وآدابهم ومع كل مافي اقوالها من المخالفة للاعتقاد الذي كان متسلطًا على عقول اهل تلك البلاد يومئذٍ فانه احسّ بالاقتناع بقولها ونبه ضميره الى واجب عليه يقضي بالسعي في حجب الدماء على نحو ما سمعه من سالمة فقال لها « جزاكِ الله خيرًا يا ابنتي على سعيك في مصلحة شعب الله ونطلب اليه تعالى ونتضرَّع الى السيد

---

(١) تبرئة الاسلام

المسيح أن يقدم مافيه الخير ..»

فلما آنست منه اقتناعاً عمدت الى اتمام الغرض بلباقة وحسن سياسة فقالت « لا اريد من سيادة الاسقف ان يكلف اخوتنا المسيحيين تسليم البلاد الى هؤلاء المسلمين عفواً ولا ان يساعدوهم على اخذها بالسيف وانما أرى ان يتركوا الامر لمن غلب بغير ان يساعدوا احد الفريقين على الآخر . فاذا غلب الافرنج فهم اصحاب السيادة والبلاد في ايديهم واذا غلب العرب فلا يضرنا غلبهم بل هم خير لنا من اولئك »

فارتاح الاسقف الى قولها وكان روماني الاصل ورأى من الافرنج استبداداً في دائرة نفوذه حتى كادت السلطة تخرج من يده فقال لها « اود ان يعلم اخوتي الاساقفة بهذه النصيحة في البلاد الاخرى ولكنني اخاف ان يطلع الحكام الافرنج على ذلك فيعود الامر و بالاً علينا »

قالت « عليّ ابلاغ ذلك الى من شئت وانما اطلب منك كتاباً تصحبني به الى اسقف بواتيه لا تذكر فيه شيئاً غير التعريف البسيط واني من ابنائك المخلصين فاذا انا لقيت الاسقف اطلعته على ما اراه من هذا الموضوع . واتقدم الى مولاي ان يبث هذه الروح في رجال بطانته على ما يراه ولا اظن واحداً من اهل بوردو لا يشهد هذه الشهادة في العرب وقد اعادوا اليهم اسراهم وآنية كنيستهم »

قال الاسقف « صدقت يا ابنتي لا يجوز لنا انكار هذا الجميل .. »

قالت فاتقدم اليك اذا لقيت حاكم البلد ان تبث هذه الروح فيه اذ ربما طلب اليه الكونت اود نجدة لمساعدته في قطع الطريق على العرب لاني علمت ان الكونت المذكور معسكر في مضيق دردون . وعلى كل حال فقد تركت تدبير هذا الامر اليك واني مسافرة الى بواتيه في هذه الساعة فهل تأذن لي في كتاب الى اسقفها ؟ »

قال « نعم » ونهض فكتب على منديل من حرير سطرين للغرض المقصود فتناولت الكتاب وقبلت يده فباركها . وقبل خروجها تذكرت المسافة بين بوردو و بواتيه وهي نحو مئة ميل لا يستطاع اجتيازها في اقل من ثلاثة ايام او اربعة وحسان لا يقدر على المسير في ركابها ماشياً كل هذه المسافة فطلبت الى الاسقف ان يأمر لها بفرس يركب عليه حسان فامر لها فخرجت شاكرة واهل القلاية يتباحثون في ماذا عسى ان يكون من امر هذه المرأة وتجيئها على تلك الصورة . اما هي فانها خرجت فرأت حساناً والفرسين في انتظارها خارجاً فركبت وركب حسان وخرجا من بوردو يلتمسان بواتيه

الفصل السابع والثلاثون

الدير

وكان حسان يعرف غير طريق يؤدي الى بواتيه فسار في أسهل الطرق بحيث لا يكون عليهما بأسٌ في أثنائه فدبر ان يصلا في كل مساء الى دير ينزلان فيه ويبيتان ثم ينهضان في الصباح التالي • فمشيا بقية ذلك اليوم وقلما تكلمت سالمة لاشتغال خاطرها بالمهمة التي هي ذاهبة فيها • فلما أمسى المساء أشرفا على دير لا يعدُّ من الاديار الكبرى • فتحولا اليه وهو قائم على سفح جبل فوق نهر تجري مياهه معظم السنة وحول الدير مغارس الكرم والزيتون وأشجار الليمون والتفاح وغيرها • وهو كسائر الاديار في تلك الايام عبارة عن بناء محاط بسور عال له باب واحد صغير داخله باب آخر وبجانب الدير بناء صغير للدواب ونحوها • فلما اشرفا على الباب تقدم حسان وقرعه بجرس معلق فوقه • فاطل اليه راهب من كوة فوق الباب سأله عن غرضه فقال له « نحن غرباء ونبغي المبيت عندكم فهل من مكان » قال حسان ذلك بلغة أهل البلاد ولكن ظهر من خلالها انه غريب عنها ففتحوا لهما فدخلت سالمة وتركت حساناً لينظر في أمر الفرسين ثم يدخل في جملة خدمة الدير • فلما راها الراهب البواب توسم في منظرها وفي زيها هيأة الجلال والوقار فأسرع الى الرئيس فأخبره بذلك فأمره ان يدخلها اليه • فعاد وهو يقول « تفضلي الى حضرة الرئيس وهو يأمر بغرفة تقيمين فيها ما شئت »

فمشت سالمة في صحن الدير فرأته مزدحماً بالناس من الرجال والنساء والاطفال واكثرهم من أهل بوردو وجوارها فادركت انهم لجأوا الى الدير خوفاً من العرب فظلت ماشية حتى أقبلت على غرفة الرئيس • فلما دخلت وقف لاستقبالها ورحب بها وأمر لها بالطعام وسألها عن مصيرها في ذلك الطريق • فقالت انها قادمة من بوردو وسائرة الى بواتيه

فلما علم انها قادمة من بوردو قال « العلك في جملة الذين فروا في أثناء الحرب على أثر نهب الكنيسة والفتك في الاسرى »

قالت « لقد أخطأ الذين فروا لان نهب الكنيسة انما كان تعدياً من بعض المسلمين المرافقين لجند العرب • ولما علم الامير بذلك امر باعادة الآنية الى مكانها ورد الاسرى

الى أهلهم بالفدية القليلة واتخذوا مع اهل بوردو كل وسائل الرفق .. »

فلما سمع الرئيس قولها بدا الاستغراب في وجهه وقال « وهل يعرفون الرفق وما الذي يدعوهم اليه او يردعهم عن الفتك والقتل ولا دين عندهم ولا ذمام »

فقالت وهي تبتسم « هل رأيت أحداً منهم يا مولاي »

قال « كلاّ ولكنني سمعت ذلك من كثيرين »

وأرادت سالمة ان تدفع تلك التهمة بالبرهان فسمعت ضوضاء وصياحاً في باحة الدير فوقف الرئيس بغتة وصفق لجاءه بعض الرهبان يعدو فصاح فيه الرئيس « ما هـذه الضوضاء .. »

قال الراهب وهو يضحك والبغتة ظاهرة في وجهه « هذا داتوس يا سيدي »

قال الرئيس « داتوس ؟ وما الذي فعله فقد عهدناه معتزلاً لا يخاطب أحداً ولا يقدم على الطعام الا كرهاً »

قال « ذلك هو عهدنا به ايضاً ولكننا نراه قد أصيب بجنون موقت فهجم على خادم الامرة (وأشار الى سالمة) وأوسعه ضرباً وصفعاً وهو يصيح يا أماه يا أماه حتى كاد يقتله لو لم نتدارك الامر ونمسكهُ عنهُ »

فلما سمعت سالمة ذكر خادمها قالت « وأين هو حسان وما الذي جرى له هل عليه من بأس ؟ »

قال الراهب « هو في خير وسلامة ولكننا لم نستطع ايقاف داتوس عن الهجوم عليه فبعد أن أرجعناه عنه هجم عليهِ ثانية بهراوة كانت بيدهِ ولما أمسكناه عنه بالعنف رمى الهراوة على حسان وسقط هو على الارض وقد اغمي عليه من شدة الغيظ . وقد تركته وهو يختلج ويرتعد ولا يزال يذكر أمهُ .. »

فنهض الرئيس وهو يهزُّ رأسهُ كأنهُ يستعيذ من شرّ يخافه . وتبعته سالمة وقد استغربت ما سمعته عن ذلك الشاب وتبادر الى ذهنها انه مصاب بخبل في عقله وبعد هنيهة أُشرف الرئيس وسالمة على مكان الحادثة وكانوا قد ادخلوا حساناً الى حجرته ليغسلوا جراحه فوقع نظرها على شاب في عنفوان الشباب مطروح على الارض وقد تطايرت قبعتهُ واشتبك شعره وكان جميل الصورة كبير العينين شديد بياض الوجه أشقر الشعر . وكان قد فتح عينيه وتحفز للوقوف كانه أفاق من سكرة وجعل يلتفت يميناً وشمالاً تحسبه يبحث عن ضائع . فاشار الرئيس الى بعض الرهبان ان يخبئوا حساناً في مكان لايراه فيـه

داتوس وأمسك بيد الشاب وخاطبه بلطف وباركه ودعا له وأشار اليه ان يمضي الى غرفته فمضى وهو لا يزال يلتفت ولكنه أمسك عن الكلام بالكلية

الفصل الثامن والثلاثون

داتوس

فلما رأت سالمة ذلك الشاب ترجح عندها انهُ أصابهُ جنون او سكنه شيطان على تعبيرهم في ذلك العهد لكنها احبت ان تحقق ظنها فلما عاد الرئيس عادت هي معهُ وتوسمت في وجهه تغيراً زادها رغبة في الاستفهام والسادها البحث عن حسان. على انها لم تكد تبدأه بالسؤال حتى سمعته يخاطبها بصوت منخفض قائلاً « الا تزالين تجادلينني في أولئك العرب وتزعمين انهم أهل ديانة ورفق ...؟ »

فاستغربت سالمة قوله هذا اكثر من استغرابها عمل داتوس وقالت « لم أفهم يا أبتي علاقة هذا الحادث بالمسلمين او العرب بل أرى هذا الافرنجي قد تعدّى على خادمي لانه عربي حتى كاد يقتلهُ ... »

وكانا قد دخلا الغرفة فاغلق الرئيس بابها وأومأ الى سالمة فجلست على وسادة فوق طنفسة وجلس هو على وسادة أخرى بالقرب منها وقال « لو عرفت قصة هذا الشاب وسبب ما ظهر من هياجه وتعديه لتحققت صدق قولي في العرب وأقلعت عن اعتقادك فيهم الخير .. »

فتطاولت سالمة بعنقها وأصاخت بسمعها ولسان حالها يقول « ما هي قصة هذا الشاب يا ترى ؟ »

فقال الرئيس « اعلمي يا ابنتي ان هذا الشاب من جملة الافرنج الذين تجندوا لمحاربة أولئك العرب حالما بلغهم اقدامهم على فتح هذه البلاد. وكانت له والدة لا يعرف من الاهل سواها ولا هي ترجو سواه فتركها في بيتها وسار الى الحرب . فاتفق في أثناء غيابه ان المسلمين جاؤا ذلك البلد ونهبوا بيت المرأة وساقوها في جملة السبايا الى قلعتهم في ذلك الجوار . فلما عاد الشاب الى بلده وأخبروه خبر أمه ساق جواده الى تلك القلعة ومعه جماعة من الرفاق فاطلّ على القلعة وكانت موصدة فاشرف عليه بعض المسلمين من فوق

السور وسأله عن غرضه فقال له اطلب والدتي فانها أسيرة عندكم . فاجابوه لا نعطيك امك الا اذا أعطيتنا الجواد الذي تركبهُ والا فانا نذبحها امام عينيك . فغضب داتوس لذلك غضباً شديداً وقال لهم لا أعطيكم جوادي فافعلوا بوالدتي ما تشاؤون . قال ذلك وهو يظنهم يخوفونه بذكر قتلها لا أنهم ينوون اعدامها فعلاً — ولكنه ما لبث ان رآهم احتزوا رأسها ورموه اليه وهم يقولون هذه والدتك فاليك هي . فلما رأى رأس والدته صعد الدم الى دماغه وغاب رشدهُ ولما اعجزه الوصول الى القاتلين لامتناعهم وراء الاسوار جعل يلطم وجهه ويصفق ويبكي ويركض فرسه يميناً وشمالاً كالمجنون ثم انفرد عن اصحابه واقام عندنا (١) وقد قصّ عليّ خبره فاعتقدت من ذلك الحين ان العرب اهل ظلم وعسف لادين عندهم ولا رحمة . وقد مضى على داتوس هنا بضعة اعوام لا يتكلم ولا يجالس احداً كانه أصيب ببله فالظاهر انهُ رأى خادمكِ وعلم من سحنته او كلامه انه عربي فهاج فيه الغضب وتذكر مصيبته فلم يتمالك عما ظهر منه .. »

وكانت سالمة تسمع ذلك الحديث وهي في استغراب شديد فلما اتى الرئيس على تمام القصة احست بضعف حجتها في الدفاع عن العرب ولكنها تجلدت وقالت « لا انكر على مولاي الرئيس حدوث نحو ذلك من بعض العرب كما قد يحدث من الافرنج وغيرهم ولكن العمدة في الامر على اغراض الجند بجملته .. »

فقطع كلامها قائلاً « وماذا عسى ان تكون اغراضهم وقد شاهدنا من اعمالهم في أثناء فتوحهم ما لم يبق معهُ حاجة الى دليل — الم ينهبوا الاديار ويأخذوا آنيتها ؟ الم يأسروا الرهبان ويختاروا اجملهم خلقة ويبيعوهم بيع الارقاء في اسبانيا .. ؟ وعهدنا بذلك لا يزال قريباً » (٢)

فسرّت سالمة لاحتجاج الرئيس بهذا الشأن فقالت « نعم ان بعض العرب نهبوا بعض الكنائس والاديار ولكن امراءهم لم يكونوا يقبلون بذلك وكثيراً ما كانوا يعيدون الآنية الى اصحابها ويطلقون سراح الاسرى وخصوصاً الرهبان لان نبيهم اوصاهم بهم خيراً — وآخر ما حدث من هذا القبيل ان بعض الملحقين بجند العرب من البرابرة ونحوهم نهبوا كنيسة بوردو فلما علم اميرهم بذلك رد المنهوبات واعتذر واوعز الى جنده ان لا يعودوا الى مثل ذلك .. فالعرب اهل رفق وعدل وفي اعتقادي انهم خيرٌ لاهل هذه البلاد من اولئك الافرنج .. اقول ذلك بين يديك على سبيل الاعتراف السري وارجو ان لا يطلع

(١) رينو (٢) رومي ج ٣ ورينو

عليه احد فاذا قضت الاحوال بتغلب العرب تحققت صدق قولي ..»

فبغت الرئيس لقولها وصاح «يغلب العرب .. ؟ معاذ الله»

فضحكت سالمة لبغتته وقالت «والنصر من عند الله يؤتيه من يشاء ..» وتحققت ان الرئيس ممن لا يرجى اقناعهم بفضل العرب فسكتت ولكنها خافت ان يكون عليها بأس بعد ما جاهرت لديه بميلها الى العرب فالحت عليه ان يستر كلامها في هذا الشأن من قبيل سر الاعتراف فوعدها بذلك وهو فاعلٌ لانهم شديدو المحافظة على ذلك السر

الفصل التاسع والثلاثون

الجـرح

وارادت سالمة بعد خروجها من عند الرئيس ان تتفقد حسانًا لكنها ظنته نام فمضت الى الغرفة التي اعدوها لها فباتت تلك الليلة ونهضت في الصباح على عزم المسير فبعثت الى حسان فقيل لها انه لايستطيع سفرًا لجرح اصابه في رأسه. فذهبت اليه بنفسها وتفحصت شأنه فرأته راقدًا وقد شد رأسه بمنديل والتعب ظاهر في وجهه. فسألته عن حاله فقال «لقد اصاب ذلك الشاب مني مقتلاً بهراوته ولولا لطف الله لذهب بحياتي فورًا ولا ادري مع ذلك سبب هذا التعدي»

ولم تكن سالمة تخفي عن حسان امرًا وهو خزانة اسرارها فقصت عليه حكاية الشاب واستطردت الى ما ترتب على ذلك الحديث بينها وبين الرئيس الى ان قالت «ولا بد لنا من الاسراع في المسير الى بواتيه ثم الى تورس قبل ان يفسد الامر علينا والمسلمون في انتظارنا على احرّ من الجمر»

فقال «لو استطعت النهوض ما امسكت عن السفر ومع ذلك اذا شئتِ المسير وحدك على ان الحق بك حالما استطيع الركوب فعلتُ»

فأطرقت سالمة واعملت فكرتها بين ان تمكث هناك بضعة ايام ريثما يشفى حسان فتفوتها الفرصة او ان تذهب وحدها وتخاف الطريق على نفسها. وبعد اعمال الفكرة مدة رأت ان تتصرف تصرفًا وسطًا فقالت لحسان «اني باقية في انتظارك هنا الى الغد فاذا شفيت واستطعت الركوب سرنا معًا والا فاني اسير وحدي» فأثنى عليها وقال «اذا جاء

الغد ظهرت عاقبة الجرح فاذا لم تصبني الحمى كان الشفاء قريباً باذن الله »

فعملت سالمة على الاهتمام بجرح حسان كانه في بدنها لانها كانت تحترمه وتكرمهُ بالنظر الى انقطاعه في خدمتها اعواماً ولانها في حاجة اليه خصوصاً في هذه السفرة. فذهبت الى الرئيس وطلبت اليه الاهتمام بجرح حسان فأطاعها لانه مشعر بظلامة ذلك الشيخ فاستدعى راهباً كان قد تفقه بالطب وكان اهل الدير يرجعون اليه في امثال هذه الحوادث واوصاه بمعالجته والعناية به . فذهب اليه ومعه سالمة فلما نزع الربائط وشاهد الجرح زمّ شفتيه وابرزهما ورفع حاجبيه وكانت سالمة تراقب ما يبدو منه فلما رأت اشمئزازهُ خفق قلبها خوفاً على حسان ولكنها لم تظهر اضطرابها فسكتت لترى ما يقوله الطبيب فاذا به التفت الى راهب آخر كان في خدمته وأومأ اليه ان يأتي بالزجاجة فذهب ثم عاد ومعه زجاجة وكاس. وكان الطبيب في اثناء ذلك قد قص الشعر عن رأس الجريح وأكثره متلبد متلاصق من الدم المتجمد عليه فاشتمت سالمة رائحة كريهة . ثم صب الطبيب من الزجاجة شيئاً كالخمر لوناً وريحة واستعان بالراهب الآخر على غسل الجرح به فوقع نظر سالمة على الجرح فاذا هو طويل عميق فازداد خوفها عليه ولكنها تجلدت لتسمع قول الطبيب على حدة

و بعد الغسل شد الطبيب الجرح باللفافة واشار الى حسان ان يستلقي و يستريح ليرى مايكون من جرحه الى الغد وتركوه نائماً وخرجوا . فلما صاروا خارجاً تقدمت سالمة الى الطبيب في ابداء رأيه فقال « لقد ابطأنا عليه بالوسائط اللازمة وكان يجب علينا ان نفعل ذلك الغسل حالما أصيب وعلى كل حال لايمكننا معرفة النتيجة الى الغد »

فاستعاذت سالمة بالله وصبرت نفسها الى الغد . فجاءتهُ في الصباح فاذا هو لا يزال نائماً فنادته فلم يجبها فجست يده فرأتها شديدة الحرارة فعلمت انه في بحران من شدة الحمى فاستدعت الراهب الطبيب فلما جاء ونظر الحالة قال « ان الرجل في البحران وهو في خطر حتى يفيق »

فقالت « ومتى يفيق ؟ »

قال « لابد من الانتظار يوماً او يومين وعلى الله الشفاء »

فارتبكت سالمة ووقعت في حيرة من امرها وخافت على حسان اذ يسوءها ان يصاب بسوء لما له من الايدي البيضاء في خدمتها فضلاً عن حاجتها اليه فقضت ذلك اليوم أيضاً وكانها على جمر الغضا هي تصلي وتتضرع الى الله ان يشفيه واحيت ليلها وهي تفكر في هل تنتظر الشفاء او تسير وحدها فرأت انها لو بقيت عند حسان لم تنفعه لان اهل

الدير اكثر عناية به منها فعزمت على السفر في الغد على اي حال بعد ان توصي الرئيس والطبيب بحسان

فلما اصبحت سارت توًّا الى حسان فرأت راهبين في خدمته وهو لا يزال غائباً عن رشده فسألتهما عن حاله فقال احدهما « أراه قد تندّى بالعرق قليلاً واظنها علامة حسنة تبشر بالخير » فذهبت الى الرئيس واخبرته عن اضطرارها للسفر العاجل واوصته بحسان فبعث الى الطبيب و بالغ في وصايته . فلما خرج الطبيب تقدمت الى الرئيس ان يرسل معها من يصحبها الى بواتيه واخرجت من جيبها دنانير دفعتها اليه باسم الدير فاجابها الرئيس الى رغبتها وأمر راهباً من رهبانه ان يرافقها الى حيث تشاء . ولما تأهبت للسير ذهبت الى حسان لتشاهده قبل ركوبها فرأته على حاله . وخرج الرئيس لوداعها بباب الدير فاعادت عليه الوصية بحسان وقالت « اذا منّ الله عليه بالشفاء فابقه عندك ريثما اعود فاني عائدة على عجل » فاجابها طائعاً وقد نزلت من نفسه منزلاً رفيعاً لهيبتها وتعقلها وكرمها . وكان خدمة الدير قد اعدوا فرسها وأعدوا لرفيقها الراهب بغلة من بغال الدير عليها خرج فيه بعض الاطعمة الناشفة زادًا لهما في الطريق . وركبا وسارا والراهب دليل الطريق . على ان البغلة لو تركت لنفسها لسارت ولم تخطىء الطريق الى بواتيه ومنها الى تورس لكثرة ما يركبونها الى تينك المدينتين لحمل لوازم الدير من الآنية او الاطعمة او نحوها . وكانت سالمة قبل خروجها من الدير قد التفت برداء اسود فوق ثوبها الاسود فاصبحت كأنها من راهبات تلك البلاد وزادها شبهاً بهنّ استصحابها ذلك الراهب وكان على رأس الراهب قبعة كالخمار تكسو كل رأسه الاّ وجههُ وقد تجمعت لحيته بين جناحي الخمار وبرزت الى الامام مع شاربيه واصبح فمهُ غائرًا

الفصل الاربعون

شبح غريب

تواريا عن الدير وقد صارت الشمس في الضحى وتوجها شمالاً في طريق بعضه مطروق وبعضه غير مطروق وكانت سالمة تستغرب ما تراه من المنازل المهجورة والكروم المتروكة وهي تعلم ان اهل القرى اذا انتشبت حرب لجأوا الى المدن يحتمون باسوارها ولكنها رأت ما يدل على المهاجرة القريبة كأن اهل تلك الحقول تركوها بالامس فقالت في نفسها لا بد

من حادث طرأ على هذه البلاد . فالتفتت الى الراهب وهو على بغلته بجانبها وقالت « مالي أرى الحقول مهجورة على هذه الصورة ؟ »

قال « لا اظنك تجهلين ما نحن فيه من الاحن بسبب هجوم العرب على بلادنا واهل القرى لا حصون تحميهم من السلب والنهب »

فقالت « ولكن العرب لا يزالون بعيدين من هذه القرى و ربما لا يستطيعون الوصول اليها فكيف يهجرها اهلها عفواً ؟ »

قال « ان خوف اهل القرى يا ابنتي ليس من جند العرب فقط بل هم يخافون جند الافرنج انفسهم لانهم اذا مرُّوا بقرية نهبوها واذلوا اهلها وخربوا منازلها وليس من يردعهم والظاهر انهم علموا بقرب مجيء ذلك الجند ففروا من وجوههم لا ادري الى اين ولعلهم لجأُوا الى الجبال البعيدة عن الطريق ريثما يمر الجند فيعودون الى حقولهم »

وكانت سالمة تسمع كلام الراهب وترى فيه ما يبشرها بنجاح مهمتها ولكنها كانت منشغلة الذهن بشبح وقع نظرها عليه عن بعدٍ وهو راكب على جواد وقد ساقه نحو الجهة التي هما سائران اليها ولما رآها الراهب تنظر الى ذلك الشبح وجَّه هو التفاته اليه فلما رأت سالمة انتباه الراهب للامر قالت له « ما ظنك بهذا الفارس .. »

قال « يظهر من قيافته انه من الافرنج ولا يمكننا الحكم القطعي في ذلك الاَّ بعد رؤْية وجهه واراه يقترب منا فاذا دنا رأَيناه وعرفناه او سأَلناه عن حاله »

وما زال الفارس يقترب منها حتى وقعت العين على العين فاذا هو ملثم لا يظهر من وجهه الاَّ العينان فحياه الراهب فلم يرد التحية ولكنه تفرس في سالمة وثوبها وفرسها وحوَّل عنان جواده وارتد راجعاً الى الوراء . فلما رأَت سالمة ذلك منه اشتغل خاطرها وحسبت لذلك الرجوع الف حساب وخافت ان يبدو ذلك للراهب فيسيء الظن بها فتجلدت وتظاهرت بعدم الاكتراث وقالت وهي تضحك « يظهر ان الرجل خاف من اثواب الرهبنة »

فقال الراهب وهو يظهر الاهتمام « لا ادري يا ابنتي ما الذي خوفه ولكنني اعلم انني خفت رجوعه على هذه الصورة كأَنه جاء للبحث عنا او عن احدنا فلما رأَى ضالته عاد لابلاغ المهمة »

ولم تكن سالمة تظن غير ذلك ولكنها ظلَّت على تجاهلها ووجهت عنايتها الى الافلات مما قد ينصبونه لها من الشراك قبل وقوعها فيه . فتظاهرت بتغيير الحديث فقالت « وهل نحن بعيدون عن بواتيه »

قال « اذا سقنا دوابنا وظللنا سائرين ربما وصلناها في صباح الغد »

فاستحسنت ذكره المسير ليلاً وقالت « وهل ترى المسير ليلاً ؟ .. يظهر انك في عجلة للرجوع الى الدير لاشغال عليك هناك — فاذا لم يكن علينا بأس من ذلك فلا مانع عندي »

فقال « لست مستعجلاً وانما ذكرت لك ذلك على سبيل تقدير المسافة وأما المسير ليلاً فلا خطر منه علينا وخصوصاً لاني أعرف أهل هذا الطريق ويعرفونني وزد على ذلك ان الليلة مقمرة فاذا شئت نزلنا عند العشاء في دير أعرفه بجانب الطريق فنتناول الطعام ونستريح وننام قليلاً ثم ننهض في نصف الليل ونركب توًّا الى بواتيه فنصلها في الضحى . واذا كان من ذلك تعبٌ عليك فافعل ما تشائين لاني انما امرت ان اكون في خدمتك الى حيثما تسيرين »

فاعجبها رأي الراهب وسرها السبيل الذي تتطرقت به الى ذلك وفي اعتقادها انها متى وصلت بواتيه كان لها من اسقفها ما يقيها غائلة الجواسيس او غيرهم وخصوصاً لانها تحمل له توصية من أسقف بوردو ومتى دخلت القلاية او الدير الذي فيه الاسقف لا يجسر أحدٌ عليها

فاظهرت انها تساير الراهب في رأيه واستحسنت ان يبيتا تلك الليلة في الدير الذي أشار اليه . فسارا وسالمة تلتفت الى ورائها خلسة وهي تتوقع ان ترى أناساً مسرعين في طلبها . أما الراهب فكان مستغرقاً في صلاة يتلوها وهو على ظهر بغلته . قضيا بقية ذلك اليوم وهما يركضان الدابتين فغابت الشمس ولم يدركا الدير المقصود وكان القمر في ربعه الثالث فصار العشاء ولم يطلع بعد فمشيا في الظلام وسالمة تسوق جوادها وراء بغلة الراهب وهي لا ترى الطريق وقد سكتا وسكنت الطبيعة ولم يكن يسمع هناك الا وقع الحوافر تارة على الحصى وطوراً على العشب وقد تعب الفرس ولم يعد يستطيع العدو وأما البغلة فظلت نشيطة والراهب يمسكها عن العدو لئلا تسبق الفرس



الفصل الحادي والاربعون

المسافة طويلة

فمضى بعض الليل وهما في ذلك وأبصارهما شاخصة الى ما يتراءى لهما من رؤوس التلال واذا هما بنور قد ظهر على مرتفع • فلما رأته سالمة ارادت ان تستفهم الراهب عنه فابتدرها قائلاً « ها أننا على مقربة من الدير ياسيدتي »

ففرحت سالمة بتلك البشارة التماساً للراحة وكادت تنسى ما كانت فيه من الاضطراب التماساً للسرعة

وصار مسيرهما صعوداً على الاكام والبغلة دليلهما في ذلك الظلام كانها تسير وبين يديها المشاعل والانوار والفرس يتبعها وسالمة ممسكة بزمام الفرس خوفاً من ان تزل قوائمه فزادها ذلك تعباً • وبعد مسير ساعة على هذه الصورة وصلا الى سفح ذلك الجبل ولا يزال النور الذي شاهداه على نحو المسافة التي كان عليها عند ما رأياه لاول مرة • وكانت سالمة تسمع في أثناء ذلك الصعود صدى حوافر فرسها فتتوهم ان فرساناً سائرين في أثرها فلم يكن يسليها في تلك الحال الا ذكر السيد المسيح ورسم اشارة الصليب • وقد اصبحت لفرط قلقها لا تجسر على الالتفات الى الوراء

وأما الراهب فكان قد عاد الى الصلاة واستغرق في الدعاء وبعد قليل رأت سالمة النور يقترب منهما فتحققت أنهما صارا على مقربة من الدير فنشطت ونسيت التعب ونادت الراهب قائلة « اصلنا في آخر رحلتنا يا حضرة الاب »

قال « وصلنا الدير يا ابنتي فاطمئني »

ثم وصلا الى سطح مستو ينتهي ببناء عال عرفت سالمة من شكله أنه دير فتحققت أنهما وصلا الى المكان المقصود • ثم رأت نفسها تقترب من ذلك البناء حتى صارت بجانب الباب وقد توارى النور الذي كانت تراه عن بعد واذا بالراهب قد ترجل ومشى نحو الدير وزمام البغلة في يده وهي لا تزال على فرسها حتى وقف الراهب بجانب باب الدير فامسك بحبل مدلى بجانبه وشده فسمعت قرع الجرس ثم أطل بواب الدير من كوته على جاري العادة • وقبل ان يسمعا نداءه صاح الراهب به باللغة اللاتينية ان « افتح سريعاً »

فكان كلامه بتلك اللغة احسن وسيلة للتعريف • ولم تمض برهة وجيزة حتى فتح البـاب وخرج منه راهب طويل القامة دقيق العضل خاطب الراهب باللاتينية واستقبله فترجلت سالمة فدخلت الى غرفة الاضياف وهو يرحب بهما ويسأل الراهب عن سبب تأخره حتى دخلا الغرفة وقد انفرد البواب عنهما ثم عاد بشمعة مضيئة مغروسة في شمعدان من خشب عليه أثر الشمع القديم فوضعه في الغرفة وعاد ثم جاءهما بطعام • فجلست سالمـة وقد أخذ التعب منها مأخذاً عظيماً ونسيت ماهي فيه من الجوع فقدم لها الراهب الطعام في قصعة وهو عبارة عن قطع من الدجاج المطبوخ فأكلت منه شيئاً ونفسها تطلب الرقاد اكثر من الطعام • فأكلت شيئاً وشربت قليلاً من الخمر مع الماء وتوسدت الفراش ولم توص الراهب بايقاظها طمعاً بالراحة اللازمـة وتغافلت عن رغبتها في السرعة اعتماداً على ما يتراءى للراهب من اغتنام الوقت

وأما الراهب فلما رآها نامت صعد الى غرفة البواب فجلس عنده قليلاً وتحادثا في شؤون كثيرة معظمها خارج عن موضوع المهمة التي يهمُّ سالمة البحث فيها • وفي آخر السهرة استفهم الراهب رفيق سالمة عن أقرب الطرق الى مدينة بواتيه

فلما أجابه الراهب علم انه كان على هدى من رأيه في خطة ذلك المسير • وذهب الى فراش اعدوه له في غرفة أخرى فنام ولم يكد يتوسد الفراش حتى أحس بالتعب وغلب عليه النعاس فاستغرق في النوم ولم ينهض الا عند الفجر فهرول الى سالمة فايقظها وذهب الى مربط البغال وأحضر الفرس والبغلة فركبا وسارا يلتمسان بواتيه

فطلعت الشمس وهما لا يزال بين الجبال لا يريان ما وراءها وسـالمة تحسب نفسها تائهة • ولولا تعويلها على معرفة الراهب بتلك الجهات لخافت الضلال عن الطريق • ووصلا عند الضحى الى رابية اطلا منها على سهل بعيد رأيا في بعض جوانبه مدينة في منتصفها قبة عالية في قمتها صليبٌ علمت سالمة انها قبة كنيسة بواتيه فانشرح صدرها ونسيت تعبها وقلقها وانبسط وجهها وقالت « أليست هذه بواتيه »

قال « نعم يا ابنتي هذه بواتيه وبعد قليل نصلها وندخلها باذن الله »

فقالت « من اين ندخلها اني أرى حولها سوراً »

قال « ندخلها من بابها الجنوبي الذي تريته وامامه تلك الشجرة الكبيرة »

الفصل الثاني والاربعون

خطر آخر

فانشرح صدر سالمة لوصولها ونجاتها من الخطر لاعتقادها انها اذا كانت في بوابيه لا خوف عليها ٠ ولكنها لم تكد تصل الباب حتى رأت جماعة على خيول بلباس الجند الافرنجي قد خرجوا من الباب وفي مقدمتهم فارس ملثم وعلى رؤوسهم الخوذ وعليهم الادراع وقد تقلدوا السيوف المستقيمة بمناطق من جلد وتحت الادراع جيب قصيرة الى الركب وقد لفوا على سوقهم لفافة من جلد وعلقوا باكتافهم جعب النبال وتلثموا بخمر من الحلق المشتبك ولم يظهر من وجوههم الا العيون والآناف والافواه وبعض اللحي ٠ فلما رأت سالمة ذلك الفارس الملثم عرفت انه جاسوس الامس فخفق قلبها لرؤيته ثم ما لبثت ان رأته قادماً نحوها والفرسان يتبعونه على عجل فازداد اضطرابها واستعاذت بالله وادنت فرسها من الراهب كأنها تحتمي به او تنوي استفهامه عن شيء وقد امتقع لونها وتحققت الخطر المحدق بها ٠ واذا بالفارس الملثم قد اومأ الى رفاقه واشار باصبعه اليها كانه يقول لهم « هذه هي فاقبضوا عليها »

فاحاطوا بها وبالراهب جميعاً فسألهم الراهب عن غرضهم فقالوا له « قد أمرنا بالقبض عليكما والمسير بكما الى حضرة الدوق اود »

فقال « وما الذي دعا الى ذلك وما نحن من اهل السياسة ولا الحرب فاني راهب وهذه امرأة ٠٠٠ أظنكم مخطئين »

قالوا « لسنا مخطئين هيابنا طائعين والا فانكما ذاهبان كرهاً »

فلما تحققت سالمة وقوع الخطر ورأت نجاتها مستحيلة من بين يدي اولئك الفرسان تجلدت وقالت « اظنكم تلتمسون القبض عليّ وليس على هذا الراهب فاطلقوه وها اني سائرة معكم الى حيث تشاؤون ولا حاجة الى التهديد والوعيد »

فتعجب الراهب من جرأتها ورباطة جأشها وحدثته نفسه ان يرفض النجاة بنفسه ويطلب البقاء معها ولكنه راى بقاءه لا ينفعها وخاف لوم رئيسه فسكت ليرى ما يكون منهم فاذا بالفارس الملثم قد خاطب كبير الفرسان همساً فاشار هذا الى الراهب بالانصراف واحاطوا بسالمة وساروا بها ولم يلتفتوا الى الوراء

اما هي فلما رأت نفسها في قبضة الافرنج ولا حيلة لها في النجاة تذكرت انها تحمل رسالة من اسقف بوردو الى اسقف بواتيه فخافت اذا فتشوها ان يعثروا على الرسالة فيقع هذا الاخير تحت طائلة الغضب فاحتالت ورمت الرسالة في مكان لا يراها فيه احد. ثم تذكرت المحفظة وفيها كل سرها فخفق قلبها خوفاً من وقوعها في ايدي اولئك الافرنج فجرها ذلك الفكر الى ابنتها وكيف تركتها في معسكر المسلمين فطرق ذهنها للحال ميمونة وما كانت تخافه من دسائسها فترجح عندها انما اصابها انما كان بايعاز ميمونة اذ ليس في اكيتانيا كلها من يعرفها او يسيء الظن بها سواها . ولكنها عادت فتذكرت انها خرجت في تلك المهمة سرًّا ولم تكاشف احداً بخروجها غير مريم — قضت سالمة ساعة في تلك الهواجس وهي سائرة على فرسها والفرسان محيطون بها وفي جملتهم ذلك الجاسوس الملثم. وكانت تسترق النظر اليه لعلها تستطيع معرفته لانها لو رأت وجهه لانكشف لها سرّ ذلك الامر ولكنه كان شديد الحرص على لثامه. على انها تفرست في ثيابه فرأت مع كونها بحسب الظاهر افرنجية فيظهر من تحت ردائه القصير ان باقي الثوب ليس افرنجياً . ورأت ما انكشف من ساقيه اسمر اللون ولون الافرنج ابيض مشرب حمرة فتحققت انه جاسوس من خدم ميمونة . فندمت لانها لم تكشف امرها للعرب لينجوا من حبائلها. واصبحت من الجهة الأخرى تخافها على المسلمين لئلا توقعهم في شراكها او تفسد امرهم فيذهب سعيها في مجاحهم ادراج الرياح. وودت لو انها تستطيع ابلاغ ذلك الى الامير عبد الرحمن فتاسفت لانها تركت حسانًا في الدير ولا تدري مع ذلك هل شفي جرحه ام اصابهُ سوءٌ بسببه . وتصورت اذا قتل المسلمون كيف يكون حال ابنتها ووحدتها فتراكمت عليها الهواجس وعظم الامر عليها وغلبها اليأس فلم تتمالك عن البكاء خلسة . فلما بكت خف بعض ما بها ولكن الامر ما برح عظيماً عليها

وما زالوا سائرين بضع ساعات وسالمة تتهيب من مقابلة الكونت اود لئلا يعرفها فيكبر جرمها عنده ويكون ذلك خاتمة المصائب. فلما كثرت مشاغلها وهواجسها اخذ الامر يهون عليها وهو لم يهن حقيقة ولكن الانسان اذا وقع في مصيبة استعظمها وكاد ينوء تحت ثقلها فاذا تراكمت عليه المصائب ساعده اليأس على احتمالها. فكم من ارملة كان الناس يحسبونها تموت ساعة موت زوجها فلما مات لم تمت ولكنها اعظمت المصيبة فعزاها الناس ببقاء انجالها ثم اصيبت بواحد منهم ثم بآخر فآخر ففرغت حيل الناس في تعزيتها ولكنهم رأوا انفسهم في غنى عن ذلك بما استولى على تلك الارملة الثاكلة من اليأس كأن القلب يتدمل من توالي الاحزان او انه يعتاد المصائب حتى تحف بها . وهكذا شأن من تحيط به

المشاكل تراه عند وقوعه في المشكل الاول اكثر ارتباكاً وخوفاً مما يصير اليه حاله عند تعددها — فكانت سالمة كلما تعددت مشاكلها هوّنت على نفسها

الفصل الثالث والاربعون

الدوق اود

وفي اصيل ذلك اليوم اشرفوا على كرم وراءه سهل واسع رات في منتصفه قصراً كبيراً حوله الخيام وبينها الناس يمجون مجيجاً وفوق القصر علم عَلِمت حالاً انه للدوق اود فتحققت انها وصلت الى المكان المقصود وان القصر المذكور لبعض اغنياء البلاد هجره اهله في جملة ما هجروه فنزل فيه اود واقام رجاله في الخيام حوله

وما زال الفرسان سائرين بها حتى وصلوا الى باب القصر فترجلوا وترجلت فسلموها الى الحرس الواقف بالباب فدخلوا بها الى القصر وهي ملتفة بثوبها الاسود ومقنعة بخمارها الاسود . فمشت بقدم ثابتة بين الحرس حتى تجاوزت باحة البيت الى قاعة وقف الحرس ببابها ودخل احدهم ثم عاد واشار الى سالمة ان تدخل

فدخلت الى قاعة يظهر من سعتها وما على جدرانها من الرسوم الجميلة ان اصحاب ذلك البيت من اهل اليسار ولم تر في ارض القاعة طنافس ولا مقاعد غير ما كان يحمله الجند في سفره . وشاهدت على كرسي في وسط القاعة رجلاً نحيف البدن ممتقع اللون اشقر الشعر اشيبه ازرق العينين جاحظهما غائر الفم بارز اللحية منخسف الخدين بارز الوجنتين وعلى رأسه قبعة عثابية اللون مزركشة بالذهب وفي مقدمها فوق جبينه حلية مرصعة بالالماس والياقوت بشكل الصليب وعلى كتفيه بردة مزركشة بالقصب سماوية اللون تغطي اثوابه . وتحت البردة جبة قصيرة من القطيفة حولها منطقة عريضة منسوجة بالذهب على اشكال بعض الطير . وحول ساقيه لفافة من جلد ملون له اهداب من الفرو ونعاله مشدودة الى قدميه بسيور من نسيج الشعر المتين وقد جلس على كرسي ذي جناحين اسند زنديه اليهما . وقد ظهر من تحت البردة سلسلة ذهبية مدلاة من عنقه وفيها صليب من الذهب . فعلمت سالمة انه الدوق اود لانها كانت تعرفه جيداً وتعرف بعض الذين بين يديه من امراء مجلسه

وكان اود قبل دخول سالمة قد تناول من بعض جلسائه قدحاً فيه خمر وهمّ بشربه فلما

امر بادخالها وضع القدح على المائدة امامهُ بين الاقداح الاخرى ومسح يده بلحيته ثم جعل يسرحها باناملهِ · فدخلت سالمة وهو على تلك الحالة فحالما وقع نظره عليها ظهرت البغتة في عينيه ولولا اصفرار وجهه الطبيعي لبدت ايضاً في امتقاع لونهِ ولم تكن سالمة اقل تأثراً منه ولكنها كانت قد تجلدت وذهبت بغتتها · فوقفت بين يديه وخرج الحرس ثم اومأ أود الى اهل مجلسه فخرجوا جميعاً وبقي هو وسالمة

فلما رأت سالمة نفسها وحدها زادت تهيباً فاذا هو قد اشار اليها ان تجلس فجلست على كرسي بين يديه جلوس متحفز للنهوض · فخاطبها اود بالافرنجية قائلاً « الهذا الحد بلغ منك الغيظ ؟ »

فأجابت وهي تتجاهل « واي غيظ يا مولاي ؟ »

قال « اتظنين اني نسيتك يا أجيلا ؟ »

فلما سمعت سالمة لفظ « اجيلا » ارتعدت فرائصها لانها لم تسمع احداً يناديها بهذا الاسم من زمن مديد ولكنها تجلدت وقالت « اظن مولاي واهماً في شأني ولعله يريد امرأة غيري »

قال وهو يضحك « اظنني واهماً ... ! اذا كانت عيناي واهمة فهل تظنين قلبي واهماً ايضاً ؟ هل انسى اجيلا وقد جرحت قلبي واساءت الى سلطاني ولكنها اساءت الى نفسها ... ألم يكن من التعقل والحكمة ان تقلعي عن ذلك الجنون ؟ .. أليس من العار عليك وانت مسيحية مولودة في بيت من اكبر بيوت المسيحيين ان تنصري قوماً غرباء لا دين لهم ولا ذمام وتساعديهم على اهل ديانتك .. »

قالت وهي لاتزال مطرقة « لم افهم يا مولاي مغزى كلامك كأنك تخاطب امرأة غيري فان الاسم الذي ناديتني به ليس هو اسمي وانما انا اسمّى سالمة ... »

فاغرق اود في الضحك حتى سمع قهقهتهُ كل من في القصر ومدَّ يده الى المائدة فتناول قدحهُ وشربهُ وهو ينظر الى سالمة وهي لاتزال مطرقة · ثم ارجع القدح فارغاً ومسح فمه بيده وهو يقول « ما لنا وللانكار والاثبات فاخبريني ياسالمة (كما تسمين نفسك) ما الذي جئتِ من اجله الى هذه المدينة وما الذي فعلته عند اسقف بوردو ؟ »

فادركت سالمة انه مطلع على شيء من امرها فقالت « وما الغرابة في زيارة امرأة مسيحية لاسقف كنيستها ؟ »

قال « لاغرابة في الزيارة ولكنني أسألك عما دار بينكما وعما حملك على الذهاب اليه

قالت « لا يخلو ان يكون قد دار بيني وبينه حديث طويل بشؤون سرية لا تهم احد لان جماعة الاكليروس خزانة اسرارنا »

قال « لا أسألك عن اعترافك اليه مما يتعلق بشؤونك . ولكنني اسألك عما دار بينك وبينه بشأن الافرنج والعرب والحرب والسلم »

الفصل الرابع والاربعون

التهديد

فلما سمعت تصريحه لم يبق عندها شك في اطلاعه على سرها فايقنت بالوقوع وتحقق يأسها من النجاة فساعدها اليأس على الجرأة فقالت « يظهر انك عالم بما دار بيني وبينه فلا حاجة الى سؤالي »

قال وهو يظهر الغضب « اهكذا تجاوبين الدوق اود ؟ .. ابمثل هذه الجرأة تخاطبين دوق اكيتانيا ؟ .. »

فظلت سالمة ساكتة ولكنها ابتسمت ابتسامة فهم اود منها ما هو اصرح من الجواب فابتسم وكأنه ندم على ذلك التهديد فقال « تلك ايام مضت وقد اردنا ارجاعك الى مثلها فابيت ... فاسأت الى نفسك والى ابنتك ولا ذنب لها وانما الذنب ذنبك .. ولكنك اردت ان تهوى هي الذين تهوينهم انت وان تتبع ديانتها وكنيستها جزافاً وان يكون نصيبها من اولئك المسلمين .. بالحقيقة اني لم افهم سر هذا العناد فيك ... »

فايقنت سالمة ان اود مطلع كل شيء كانه كان معها في خيمة عبد الرحمن لما القت اليه سرها . واستغربت اطلاعه على تلك الاسرار ولم تجد لها خيراً من السكوت او الانكار فقالت « اراك لا تزال تخاطبني بالالغاز والاشارات والتلميح والتعريض فالذي تريد ان تعتقده فيَّ اعتقده وما تريد ان تفعله افعله .. »

قال « الذي اريد ان افعله يا اجيلا سترينه رأي العين . ولو اظهرت هذه الوقاحة في مجلسي وبين ارباب حكومتي لما استطعت الاغضاء عن قتلك ولكنني اسامحك الآن اكراماً للحب القديم . اما الآن فقد تحوّل ذلك الحب الى الغضب والانتقام ويكفيني انتقاماً منك ان اريك حبوط مسعاك — فمتى رأيتِ الارض مضرجة بدماء اولئك العرب والبرابرة كنتِ مخيرة ان تموتي حسرة او ان تقتلك بالسلاح الذي تختارينه »

قال ذلك ولحيته ترقص على صدره وعيناه قدكللهما الاحمرار من شدة الحنق مع الكظم — لان الانسان اذا غضب ولم يشف غضبه بالضرب أو نحوه تعاظم تأثيره وقد يحاول اخفاء عواطفه بالكظم ولكن العينين تبيحان بسر القلب على حد قول الشاعر

عيناك قد دلتا عينيَّ منك على أشياء لولاهما ما كنت رائيها
والعين تعلم من عيني محدثها ان كان من حزبها اومن أعاديها

فلما رأت سالمة غضب اود وتصريحه بما في قلبه من الغيظ مع علمها انه فاعل معها ما يريده لانها أسيرة في يديه رأت السكوت اولى لعلمها ان ما توهمه اود في نفسه من الاقتدار على العرب محال وقد غلبوه في عدة مواقع

فلما رآها أود لا تزال ساكتة ازداد هو حنقاً فقال لها « أراك لا تزالين صامتة .. »

فقالت وهي تظهر التجلد وعدم الاكتراث « وماذا عسى ان يكون جوابي لامير حوله الجند والاعوان والعدة والسلاح يهدد امرأة وحيدة لا نصير لها ولا سلاح في يدها فالذي ترى ان تفعله ايها الدوق أفعله ... »

وهمَّ أود ان يخاطبها فسمع قرع الباب قرعاً عنيفاً فاستغرب ذلك لعلمه ان اعوانه لا يجسر أحدٌ منهم على اقلاق راحته في مثل تلك الحال فنهض بنفسه مسرعاً الى الباب وطيلسانهُ يجرُّ وراءه وقد حمي غضبه ففتح الباب فاستقبله احد رجال خاصته فصاح أود قائلاً « ما الذي حملكم على هذا القرع العنيف وانتم تعلمون انني في شاغل هنا »

فقال « العفو يا مولاي اننا فعلنا ذلك باشارة هذا الرسول فانه قادم من سفر ومعه رسالة مستعجلة في غاية الاهمية اوصاه مرسلها ان يسلمها الى حضرة الدوق حال وصوله الى معسكره واذا كان نائماً فليوقظه من نومه .. »

فبغت أود وقال « اين الرسول دعهُ يدخل »

الفصل الخامس والاربعون

الكتاب

فدخل رجل عليه لباس الافرنج ولكن وجهه يدل على أنه من برابرة أفريقية فلما شاهدته سالمة عرفت أنه من جند المسلمين وقد جاء متنكراً • اما هو فحالما دخل مدّ يده الى جيبه واستخرج منه لفافة دفعها الى أود فتناولها وتراجع الى كرسيه فجلس عليه وفض اللفافة واذا فيها منديل عليه كتابة فاخذ في قراءتها حتى اتى على آخرها ثم عاود قراءتها ثانية والبغتة ظاهرة في وجهه

وكانت سالمة تتغافل عن ملاحظة حركات أود وتسترق النظر الى الرسول فاذا هو أيضاً يسترق النظر اليها وكأنه عرفها وأما هي فعرفت أنه من رجال البربر • ثم ما لبثت ان رأت في عينه حولاً شديداً فتذكرت أنها رأته في معسكر عبد الرحمن فادركت مصدر تلك الرسالة وودت لو يتاح لها التخلص من ذلك الاسر لعلها تستطيع القيام بخدمة للعرب

أما الدوق أود فبعد ان فرغ من تلاوة الكتاب ثانية تظاهر بالاطراق واعمال الفكرة وهو ينظر خلسة الى سالمة يراعي حركاتها وما قد يبدو في وجهها فرآها تبالغ في التجاهل وأحبّ ان يعود الى البحث في شأنها لكنه رأى في ذلك الكتاب ما يدعو الى سرعة العمل به فأومأ الى الرسول فخرج ثم صفق فدخل اليه بعض غلمانه وبيده حربة ووقف متأدباً • فاشار اليه اود ان يأخذ سالمة الى غرفة منفردة من غرف القصر يحبسها فيها ثم التفت اليها قائلاً « اذا كنت لا تزالين على تنكرك وتجاهلك فاذهبي الى حيث يقودك هذا الحارس وسنرى في شأنك »

فنهضت سالمة ومشت ولم تبد جواباً • فسار بها الحارس حتى خرج من باحة القصر الى دهليز استطرق منه الى باب ادخلها فيه الى غرفة ليس فيها الا حصير وطنفسة ولها نافذة تطل على معسكر الافرنج • فتركها الحارس هناك واغلق الباب عليها فظلت هي واقفة تنظر الى ما تطل عليه النافذة من الخيام المنصوبة وبينها الرجال في ذهاب واياب لقضاء حوائجهم • حتى اذا تعبت من الوقوف جلست على الطنفسة وقد عظم عليها ذلك السجن مع ما يترتب عليه من عرقلة مساعيها وودت لو انها تطلع على نص تلك الرسالة لتعلم ما دبروه

لها او لجند العرب ولكنها قالت في نفسها « اذا لم يكن من سبيل الى خروجي من هذا المعسكر فما الفائدة من الاطلاع »

فظلت على تلك الحال الى الغروب وهي لم تذق طعـاماً وكانت لفرط هواجسها لا تشعر بمرور الوقت • فلما غابت الشمس اسودت الدنيا في عينيها وتذكرت ابنتها وميمونة وعبد الرحمن فانتبهت لتلك المحفظة فتعهدتها فاذا هي لا تزال محفوظة تحت اثوابها لكنها اصبحت لا ترى فائدة منها وهي في تلك الحال بعيدة عن كل نصير وخصوصاً خادمها وقد تركته بين حي وميت • فغلب على ظنها انه لم ينج من تلك الحمى لانها أصبحت بعد وقوعها في ذلك الشراك لا تتوقع غير توالي النحوس — والانسان اذا اصابتـه نائبة الصرف ذهنه الى استهدافه لسواها واذا صادف توفيقاً في عمل خيل له ان الاقدار ابرمت معه عهداً ان لا تأتيه بغير ما يرضاه

فاشتغلت سالمة بتلك الهواجس عما في ذلك القصر من ضوضاء الجند بين خارج وداخل وعن غوغاء الناس في المضارب وخصوصاً ساعة الغروب وقد نفخ في البوق يدعوهم الى الطعام

الفصل السادس والاربعون

الطارق

وهي مشتغلة في ذلك واذا بخربشة في مكان القفل بالباب فاجفلت ونظرت الى الباب فرات من ثقبه نوراً في الخارج ثم فتح الباب ودخل منه شابٌ بلباس الافرنج في احدى يديه شمعة مضيئة وبالاخرى قصعة مغطاة بشيء كالخبز فعلمت انهم جاؤها بالطعام فاحست بالجوع حالاً ولكنها لم تتمالك ان صاحت « من انت ؟ »

فاجابها الشاب بصوت هادىء « قد جئتك يا سيدتي بطعام بامر سيدي الدوق وقد اوصاني ان اعزم عليك لتأكلي من هذا الطعام فانه من طعامه الخاص »

فاستغربت سالمة هذا الاكرام منه بعد ما دار بينها و بينه ولكنها سكتت وهي تنتظر ما يفعله الشاب • فاذا هو قد وضع القصعة على الطنفسة ورفع الخبز عنها فرات تحته شيئاً

من قبيل الطيور المطبوخة وقد فاحت منه رائحة يشتهيها الشبعان فكيف بالجائع ولكنها امسكت نفسها مخافة ان يكون في الطعام سم او نحوه وان كان الجوع يدفعها الى الاكل. فرأت ان تنظر في وجه الغلام لعلها تتوسم فيه ما يشجعها او يخوفها فرفعت بصرها اليه والشمعة لا تزال في يده وقد وقعت اشعتها على وجهه فاذا هو يختلف في سحنته ولون بشرته عن اهل تلك البلاد مع ان كلامه افرنجي. فتبينت تقاطيع وجهه فاذا هو اسود العينين براقهما خفيف العضل اسمر البشرة خفيف اللحية صغير العارضين من حداثة. ويدل مجمل ملامحه انه ليس افرنجياً. فلم تستغرب ذلك لعلمها بما يدخل بلاط الملوك في تلك الايام من الاسرى والماليك من امم مختلفة. فتفرست في وجهه لترى ما يزيل الشبهة التي لابستها من امر الطعام فلم ترَ في وجه الغلام ما يدعو الى الخوف لكنها ارادت ان تتحقق ذلك من سماع كلامه فقالت «ما اسمك ايها الشاب؟»

قال «اسمي رودريك يا سيدتي»

فلما سمعت ذلك الاسم خفق قلبها واجفلت وتصاعد الدم الى محياها بغتة لكنها انتبهت لنفسها حالاً وحولت نظرها الى القصعة ومدت يدها الى الخبز وتشاغلت بتقطيعه بهدوء وسكينة والغلام واقف وقد لحظ منها ذلك الاضطراب فلم يفهم له سبباً سوى انها تحتاج الى امر وقد منعها الحياء من طلبه فانتبه للحال انه لم يأتها بالماء للشرب فابتدرها قائلاً «اظنك تحتاجين الى الماء»

ثم وضع الشمعة على البساط وخرج وقد ترك الباب مفتوحاً ففهمت سالمة انه ينوي الرجوع حالاً

ولم تمضِ هنيهة حتى سمعت خفق نعاله خفقاً سريعاً ثم دخل وبيده كوبة فيها ماء وضعها امامها وهو يبتسم وكان قد سكن اضطرابها فنظرت اليه فاحست بارتياح الى رؤيته واستأنست به فشكرت عنايته وودت لو انه يتولى امرها دائماً

اما هو فوضع الكوبة وخرج واغلق الباب وراءه غلقاً خفيفاً كانه عازم على الرجوع فتناولت سالمة بعض ما في القصعة وشربت الماء وهي تفكر في ما آنسته في ذلك الغلام من المؤانسة ولبثت بعد فراغها من الطعام تنتظر رجوعه. وبعد قليل سمعت خفق نعاله وهو يمشي الهوينا ثم دخل وهو يحمل غطاء ثقيلاً ووسادة فالقاها على الارض وهو يقول «هذا غطاء ووسادة لاجل الرقاد قد اوصى مولاي الدوق بهما لك»

فتناولتهما وقالت له «اشكر عنايتك ايها الشاب وارجو ان استطيع مكافأتك وعسى

ان لا يتولى امري من اهل هذا المعسكر سواك وان كان في ذلك ثقلة عليك ..»

فاجابها رودريك وهو يبتسم « وانا ارجو ان لايتولى ذلك سواي لاني اخاف ان يتولاه من لا يعرف قدرك فلا يحسن خدمتك »

فتوهمت سالمة من ذلك انه عارف ببعض شانها فتجاهلت وسكتت . اما هو فانه اخذ القصعة والكوبة وتحول نحو الباب وهو يقول « وستريني رهين اشارتك وسابذل جهدي في خدمتك فليطمئن بالك » ثم اقفل الباب وخرج

و بعد خروجه احست سالمة بارتياح انساها بعض ما بها من الاضطراب فافترشت بعض الغطاء وتغطت بباقيه وتوسدت تلتمس الرقاد وكانت قد احست بالتعب على اثر ماقاسته في ذلك اليوم وما قبله فغلب عليها النعاس فنامت نوماً عميقاً

ولما افاقت جاءها رودريك بطعام الصباح وتولى خدمتها في كل ما تحتاج اليه وتفرست فيه على ضوء النهار فتحققت انه بعيد الشبه عن الافرنج وقريب الملامح من العرب ولكنها رأته يتكلم الافرنجية مثل اهلها واسمه افرنجي* فعزمت على استطلاع حقيقته بعد ان تؤانس منه وثوقاً بها مخافة ان تبدر منها كلمة اذا بلغت اود زادت نقمته عليها

الفصل السابع والاربعون

السفر

قضت سالمة في ذلك الاسر اياماً وهي تراقب حال اهل القصر بالنظر اليها لعلها تجد سبيلاً للفرار فاذا هم شديدو العناية في خفارتها كثيرو التضييق عليها وكان جماعة منهم موكلين بحراستها ومراقبة حركاتها فعلمت ان اود مع تغيبه عنها واهماله مقابلتها شديد الحرص على استبقائها في ذلك السجن

فلما طال مكثها على تلك الحال ملت الاقامة وتزايد قلقها على جند العرب لعلمها انهم في انتظارها على مثل الجمر ولكنها لم تكن ترى باساً من تاخرها عنهم لعلمها انهم فائزون في فتحهم حتى يبلغوا بواتيه ثم هي لا تخاف عليهم اود وجنده لعلمها انهم غلبوهم غير مرة . على انها كانت تخاف على مريم من غدر ميمونة . ثم هي رجحت ان الكتاب الذي جاء به ذلك الاحول انما هو من ميمونة ولكنها لم تفهم فحواه تماماً فلبثت تتوقع فرصة لاستطلاع ذلك

من رودريك

واصبحت ذات يوم فسمعت ضوضاء الجند على غير المعتاد فاطلت من النافذة فرأتهم يقوضون الخيام وقد اخذوا في التأهب للسفر فاشتغل خاطرها واوجست خيفة من ذلك الانتقال . على انها رأت في ذلك سبيلاً لمخاطبة رودريك في ما قد يكشف لها شيئاً من ذلك السر : فلما جاءها في ذلك الصباح ومعه الطعام ابتدرته قائلة « مالي اراكم تتأهبون للسفر هل انتم مسافرون جميعاً ام يبقى بعضكم هنا »

قال « اننا مسافرون جميعاً وقد أمر حضرة الدوق ان تسيري معنا »

قالت « والى اين ؟ »

قال « الى تورس على نهر لوار »

فلما سمعت قوله بغتت واستغربت ذلك الانتقال لعلمها ان النهر المذكور هو آخر حدود اكيتانيا والبلاد التي وراءه تحت سلطة شارل دوق اوستراسيا . وهي تعلم ايضاً ان بين اود وشارل منافسة ومزاحمة على النفوذ وربما كان شارل اكثر حرصاً على صد اود عن بلاده من حرص العرب على فتح اكيتانيا فقالت « هل انت على يقين من ذهابهم الى تورس ؟ »

قال « نعم يا مولاتي وقد سمعت الاوامر الصادرة لنا بالذهاب »

قالت « ألا تعلم بما بين الدوق اود ودوق اوستراسيا من المنافسة ؟ »

قال « بلى . ومن يجهل ذلك ؟ »

قالت « فما الذي يفعله الدوق اود في تورس اذاً ألا يخاف عدوه شارل ؟ »

فلما سمع رودريك سؤالها تلفت وتلفت نحو الباب كأنه يحاذر ان يراه احد ثم نظر الى سالمة وهو يقول بصوت منخفض « ان لذلك سراً لم يطلع عليه الا نفر قليلون من هذا الجند وأخاف ان يحدث به ان يلحقني اذى »

فتوسمت في وجه الغلام خبراً مهماً فتاقت نفسها لسماعه فشجعته وقالت « ما الذي تخافه من اسيرة سجينة ربما لا يهمها من امر هذا الخبر شيء ولكنني احببت الاطلاع على هذا السر لغرابته وقد جرأني على هذا السؤال ما شاهدته من مؤانستك ولطفك في اثناء هذه المدة . ومع ذلك لا اظنك احرص على مصلحة هذا الجند مني لانك على ما يظهر لي لست منهم . . »

فما قالت سالمة ذلك حتى رأت البغتة بدت في وجه رودريك وقد تحولت سحنته الى غير ما كانت عليه فتنهد وقال « لقد ادهشتني فراستك فيّ لأنك اطلعت في ايام

على ما لم يستطع كشفه احدٌ من اهل هذا المعسكر في اعوام ٠٠ »

فاستبشرت سالمة بذلك التلميح وقالت « يظهر لي اني قد اصبتُ الفراسة فكلانا اذًا نرمي الى غرض واحد فأخبرني عما حمل اود على الذهاب الى تورس ولا تخف وارجو ان يكون لك من وراء ذلك خيرٌ »

فقال « اما السبب في هذا الانتقال فهو ان العرب حاربونا ونحن قرب بوردو فغلبونا وقد بلغنا الآن انهم قادمون الى هنا »

فقطعت كلامه وقد سرّها ان غيابها لم يؤخر العرب عن التقدم في الفتح وايقنت انهم لم يلاقوا في طريقهم كبير مدافعة من اهل البلاد فقالت « فالافرنج اذًا يطلبون تورس، فرارًا من العرب »

قال « لايخلو الامر مما ذكرتِ ولكنهم يطلبون تورس للدفاع وليس للفرار »

قالت « وبماذا يدافعون وعدوُّهم هناك اشدُّ وطأةً عليهم من العرب »

قال « قد كان كذلك من قبل ولكنه اصبح الآن ظهيرًا لهم »

فقالت « وكيف ذلك والمنافسة متمكنة بينهما لان كلاًّ منهما يطلب السيادة على الآخر بعد أن رأيا انحلال الدولة المروفجية التي كانت تجمعهما تحت سيطرتها ٠ وقد علما ان الفائز منهما ستكون له الدولة والملك على الدوقيات كلها فزادت المنافسة بينهما حتى يتمنى كل منهما ان يهلك الآخر ٠٠ »

قال « هذا هو الواقع فعلاً وهذا الانقسام هو الذي مكن المسلمين من فتح اكيتانيا حتى وصلوا الى هنا واذا قطعوا نهر لوار اصبحت بلاد في اوستراسيا في قبضتهم على اهون سبيل لان اساقفتها ناقمون على الدوق شارل نقمة شديدة وقد يحرضون الشعب على خلعه فاذا جاءهم العرب وهم في تلك الحال ساعدوهم على الفتح ٠٠ »

فلما سمعت سالمة ذلك خفق قلبها سرورًا بما ترجوه من فوز العرب هناك ولكنها لم تثق بصدق تلك الرواية فقالت وما هو سبب نقمة الاكليروس على شارل وهو قائد عظيم »

قال « السبب يا سيدتي انه استخرج اموالهم وقبض على املاك الاديرة وفرقها في جنده واهان بعض الاساقفة بالقصاص وفضل بعض صغار الكهنة عليهم ولايخفى عليك ما يجرُّ اليه ذلك »

فلما تحققت غضب الاساقفة على شارل عادت الى الاستفهام عما دعا الى نصرة شارل

لاُود فقالت « ولكنني لم أفهم كيف صار شارل ظهيرًا للدوق اود .. فهل فعل شارل ذلك من تلقاء نفسه خوفًا من الاساقفة ؟. »

فقال رودريك « كلاَّ ياسيدتي ولكن الدوق اود لما ايقن بعجزه عن دفع العرب عن بلاده لم يرَ بدًّا من استنصار عدوّه شارل .. »

فقالت وقد بغتت « وكيف استنصرهُ وفي استنصارهِ خروج هذه البلاد من يده لامحالة »

قال « لا اظنه يجهل ذلك ولكنه قد فعله مضطرًّا بحكم الضرورة ففضل ان تأُول البلاد الى امير مسيحي افضل من ان تأُول الى قوم غرباء دينًا ووطنًا ولعلهُ مطمئن لما يعلمهُ من اشتغال شارل بنقمة الاساقفة — ثم اني لا اظنه استنصرهُ الا مدفوعًا بمشورة بعض ثقاته »

قالت « ومن يجرأُ على هذه المشورة من رجاله »

قال « المشورة لم تأْته من هذا المعسكر ولكنني علمت بكتاب جاءهُ في اليوم الذي سجنك فيه . وفي ذلك الكتاب تحريض على استنجاد شارل والظاهر انه اثر فيه كثيرًا فحالما قرأ الكتاب بعث وفدًا الى شارل يطلب اليه مساعدته في هذه الحرب فأَتاه الجواب بالايجاب »

الفصل الثامن والاربعون

الاستطلاع

فلما سمعت سالمة قولهُ تحققت ان المحرض على ذلك انما هو ميمونة فاستعاذت بالله ولكنها كظمت وتجلدت لانها لم تكن تثق برودريك وهو لم يكاشفها بحقيقة امرهِ فاحبت قبل الافاضة في الموضوع ان تستطلع الحقيقة فقالت والاهتمام ظاهر في وجهها « اراك يارودريك قد كاشفتني بامور ذات بال مما يدلُّ على ثقتك فيَّ فاعلم ان ثقتك في محلها واذا كنت تعتقد اخلاصي لك كن على يقين اني باذلة نفسي في مكافأَتك على اني لا ازال اطلق نفسي بالاطلاع على حقيقة امرك لاني على ثقة انك لست من اهل هذا المعسكر »

فلما رأت سالمة اجتماع الجند وكهنتهم في تلك الساحة للصلاة وقفت بباب خيمتها لتشاركهم في صلواتهم فاذا بالدوق قد خرج من فسطاطه في حاشيته واعوانه وكلهم بالملابس الرسمية وقد تقدمهم القسوس بالثياب الكهنوتية وبايديهم الصلبان وهم يترنمون وامامهم بعض الشمامسة يحملون صليباً على عصا طويلة حتى وقفوا في تلك الساحة في شبه منبر ووجوههم مولاة نحو كنيسة القديس مرتين عن بعد والجند وقوف · فاقاموا قداساً طويلاً وكانت القلوب متخشعة وملئها الآمال بالنصر على الاعداء ببركة تلك الصلاة

— ومن غرائب مطامع البشر وضعف طبيعتهم انهم يسنّون الشرائع بتحريم القتل و يشددون النكير على القاتلين ثم يرفعون اكف الضراعة الى موحي تلك الشرائع ان يساعدهم على قتل ابناء جلدتهم وهم مع ذلك يتوقعون اجابة سؤلهم لاعتقادهم انهم انما يلتمسون نصرة الحق وتأييد الدين الصحيح · وكل طائفة تعتقد ذلك وتفعله · ولو عقلوا وادركوا معنى الدين لطلبوا حجب الدماء وتكاتفوا على حفظ السلام · ولكنهم لا يفعلون ذلك كأنهم ادركوا بالسليقة ان الحرب ضرورية للبقاء وانهم لو لم يقتلوا بعضهم بعضاً لقتلهم الجوع او الوباء لان الارض اذا مضى عليها بضعة قرون ولم تحدث فيها حرب. ضاقت بساكنيها وقد قدروا عدد الذين قتلوا بالحروب من اول عهد التاريخ الى الآن بخمسة اضعاف سكان البسيطة كلها غير ما يترتب على بقائهم من التكاثر بالتناسل المتضاعف

ومهما يكن من الامر فالحرب باقية ما بقي حب الذات وهو باقٍ ما بقي الانسان و بناء على هذا الاعتقاد سعى بعض رجال التمدن الحديث في تخفيف و يلات الحرب مقابلة لما اخترعوه من آلات الدمار التي لم تكن في عهد التمدن القديم

وكانت سالمة لما سمعت اصوات المرتلين وشمت رائحة البخور قد تخشعت واستغرقت في الافكار وتذكرت تاريخ حياتها وما مرَّ بها من الاهوال · ولم يقف فكرها الا في معسكر عبد الرحمن اذ تذكرت ابنتها مريم وكيف خلفتها هناك وماذا عسى ان يكون من امرها بعد انتقال العرب في طريقهم الى تورس · وتذكرت ميمونة فاختلج قلبها لذكراها خوفاً على مريم من حبائلها لما تحققته من امرها واصبحت شديدة الرغبة في اطلاع العرب على ما عرفته عنها واذا استطاعت ذلك فانها تنقذهم من مكائدها · ولما بلغت بها تصوراتها الى هذا الحد تذكرت حساناً لانه لو كان معها لانفذته في هذه المهمة ـ فاستغرقت في هذه المواجس مدة والناس يضجون بالصلاة والقسوس يرفعون اصواتهم بالترتيل ووجوههم متجهة نحو دير القديس مرتين

وكانت سالمة وهي واقفة لسماع القداس لا تنثالك عن ارسال بصرها الى اطراف ذلك المعسكر وما وراءه من السهول الى نهر لوار ومدينة تورس على ضفته وبازائها تعلة دير القديس مرتين على انها لم تكن ترى من تلك الاماكن الا رؤوس الابنية الشاهقة لبعد المسافة

وفيما هي تسرح بصرها على تلك الصورة رأت الى يسار المعسكر شبحين ظهرا من وراء الافق عن بعد . فاطلّ اولاً رأساها ثم تبين بدناها بالتدريج فاذا هما فارسان . فظلّ بصرها عالقا بهما وشعرت برغبة في استطلاع حالهما ثم ما لبثت ان رأت عليهما لباس الرهبان الاسود وعلى رأسيهما القبعة فقلّت رغبتها في الاطلاع لكثرة الرهبان في تلك الاصقاع وكثرة ترددهم الى المدن لابتياع حاجيات الاديار . وبعد قليل رأت الراهبين قد اختلطا بالجند ووقفا معهم للصلاة فحولت وجهها عنهما وعادت الى هواجسها فتذكرت الشاب رودريك وودت لو انها تجتمع به هناك ولو لم يكن من ذلك الاجتماع فائدة لها ولكنها كانت قد استأنست به

الفصل السادس والخمسون

طارقان

ثم سمعت دق الاجراس مؤذنة بالفراغ من الصلاة وتفرق الجند الى مضاربهم وعاد اود الى فسطاطه وحوله الحاشية والاعوان ودخلت سالمة خيمتها وحول الخيمة ثلاثة من رجال أود بالحراب يحرسونها ولكنها لم تر الاحول بينهم ولا رأته من ذلك الصباح . قضت بقية ذلك اليوم في الخيمة وقلبها يحدثها بامر سيحدث ويكون فيه الفرج لها وان كانت لا ترى باعثاً على هذا الامل بل هي ترى كل ما حولها ينذرها بضد ذلك — ولكن في صواحب الاحساس الدقيق من النساء نوعاً من الشعور لا يعبَّر عنه بغير الالهام لما فيه من الغرابة بالنظر الى الرجل . فقد تشعر المرأة بالحادث قبل وقوعه وتنذر رجلها به . ولو طالبها بالدليل لأسكتها لانها لا تتكلم عن اقتناع بالبرهان ولكنها تشعر فتقول ما تشعر به ويغلب صدقها فيه لاسباب لا تزال مجهولة . وأما الرجل فانه لا يرتأي الا ما يرشده اليه

عقله بالقياس والبرهان ــ فلما احست سالمة بتلك الآمال انبسطت نفسها ولكنها كانت لتعقلها تحمل ذلك الشعور محل الوهم لانها ترى المصائب محدقة بها من كل ناحية

ولما أمسى المساء جلست على بساط مفروش في خيمتها وهي تشعر بارتباك وتردد فعمدت الى الصلاة لانها كانت قد أثرت من قداس ذلك الصباح ورأت في الصلاة راحة. وبعد الصلاة توسدت وليس في خيمتها مصباح . وهي لم تطالب الرقاد نعاساً ولكنها ملت الاحتباس ومن يظلم بصره تستنير بصيرته فاستغرقت في الافكار ولم يكن يعترض مجاري أفكارها غير ضجيج الخدم في ذهابهم وايابهم وصوت النفر أحياناً ــ وبينا هي كذلك سمعت حديثاً قريباً من خيمتها فانهضت رأسها والتفتت فرأت بصيص نور يتراءى في الخارج وراء جدار الخيمة وسمعت لغطاً لم تستطع فهمه فجلست واصاخت بسمعها فانجلى لها الصوت فسمعت الحديث الآتي بلغة البلاد :

— لا أظنك تقدر على منعي

— بل أنا قادر حتى يأمرني الدوق بما يريد

— وما في هذه المسألة ما يستدعي مشورة الدوق

— بل لا بد من مشورته لان لهذه السجينة شأناً خصوصياً لايقاس بشؤون سائر المسجونين وقد أوصانا حضرة الدوق بمنع أي كان عن مقابلتها

— يا للعجب أبلغت منك الفحة ان تقف في سبيل الفروض الدينية ... ؟

— لا يهمني ... وما الذي يضرك لو استأذنت الدوق في ذلك ؟

— لا يضرنا شيئاً ولكنكم تعلمون أننا قد كرسنا حياتنا لاستتابة المجرمين وأصحاب الذنوب وأننا نطوف السجون ونعرف المسجونين ونعظهم ونحرضهم على التوبة

— ربما كان ذلك صحيحاً ولكننا غير مأذونين بغير المنع القطعي ومع ذلك فان انسا قيا لو كان هنا لاغنانا عن مشورة الدوق لانه مفوض من قبله بهذا الشأن

— اين هو ذلك القيم ؟

— لا ندري فقد ذهب في هذا الصباح واكد الوصاية علينا وشدد في منع أي كان من الدخول

— ارسلوا واحداً يستأذن الدوق

— نخشى ان يكون في فراشه فاجلوا المقابلة الى الغد

— الوقت ضيق لا يأذن بالتأجيل لاننا ذاهبون في صباح الغد الى دير القديس

مرتين ... اذهب فاستأذن الدوق ولا تطل الجدال ... اني لم ألاق مثل هذا الوقح في طول عمري ... واذا لم يعجبك الذهاب فانني داخل الخيمة رغم ارادتك وستلاقي جزاء وقاحتك في الغد

— (صوت آخر) لا تغضب يا حضرة الاب ان رفيقي شاب لا يعرف حقوق السادة الرهبان والقسيسين ... تفضلا فادخلا ولا حاجة الى الاستئذان لكننا نطلب اليك ان تذكرنا في صلاتك

— بورك فيك يا ابني هكذا يكون ابناء الخلاص ... ولكنني اتقدم اليكم ان تتباعدوا قليلاً عن جوانب الخيمة لئلا يصل اليكم حديث الاعتراف ولا يخفى عليكم ان الاعتراف سرٌّ من الاسرار المقدسة

— طبعاً .. لا شك في ذلك ... تفضل وادخل ونحن متباعدون ولكن أرجو من قدسك ان تختصر بقدر الامكان لئلا يبلغ الامر حضرة الدوق فيلومنا على ادخالكم بدون اذنه »

وكانت سالمة تسمع ذلك وقلبها يخفق خفقانًا متسارعاً لدهشتها واستغرابها وبذلت جهدها في معرفة ذلك الصوت فلم تعرفه ولكنه أذكرها بالراهب الذي صحبها من الدير الى قرب بواتيه لانه مثل صوته . فلبثت صامتة لترى ما ينتهي اليه الجدال فلما انتهى على تلك الصورة تطاولت بعنقها لترى الداخل واذا هو راهب بيده مصباح على شكل طائر ملتفت نحو الاعلى والنور فتيلة مضيئة بارزة من منقاره وقد امسك الراهب ذلك المصباح باحدى يديه على قبضة في أسفلهِ بشكل الصليب وتوكأ باليد الاخرى على عكازه . فلما رأته سالمة نهضت وتفرست في وجهه فاذا هو ذلك الراهب بعينه فرحبت به وهمت بتقبيل يده والصليب الذي هو قابض عليه . وهي تفعل ذلك اذ رأت راهباً آخر دخل واسرع الى يدها ليقبلها فأجفلت وتراجعت وقد خجلت ولكنها ما لبثت ان تفرست في وجهه حتى عرفت انه خادمها حسان فبغتت وكادت تنطق باسمه لو لم تنتبه لنفسها وتخاف الفضيحة فتجلدت واشارت الى الراهب وحسان بالقعود وقعدت هي والدهشة لاتزال بادية في وجهها وهي تتوقع ان تسمع من احدهما ما يذهب دهشتها

فوضع الراهب المصباح على الارض وقعد وظل حسان واقفاً فاشارت اليه ان يقعد فقعد متأدبًا وهو يقول بصوت منخفض « احمد الله على وصولي اليكِ يا مولاتي وارجو ان اكون قد جئتك بالفرج »

فهمت سالمة بالجواب وهي تحاذر ان يبدو منها ما تؤاخذ عليه لعلمها ان رئيس ذلك الدير شديد التعصب للافرنج ويكره العرب فلم تكن تتوقع مجيء ذلك الراهب اليها لنصرتها فقالت « وما الذي جئتني به ... أليس حضرة الاب من رهبان الدير الذي بتنا فيه وبقيت انت هناك جريحاً ؟ »

فاجاب الراهب قائلاً « بلى .. وانا اوصلتك الى بواتيه حتى اخذوك مني فرجعتُ واخبرت حضرة الرئيس بما جرى ولولا ذلك لم يكن الاهتداء اليك ممكناً ... »

فلم يزدها قوله افصاحاً عن المهمة التي هما قادمان بها فالتفتت الى حسان وتفرست في ثوبه فكاد يضحكها ما هو فيه من لباس الرهبان فقالت له « يظهر انك انتظمت في سلك الرهبنة .. »

قال « لبستُ هذا الثوب يا مولاتي ذريعة للوصول اليك وقد حرضني على ذلك حضرة الرئيس وانفذ معي حضرة الاب برسالة سيبلغها اليك»

فاشتاقت لمعرفة تلك الرسالة فالتفتت نحو الراهب ولسان حالها يقول « تفضل »

الفصل السابع والخمسون

بشرى

ولما همَّ الراهب بالكلام تذكرت سالمة ما اصابها في المرة الماضية مع رودريك وكيف اطلع ذلك الاحول على حديثهما فتقدمت الى الراهب ان يتمهل واشارت الى حسان ان يتفقد الحرس واماكنهم فاطلَّ من باب الخيمة ومن ثقوب في بعض جوانبها فتحقق بعد الحراس بضعة امتار عن الخيمة وهم جلوس يتحادثون فعاد وطمأنها وقعد . فاخذ الراهب بالحديث بصوت منخفض وسالمة متطاولة بعنقها وكلها اذان لاستيعاب كلامه فقال :

« لا يخفى على مولاتي اننا معاشر الرهبان وسائر جماعة الاكليروس قد اوقفنا حياتنا لعبادة الله وخدمة بني الانسان لا نبتغي على ذلك اجراً غير خلاص نفوسنا . ولذلك فقد اكرم الامراء والملوك وفادتنا وساعدونا في مشروعاتنا ونحن ايضاً ساعدناهم في حمل الشعوب على الطاعة . وكثيراً ما كنا سبباً في تنصيبهم وعزلهم فاصبح الرهبان موضع ثقة اولي

الامر وتحل احترامهم لايجلون امرًا دونهم ونحن نحافظ على ولائهم ونخدمهم بما في وسعنا وكان الدوق اود (وخفت صوته) من انصارنا ونحن من انصاره الا في بعض الاحوال ولكننا على الاجمال كنا نغضي عن بعض سقطاته ونحملها منه على الضعف البشري لعلمنا اننا في حال تدعو الى جمع الكلمة في اثناء الحرب . ولو انحرفنا عنه قليلاً واظهرنا استياءنا منه امام الشعب لقضي على دولته من زمان مديد . لان الشعب الغالي اهل هذه البلاد الاصليين لايحبون الافرنج وهم مستعدون لخلع نيرهم عند أول اشارة منا . ولكننا لم نفعل ذلك بل كنا نبذل الجهد في حفظ تلك السلطة لهم واظنك لاحظت ذلك من رئيسنا المحترم في اثناء حديثك معه . اما الآن فقد ارتكب الدوق اود امرًا دل على ضعفه وجبنه لم يبق لنا معه صبر على هذه الحال ـ اظنك عرفت ذلك الامر . . »

فاطرقت سالمة واعملت فكرتها في استطلاع ذلك السبب فلم ينتظر الراهب جوابها فقال « ان الامر الذي اراده الدوق اود اذا توفق اليه فانه يذهب بسلطانه ويضيع كرامتنا ويخرب اديارنا فتضيع الديانة ويصبح الناس فوضى . »

فانتبهت سالمة لغرضه فقالت « اظنك تعني استنجاده الدوق شارل صاحب اوستراسيا . . »

قال « نعم هذا الذي اعنيه لان هذا الدوق من اشد الناس وطأة على رجال الله وقد اذاق اكليروس اوستراسيا مرّ العذاب فقبض املاك الاديرة وفرقها في جنده واهان الاساقفة وارتكب في ذلك كل معصية . وقد دعاه اود الآن لنصرته فاذا فاز بالعرب اصبحت اكيتانيا هذه في قبضته واصبحت اديرتها عرضة لمطامعه

« وكثيرًا ما كان اود يهمّ باستنجاد شارل ونحن نزجره ونخوفه على نفسه وعلينا فلما خاف خيول العرب وسيوفها عمد الى استنجاد ذلك الرجل ــ وقد وقع هذا الخبر وقعاً سيئاً عند اهل هذه البلاد كافة كهنتها وشعبها لعلمهم بما سيترتب على هذا الامر . . »

وكان الراهب يتكلم وقلب سالمة يكاد يطفح سرورًا وتذكرت ما كانت تحدثها به نفسها في اثناء ذلك النهار واعتقدت انها ألهمت الصواب وان الامر ابتدأ ينقلب على الافرنج من تلك الساعة ولكنها ظلت صامتة لتسمع بقية الحديث

ولم يتوقف الراهب عن الكلام الا ريثما سعل ومسح لحيته بمنديله ثم قال « وكان من اشد الناس غضبًا لذلك رئيسنا المحترم لانه كان من اكثرهم ولاء لأود ودفاعًا عن مصلحته فلما علم بما ارتكبه اصبح شديد الرغبة في عرقلة مساعيه لاعتقاده انه اذا نجح في ذلك

يكون قد خدم شعبه وحكومته وكنيسته والظاهر انه كان قد لحظ من كلامك نصرة العرب او ربما جاءه كتاب من اسقف بوردو في هذا الشان — لا ادري . ولكن الذي اعلمه انه بعث اليَّ ذات صباح وسألني عنك مع اني كنت قد انبأته يوم رجوعي بما جرى امام باب بواتيه ولكنه دقق عنك في البحث وسألني عن الرجال الذين اخذوك مني . فاخبرته انهم من رجال الدوق اود فهزَّ راسه ومصَّ شفته وامرني ان استقدم هذا الشيخ وكان قد اخذ في النقه من جرحه ولم اخبره بعد بخبرك لئلا اكدره . فلما امرني الرئيس باستقدامه سرت اليه وقصصت عليه خبرك فتكدر ثم اتيت به الى الرئيس . فلما وقف بين يديه امرني فاقفلت الباب فسرَّ الينا امرًا كلفني ان ابلغك اياه ولا ريب انه يسرك لانه سيكون طبق الغرض الذي انت ساعية فيه . . . هل اقوله ؟ »

فقالت « أتسألني ؟ قل »

قال « قد اعطاني كتاباً كتبه بخط يده الى رئيس دير القديس مرتين لا ادري فحواه ولكنه بلا شك يتضمن تحريضه على مقاومة شارل وجنده حتى لا يفوزوا على العرب او لكي لا يحاربوهم لان رئيسنا اصبح يفضل سلطان العرب على سلطان شارل وزمرته لما تحققه من رفق المسلمين برعاياهم المسيحيين فنأمن بالاقل على اديرتنا وكرامتنا . . »

فلم تتمالك سالمه عند سماع تلك العبارة عن الابتسام من شدة الفرح ونسيت كل ما مرَّ بها من المتاعب وتحققت ان كل ما أصابها من الشرور انما كان القصد منه الوصول الى هذا الخير وان ذلك كله حدث بعناية خصوصية من مدبر هذه الكائنات — ذلك هو اعتقاد أهل الايمان من كل الاديان . والانسان من فطرته ميالٌ الى ذلك فيحسب الدنيا وجدت لخدمته وحده فاذا زرع وأمطرت السماء قال انها تمطر اكراماً له واذا جفت فجفافها نكاية فيه . ولذلك فاذا أصابته مصيبة ولو كان هو الجاني بها على نفسه شكا من فاعل آخر يتتبع خطواته فاذا لم يسمه الخالق سماه الدهر او الزمان — فلما توسمت سالمة قرب نجاح مهمتها ابتسمت وقالت للراهب « واين الكتاب ؟ »

فمد يده الى كمه واستخرج لفافة دفعها اليها فتناولتها فاذا هي مختومة فوضعتها في جيبها وهي تقول « وما هو السبيل الى دير القديس مرتين وحولي الحراس ساهرون ليلا ونهاراً . . ؟ ألا يقوم بايصال هذا الكتاب أحد بالنيابة عني . . ؟ »

فقال الراهب « لا يستطيع ذلك احد سواك لانه عبارة عن كتاب توصية بك وقد ترك اقناع الرئيس لك — وأوصانا رئيسنا حفظه الله ان نبذل الجهد في انقاذك من هذا

السجن فما الذي ترينه ؟ »

قالت « لا أدري •• وأظن حضرة الرئيس قال ذلك وهو لا يعلم مقدار التضييق المحدق بي في هذا السجن وقد شاهدتم ذلك بنفسكم الآن وسمعتم أقوال الحراس فهل ترون لي حيلة •• »

الفصل الثامن والخمسون

شهامة

وكان حسان لا يزال صامتاً الى تلك الساعة فلما رأى حيرتهما قال « عليّ تدبير هذا الامر •• »

فالتفتا اليه معاً وهما لا يتوقعان منه الاستطاعة على ذلك فاصاخا بسمعهما اليه وقالت سالمة « وما هو التدبير ؟ اذا كان من تدبير فليكن عاجلاً »

قال « عليّ تدبير ذلك في هذه الساعة »

فقالت « وكيف ؟ ••• »

فوقف حسان وعمد الى جبة الرهبنة التي كانت عليه فحل حبلها من حول خصره وطوقها من حول عنقه واخذ في نزعها وهو يقول « عليك بهذه الجبة فالبسيها فوق أثوابك واجعلي هذه القبعة على رأسك وهي تقفل من الجانبين فتغطي الوجه واليك هذا العكاز واخرجي مع حضرة الراهب فلا يشك احد في انكما الراهبان اللذان دخلا الآن ومتى بعدتما عن المعسكر افعلا ما تريانه •• »

فاعجب الراهب بتلك الحيلة اللطيفة واستغرب شهامة حسان بحيث فضل أن يلقي بنفسه الى التهلكة فداء عن مولاته — أما سالمة فلم تستغرب ذلك ولكنها لم تتمالك عن الثناء على حسان وقالت « لا استغرب هذه الشهامة ياحسان فقد رأيت منك مثلها مراراً ولكنني ضنينة بك لسابق تعبك وقد دنا الوقت الذي آن لي فيه ان أكافئك على شقائك في خدمتي منذ أعوام عديدة — وخصوصاً الآن فقد كنتُ راغبة في لقائك لا بشرك بامر يسرك كثيراً ••• ولا أقدر ان أخبرك به الا اذا كنا معاً وأخاف اذا افترقنا الآن ان لا نلتقي •• »

فتوقف حسان عن خلع الجبة وتطاول بعنقه وقال « اخبريني عن ذلك الآن قبل ان نفترق .. »

قالت « وعندي أمور كثيرة أقصها عليك واستطلع رأيك فيها وسأحتاج اليك في تنفيذ بعض الشؤون .. »

قال « وهل تظنين في بقائي هنا خطراً عليّ ..؟ كوني في راحة وثقي أنكما لاتخرجان من هذا المعسكر حتى الحق بكما .. »

قالت « اظنك اذا اطلعت على ما سأقصه عليك تفضل البقاء هنا بضعة أيام »

فلم يعد حسان يستطيع صبراً عن سماع ذلك الخبر فقال « اخبريني يامولاتي بما علمت مما يهمني سماعه اوصريني بما تريدين ثم نتداول قبل ذهابك بما تأمرين »

ثم انتبهت سالمة الى نفسها فرأت الاولى ان تغض النظر عن اطلاع حسان على مايشغله او يؤخره في ذلك المعسكر والحالة تدعو الى سرعة انفاذه الى عبد الرحمن لتخبره بما علمته من شأن ميمونة وما في معسكر الافرنج من المعدات وما كان من استنجاد اود لشارل وغير ذلك مما يأول الى نصرة العرب. فلما رأت من حسان القلق على استطلاع الخبر قالت « ان الوقت لا يساعدنا على ذلك يا حسان وأني أفضل أن ابقى انا هنا وتذهب انت برسالة انفذها معك الى أمير العرب فان الحالة تدعو الى سرعة الذهاب والا ضاعت الفرصة وذهب سعينا هباءً منثوراً. فاطعني واذهب انت ولا بأس عليّ من البقاء هنا .. »

قال « الامر اليك يا مولاتي ولكنني لا أرى شيئاً ادعى الى العجلة من اطلاق سراحك لمقابلة رئيس دير القديس مرتين وعرقلة مساعي الدوق شارل القادم لنجدة هذا الجند ومتى تمّ لنا ذلك نذهب بالبشائر الى الامير عبد الرحمن دفعة واحدة »

قالت « ولكن الامر الذي اطلب ابلاغه الى عبد الرحمن الآن اهم كثيراً من خبر دوق اوستراسيا .. »

فاستغرب حسان ذلك وقال « وهل اهم من خبر هذا الدوق وهو قادم لنجدة اود بجيش جرّار معه العدة والسلاح فضلاً عن اشتهار شارل بالبسالة والقوة ؟ »

قالت « أني انما أخاف على جند العرب من عدوّ مقيم في قصر أميرهم وهم يحسبونه صديقاً وقد اكتشفت سره في أثناء اقامتي في هذا الاسر ولم يكن استنجاد شارل الا برأيه ... فاذا لم نبادر الى كشف سره استفحل امره .. »

الفصل التاسع والخمسون

اول الاسرار

فبغت حسان لذلك وحدق بعينيه وتطاول بعنقه وقال « من هو ذلك العدو يامولاتي هل تخبريني ... قولي الآن ولا تخافي من وجود حضرة الراهب معنا فانه صديق لنا مخلص في نصرتنا او تكلمي بالعربية فانه لا يفهمها ... قولي من هو ذلك العدو »

قالت « هو ميمونة ... او بالحري تلك المرأة الداهية التي سمَّت نفسها ميمونة وما هي الا ملعونة .. »

قال « ولم تكن هذه المرأة مجهولة لدينا فقد شاهدناها غير مرة فما الذي عرفته من امرها هنا ... »

قالت « لم اكن اجهل أمرها منذ رأيتها في معسكر عبد الرحمن للمرة الاولى ولكنني اجلت كشف امرها ريثما اعود من مهمتي هذه وخمت اذا ما بحثُ بشأنها ان يجرَّ ذلك الى تصريحها بحقيقة أمري وانت تعلم اننا لانريد ذلك الآن وان كان اطلاع عبد الرحمن على حقيقتي لا يزيده الا اكراماً لي ولكنني مقيدة بالعهود والمواثيق ان لا أطلع احداً على شيء قبل عبور هذا النهر (وأشارت الى نهر لوار) ولو علمتُ ما قد يترتب على سكوتي عنها لما صبرت على كتمان أمرها وأما الآن فلا بد من كشف سرّها لعبد الرحمن على عجل .. »

قال « وما هو شأنها يا مولاتي هل يجوز لي الاطلاع على هذا السر » قال ذلك وجثا بين يدي سالمة وتطاول بعنقه وحملق بعينيه

فقالت « هل اخفي عنك سرًّا وانت تعلم انك خزانة أسراري بل انت الرجل الوحيد المطلع على حقيقة حالي غير الكونت أود صاحب هذا المعسكر فانه عرفني وهددني ثانية ولكنه اشتغل عني او اجل شأني لبعد الحرب لانه مطمئن من قبلي لاعتقاده اني سجينته حتى يشاء — فلا أخفي عنك سرًّا ياحسان . فاعلم ان المرأة التي يسمونها ميمونة وتعد نفسها من حظايا عبد الرحمن وتتقرب اليه بجمالها ومكرها انما هي لمباجة بنت الدوق أود صاحب هذا الجند .. »

فلما سمع حسان قولها بغت ولم يتمالك عن الوقوف وقال وقد غصَّ صوته من محاولة تخفيضه مع تهيج عواطفه وبغتته « بنت الدوق أود هذا .. ؟ قائد هذا المعسكر ؟ .. »

قالت « نعم هي بعينها واظنك تعرفها انت وقد رأيتها غير مرة وهي مع زوجها المقتول ... ألا تعرف المنيذر الافريقي الذي كان حاكماً في جبال البرينة بين أسبانيا وأكيتانيا ؟ »

قال « نعم اعرفه و اظنني ان الامير عبد الرحمن الغافقي لما قام بجنده لفتح هذه البلاد لمنه ان المنيذر هذا متواطئ مع الافرنج على العرب فسار اليه وبغته وقتله وقبض أمواله ونساءه وبعث بها الى الخليفة في دمشق » (١)

قالت « اتعلم السبب الذي بعثه على مواطأة الافرنج على العرب .. »

قال « كلاّ »

قالت « ان الدوق اود علم بما بين العرب والبربر من التحاسد لاسباب لا تخفى عليك وبلغه ان المنيذر البربري المذكور صاحب نفوذ كبير في قبائل البربر وانه اذا اكتسب ثقته واسترضاه يكون عوناً كبيراً له على العرب فتخابرا وافضت المخابرة الى ان يتزوج المنيذر بلمباجة ابنة الدوق اود وقد رضي اود ان يزف ابنته الى هذا البربري على امل ان تكون وهي عنده قابضة على زمام ارادته تستخدمه فيما تريده لمصلحة والدها وهي مشهورة بالجمال والدهاء وبعد ان اقامت مع زوجها المذكور مدة وهي تدبر الحيل للذهاب بدولة العرب نهض الامير عبد الرحمن وعرف الخطر الذي يحدق بالعرب من ذلك الامير فبغته وقتله .. »

قال حسان « نعم سمعت ذلك من قبل وسمعت ايضاً ان امرأته أُخذت في جملة الغنائم والاموال الى دمشق فيئاً للخليفة »

قالت « قد اشاعوا ذلك زوراً وبهتاناً فالظاهر ان هذه الداهية البست بعض نسائها ثيابها واوهمت عبد الرحمن ان تلك هي لمباجة وانها هي من بعض خدمها وسراريها لتبقى في معسكر عبد الرحمن عيناً لابيها على العرب وحركاتهم . وقد تحققت انها هي التي كتبت الى ابيها بالامس ان يستنجد شارل دوق أوستراسيا ولم يكن هو ليقدم على ذلك من تلقاء نفسه حياءً من رجاله ورعاياه فاغرته هي بما لها من النفوذ عليه فاستنجده — ومما يخيفني من امرها ان الامير عبد الرحمن يثق بها ويسارها ويستشيرها فهل من خطر على جند العرب اعظم من هذا ؟ »

فقال حسان « كلاّ يا مولاتي .. فينبغي ان اذهب بهذا الخبر الى الامير سريعاً فهل

---

(١) راجع صفحة ٤ من هذا الكتاب

تكتبين كتاباً احمله اليه حالاً ..»

قالت «ولا بد قبل كل شيء أن نخرج من هذا السجن ومتى خرجنا يهون علينا كل امر عسير ..»



الجوزة

وكان الراهب في أثناء ذلك الحديث واقفاً يتشاغل بالمشي في ارض الخيمة ويتطلع من بعض شقوقها وثقوبها الى الخارج وكأنه راى امراً بغته فاسرع الى سالمة وهي تقول ذلك وقال لها «اظننا اطلنا الكلام حتى قلق الحراس فاني اراهم في هرج وحركة يتسارون ويتهامسون واخاف ان يكون من ذلك خطر علينا ..»

فقال حسان «عليك بهذا الرداء يا مولاتي فالبسيه واخرجي مع حضرة الاب واطلبا خارج المعسكر وساتبعكما سريعاً والملتقى على ضفة نهر شير عند الجوزة الكبيرة التي قعدنا تحتها بالامس يا حضرة الاب» قال ذلك والبس سالمة عباءة الرهبان وجعل على راسها القبعة واعطاها العصا واشار اليها بالخروج على عجل

فتنحنح الراهب وقرع بعصاه عمود الخيمة وسعل وخرج من باب الخيمة وسالمة في اثره . فلما اطل على الحراس تظاهر باشتغاله برسم الصليب والصلاة ثم رفع يده كانه يباركهم فحنوا رؤوسهم جميعاً ونزعوا قبعاتهم اجلالاً واحتراماً . ولم يتجرا احد على الدنو منهما لما لاحظوه من اشتغالهما بالصلاة تمتمة . وكانت سالمة تمشي وركبتاها ترتعدان ليس خوفاً على حياتها ولكنها استنكفت الفرار خلسة والتنكر بلباس الرهبان . ولما بعدا عن المعسكر واطمأنا على نفسيهما اشتغل بال سالمة على حسان وخافت وقوعه في الاسر . سارا في المعسكر وهما بزي الرهبان والحرس لا ينتبهون لهما واكثر الجند نيام حتى خرجا من بين الخيم . وكانت سالمة تمشي وتتلفت يميناً وشمالاً ثم تلتفت الى ورائها لعلها ترى حساناً قادماً وقد ندمت في باطن سرها على تركه في تلك الخيمة لانه اقدر منها على انفاذ ما تطلبه في تلك الساعة . وكان الظلام مخيماً لا يريان مما يحيط بهما غير الروابي او الاشجار العالية اذا اعترضت بينهما وبين الافق . وكانت سالمة تمشي في اثر الراهب كيفما مشى لانها لا

تعرف مكان تلك الشجرة

وبعد مسير ساعة وهما صامتان التفت الراهب الى سالمة وقال « قد اصبحنا على مقربة من الجوزة يا مولاتي وهذه رؤوس اغصانها » واشار بيده الى الامام فالتفتت فلم تر شجراً ولكنها رات اغصاناً متفرقة تتراءى في الافق فعلمت ان الشجرة في منخفض وانها ترى رؤوس اغصانها . ثم رأت شبحاً يظهر بجوار تلك الاغصان رويداً رويداً كانه قادم من وراء اكمة نحوها فتفرست بذلك الشبح حتى بدا كله ودنا منهما فاذا هو بلباس جند الافرنج ولما اقترب منها اختلج قلبها في صدرها لعلمها انه عدلان الاحول فاستعاذت بالله منه وخافت على حسان من دهائه . اما هو فظل ماشياً لا سلام ولا كلام . فسرت سالمة بذلك وبعد قليل وصلا الى قمة التل فشاهدت سالمة وراءه شجرة هائلة تظلل سهلاً واسعاً فانحدرا نحوها وقعدا تحتها وبين يديهما عين ماء تصب في منحدر تحته واد يجري فيه نهر شبه . وكانت سالمة قد تعبت من المشي والقلق فقعدت على حجر قد تملس من كثرة ما لامسه من الايدي بكرور الادهار . وكانت تلك الشجرة منزلاً للمسافرين هناك

ولما قعدا قالت سالمة للراهب « اني خائفة على حسان ولا اظنه يستطيع الخروج من ذلك المعسكر واذا كان لم يخرج الآن لم اعد ارجو خروجه »

قال « وكيف ذلك ؟ اذا لم يخرج الآن يخرج بعد ساعة او ساعتين ويكون الحرس نياماً »

قالت « لا اخاف عليه الحرس ولكنني اخاف عليه هذا الرجل الذي رأيته ماراً بنا وهو الذي وشى بي حتى قبضوا عليّ . ولو لم يكن غائباً الليلة عن المعسكر ما انطلت حيلتكم على الحرس ... »

قضيا مدة في مثل ذلك وسالمة تعدُّ اللحظات وتحسب الساعة يوماً من شدة القلق ثم سمعا وقع اقدام مسرعة فالتفتا فرأيا شبحاً يعدو نحوهما فلم تشك سالمة انه حسان فلما اقترب منها ارتعدت فرائصها من منظره لانه كان عاري الصدر والذراعين مكشوف الرأس وقد نبش شعره وارسله على وجهه حتى اصبح منظره مثل مناظر الجان او الشياطين على ما كانوا يصفونهم في ذلك العصر . ولم تكد سالمة تخاف حتى سمعت الرجل يقول « لا تخافي يا مولاتي انا حسان » فاطمأنت فلما دنا منها صاحت فيه « ويلك ما هذا العمل ؟ »

قال « لولا هذه السحنة ما نجوت من الاسر فاني لما تحققت بعدكم عن المعسكر

تعريت كما تريان ونبشت شعري وخرجت من قفا الخيمة اعدو على يديَّ ورجليَّ واصيح صياح الشياطين . فاجفل الحرس من حولي وتفرقوا لاعتقادهم اني شيطان ولم يرجع اليهم رشدهم و يفقهوا الحيلة حتى صرت خارج المعسكر ولكنني التقيت هناك برجل اظنه عدلان البربري الاحول وقد رآني ولم يعرفني . . . هل شاهدكما هنا »

قالت « نعم رآنا ولكنه لم يعرفنا »

فقال « لا بد لنا اذاً من تغيير هذا المكان — اعطوني العباءة اولاً »

فاعطته سالمة العباءة فلبسها وهو يقول « هلمَّ بنا نذهب من هنا فان هذا البربري الشرير لا يلبث ان يصل الى المعسكر و يعرف بفرارك على يد الراهبين حتى يطلب هذا المكان بالجند ولا طاقة لنا بالحرب »

فقال الراهب « هذا هو الصواب فلنمضِ اذاً الى دير القديس مرتين فاننا نصله قبل الصباح فنصير هناك في مأمن واذا شئت ارسال حسان بعد ذلك افعلي و ربما ارسلنا معه من يهديه الى الطريق »

الفصل الحادي والستون

دير القديس مرتين

فاستحسنت الرأي ونهضت فمشوا يطلبون الدير والراهب دليلهم فوصلوه عند الفجر وقد اخذ التعب منهم ماخذاً عظيماً . فاطلوا اولاً على حلة اشبه ببلد صغير وفي وسط البلد بناء شامخ تحاط بسور عال مثل سائر الاديار هناك ولكنه افخمها جميعاً ويحيط السور هائل حتى يحسبه الناظر سور مدينة لسعتهِ وارتفاعه . وكان دير القديس مرتين مشهوراً في اكيتانيا واوستراسيا وسائر اوربا بالغنى والثروة لكثرة ما حواه من الآنية الذهبية والفضية غير الاموال المذخرة في خزينته من الهبات والنذور ونحوها . وكانت سالمة تسمع بذلك الدير ولم تدخله بعد فلما اطلت عليه تركت للراهب ان يتصرف في كيفية الدخول . فاذا به تقدم الى الباب وهو كبير خلافاً لأبواب سائر الاديار فامسك بحبل مدلى هناك وشده فدق الجرس دقة خصوصية وبعد هنيهة اطل بعض الرهبان من برج فوق الباب فكلمه الراهب وذكر سالمة باللاتينية فاسرع ذاك الى الباب وفتحه

ورحب بالقادمين · فدخل الراهب وسالمة من باب آخر وراءه فاطلا على فناء واسع اشبه شيء بالحديقة وفي وسط الفناء بناء كبير هو الدير وبجانبه بناء آخر عرفا من قبته والصليب على قمتها انه كنيسة القديس مرتين ·

وكان حسان سائرًا في اثرها وهو لا يزال في شكله الغريب فامره رفيقه الراهب ان يمكث عند الباب واشار الى البواب ان يبقيه عنده ريثما يطلبانه · فمكث هناك وظلت سالمة والراهب سائرين والراهبان يتخاطبان باللاتينية فلم تفهم سالمة من خطابهما الا قليلاً ثم تكلم راهبها بالافرنجية قائلاً « ان حضرة السيدة قادمة بكتاب الى حضرة المحترم رئيس هذا الدير فهل هو هنا ؟ »

قال « اظنه لا يزال في عبر النهر عند دوق اوستراسيا الا اذا كان قد دخل الدير من بابه الآخر المشرف على هذا النهر »

قال « ومتى قطع النهر »

قال « قطعه قبل الامس على حين غفلة »

قال « وما الذي دعا الى ذلك ·· »

وكان الراهب يتكلم وهو يمشي في الحديقة بين اشجارها ويتفرس في طرقها كأنه يفتش عن احد فلما افضى بهم الحديث الى هنا كانوا قد وصلوا الى مقعد من الحجر بجانب جدار الكنيسة فاشار الراهب اليهم بالجلوس وجلس هو ونور الصبح آخذ بالاشراق وقد تطايرت العصافير وانطلق النسيم فاختلط حفيف الاشجار بتغريد الاطيار· فكان لذلك تاثير شديد على سالمة بعد ان قاست ما قاسته من التعب والقلق طول الليل الغابر · واحست بالنعاس ولكنها تنبهت كل حواسها لسماع حديث الراهبين لترى الداعي الى خروج الرئيس من ديره على غرة فسمعت الراهب يقول « ان الذي دعاه الى ذلك الخروج يا اخي امرٌ جديد كفانا الله شرّه »

فقال الراهب « وما هو ذلك الامر لا سمح الله »

قال « الم تسمع بقدوم الدوق شارل صاحب اوستراسيا بجيشه الجرار ·· »

قال « سمعت انه سيقدم فهل وصل ؟ »

قال « نعم يا اخي وصل منذ ايام وهو الآن على الضفة اليمنى وفي حال وصوله بعث الى حضرة المحترم رئيس ديرنا ان يوافيه الى هناك على عجل ولم يسعه غير الطاعة · »

قال « وما الذي يبغيه منه ؟· وليس عنده جند يتجند به ·· »

قال « يظهر انك تجهل حال هذا الدوق مع رجال الله والكنائس والاديار ٠٠ »
قال « اعرف عنه قليلاً ٠٠ »
قال « ألا تعرف طمعه في اموال الكنائس وارزاقها ٠٠؟ وهل فاتك ما اجراه من طرق الظلم مع اكليروس اوستراسيا ٠٠ »
قال « سمعت بعض الشيء ٠٠ واخاف ان يفعل مثل ذلك في كنائسنا هنا »
قال « وهذا الذي نخافه نحن ٠٠ »
وهما في ذلك اذ سمعا قرع الجرس فبغت راهب الدير ووقف ووقف الياقوت وهم يحسبون الجرس يقرع للصلاة ولكنهم رأوا الكنيسة لا تزال مقفلة وقد تقاطر الرهبان من كل ناحية نحو طرقة من طرقات الحديقة تؤدي الى سور الدير من جهة النهر فظلت سالمة وراهبها واقفين بجوار المقعد ينتظران ما يكون ٠ ولم يمض قليل حتى رأيا جماعة الرهبان عائدين وفي مقدمتهم راهب بلباس خاص يمتاز عن الباقين وعلى رأسه قلنسوة خاصة فعرفت سالمة انه الرئيس وقد عاد من مهمته التي ذهب بها الى شارل فاستغربت رجوعه باكرًا بهذا المقدار وتفرست به عن بعد فرأته ماشياً وحوله الرهبان والجميع سكوت تهيباً مما في وجهه من ملامح الغضب
وكان ذلك الرئيس كهلاً كثيف اللحية قد وخطه الشيب في اواسط لحيته من مقدم الذقن ولا يزال باقيها غضاً حالكاً ٠ وكذلك شارباه فانهما كانا غليظين كثيفين وعيناه كبيرتان براقتان فوقهما حاجبان عريضان ومنظره على الاجمال وقور مع جلال وقد زاده الغضب هيبة ووقارًا حتى الجم الرهبان كافة عن الكلام ٠ فتوسمت سالمة من ذلك الغضب خيرًا ولما دنا من الدير اسرع رفيقها الراهب الى يده فقبلها وهو جاث وقبعته بيده ففعلت سالمة مثله ثم تنحى الجميع ودخل الرئيس من باب الدير وتبعه جماعة الرهبان وعلى وجوههم علامات الاستغراب ولا يجسر احدٌ على التكلم الا همساً
فظلت سالمة وراهبها يتوقعان فرصة يدخلان بها على الرئيس ٠ وكانت سالمة تفضل الدخول عليه وحدها ومعها الكتاب ٠ وبعد هنيهة جاء الراهب الذي كان قد استقبلهم من باب السور وقال « هذا هو الرئيس قد عاد فما الذي تريدانه »
قالت سالمة « اريد ان احظى بتقبيل يديه ومعي كتاب اريد تقديمه اليه »
قال « وأين الكتاب »
فمدت يدها واستخرجته من جيبها ودفعته اليه مختوماً فتناوله ودخل ثم عاد ودعا سالمة

للدخول وحدها فسرّت لذلك ومشت وهي تعدّ في ذهنها ما ستلقيه على الرئيس لعلمها ان رئيس دير القديس مرتين يمتاز عن سائر رؤساء الاديار بعلو منزلته وغنى ديره . فدخلت في دهليز انتهت منه الى باحة رأت فيها الرهبان متزاحمين يذهبون ويجيئون كأنهم في شاغل عظيم وقد تسربوا ازواجاً واتلاثاً . فلما رأوها وسعوا لها الطريق فمشت والراهب يتقدمها حتى وصلت الى غرفة الرئيس وعلى بابها ستر شقه الراهب بيساره واشار الى سالمة بيمينه ان تدخل فدخلت الى قاعة مفروشة بالبسط وعلى جدرانها صور بديعة الصنعة تمثل اهم حوادث النصرانية . وفي صدر القاعة صورة القديس مرتين بالقدّ الطبيعي الكامل ورأت الرئيس جالساً على مقعد في صدر القاعة تحت تلك الصورة . فلما دنت منه تظاهرت بالجثو وتقبيل يده فانهضها ودعا بكرسي اجلسها عليهِ والكتاب لا يزال بيده وقد تبسم ترحاباً بالقادمة والغضب لا يزال بادياً في عينيه

الفصل الثاني والستون

امل جديد

فجلست سالمة متأدبة والخمار يجلل رأسها وثوبها الاسود يزيدها كمالاً ورزانةً وظلت صامتة احتراماً للرئيس . اما هو فأعاد نظره الى المكتوب بيده وتفرس فيه كأنه يقرأه ثانية ثم قال « ممن هذا الكتاب ؟ »

قالت « ان علامة صاحبه فيه »

قال « لا أرى علامة ولكنني عرفته من خطه . هل انت سالمة ؟ »

قالت « نعم يامولاي اني امتك سالمة »

قال « العفو يا اختي كلنا عبيد ربنا ومخلصنا .. ما الذي تريدينه مني الآن ؟ . »

قالت « لا أريد الاَّ ما تريده قدسكم وليس لي رأي بوجودكم »

فابتسم غصباً وقال « لا حاجة بنا الى التجمل والتردد .. لقد جئتني لامر يقول أخي رئيس دير ... انه يهمني ويهمه وان عليه يتوقف مستقبل الكنيسة في أكيتانيا فتفضلي بما تأمرين »

قالت « أني خاطئة لا استحق هذه العناية ولكنني كنت قد خاطبت كاتب هذا الكتاب

في شأن دافعني فيه وانكره عليّ ثم ما لبث ان سمع بقدوم الدوق شارل الى هذه البلاد حتى استصوب رأيي .. فهل أعجبك حضرة الدوق بمجيئه ... اصفح عن جسارتي في هذا السؤال لان عليه يتوقف حديثي »

قال « صدقت يا ابنتي ان هذا السؤال لا يجسر احدٌ من رهباني ان يسألني اياه ولكنك جئت في وقت اجيز لك فيه هذا السؤال وفي كلام أخي الرئيس صاحب هـذا الكتاب ما يحملني على الوثوق بك ... فاقول اني وجدت الدوق شارل خطراً على الكنيسة في اكيتانيا »

قالت « وهذا الذي رآه هو وأراد ان اكون الواسطة في عرض طريقة ارجو ان تعود بالنفع على الكنيسة وأهلها .. »

قال « وما هي طريقتك »

قالت « هل تعدُّ الدوق شارل مسيحياً حقاً »

قال « هو يزعم انه مسيحي ولكن أنى له ذلك وهو يحلل ما حرمته الكنيسة .. كنا نسمع عنه أموراً لم نكن نصدقها لغرابتها حتى سمعناها من شفتيه » قال ذلك وقد تجدد غضبه ثم قال « كنا نسمع انه أخذ مال الاديار واساء الى الاكليروس وكنا نستغرب ذلك عنه حتى دعاني بالامس اليه وبدلاً من ان اسمع منه تمليقاً وتزلفاً لشدة حاجته الينا في كل شيء سمعت منه تهديداً ووعيداً »

فانشرح صدر سالمة لهذه الشكوى واستبشرت بنيل بغيتها ولكنها أظهرت الاستغراب وقالت « تهديد ووعيد ؟ ولماذا ؟ الكم عصاة ؟ »

قال « كلاّ يا ابنتي ولكنه كلفني أمراً لم أوافقه عليه كما أراد .. دعاني وطلب اليّ ان ادفع اليه ما في صندوق هذا الدير من الاموال عاجلاً لانه يحتاج اليها في الحرب ثم عرّض بفضله علينا في هذه الساعة لانه سيدفع عنا العرب .. سامح الله الدوق أود ما أضعف قلبه .. انه سيجر علينا البلاء مضاعفاً باستنجاد هذا الرجل المستبد .. »

فاظهرت سالمة الاهتمام وقالت « بالحقيقة ان الخطأ الاكبر من الدوق اود فقد أضاع استقلاله وجرَّ البلاء على الكنيسة ... وما الذي يظنه مولاي الرئيس في هؤلاء العرب .. »

قال « هم اعداؤنا واعداء ديننا ؟ .. »

فابتسمت بلطف وقالت « اسمح لي يا حضرة الرئيس المحترم ان اعترض على هذه

التهمة .. هل رأيت العرب او عاشرتهم ؟ »

قال « كلا ولكنني سمعت عنهم شيئاً كثيراً .. سمعت انهم يعبدون الاصنام وانهم اذا نزلوا بلداً نهبوا كنائسه وسبوا نساءه واخربوا .. زل اهله .. »

قالت « الا تصدق امرأة عاشرتهم أعواماً ؟ »

قال « هل عاشرتهم كثيراً واين .. ؟ وما هي علاقتك بهم ؟ وانت من اهل هذه البلاد على ما يظهر .. »

قالت « يسمح لي مولاي ان اجيب على اسئلته بما في الطاقة .. قد عاشرت هؤلاء العرب اعواماً فظهر لي انهم اهل ديانة مثل ديانتنا يعبدون الله مثلنا وهم اهل رفق وعدل يفون بالعهود ويحافظون على المواثيق وقد فتحوا بلاد الاسبان ومعظم اكيتانيا ولم يظهر منهم الا العدل والرفق . ترى النصارى في اسبانيا وفي بوردو وبواتيه وغيرها من البلاد التي فتحوها متمتعين بحريتهم الدينية لا خوف على كنائسهم ولا على أموالهم ولا على شيء مما يملكون — لا يخلو ان يطمع بعضهم بنهب اوسلب فاذا لم يكن محقاً فانه ينال جزاءه من اميره »

ثم قصت عليه حكاية كنيسة بوردو وبذلت جهدها في تنميق العبارة وبسطها لعلمها انها اذا اقنعت رئيس دير القديس مرتين هان عليها اقناع اسقف تورس . واذا لم يساعدوا العرب كفاها ان لا يساعدوا الافرنج

الفصل الثالث والستون

الرهينة

وكان الرئيس يسمع كلامها ويتفرس في وجهها ويستطلع حقيقتها فلم تسعفه الفراسة الا قليلاً وظل مستغرباً غيرة هذه المرأة على العرب وهي غير عربية — ولكنه استحسن امتداحها العرب خصوصاً وهو في تلك الحال . فتوهم ان مجيء هذه المرأة وهو في حال نفوره من شارل وخوفه منه لا يخلو من عناية خصوصية روحانية . فمال الى مجاراة سالمة في رايها ولكنه اعظم ان ينصاع اليها حالاً واراد من الجهة الثانية ان يحافظ على غيرته الدينية لعلمه ان انحيازه الى العرب اذا لم يكونوا كما وصفت يغير مستقبل النصرانية في تلك البلاد ويقلب الاحوال رأساً على عقب . وكان من الجهة الثانية يرجو رجوع شارل عن

مطاليه فاذا رجع لم يبق ثمة داع لعدوله عن نصرته • فظل مدة مطرقاً وهو يعبث باطراف لحيته بين أنامله ثم التفت الى سالمة وقال لها « اني شاكر لسعيك وارجو ان تمهليني ريثما اعمل الفكرة واستخير الله واعمل بالهامه جلت قدرته »

فقالت « تبصر يا مولاي بالامر كما تشاء ولكنني اذكرك بما انت مسئول فيه امام الله في مصالح الرعايا وانما غرضي ان يعود سعيك بالخير على الكنيسة واهلها » قالت ذلك ووقفت فابتدرها الرئيس قائلاً « وما انت فتبقين عندنا ريثما نرى ما يكون »

فادركت انه يريد استبقاءها عنده رهينة حتى يصدق قولها فلم تبال لاعتمادها على مواعيد عبد الرحمن فقالت « اني رهينة امرك في الذي تريده »

فصفق الرئيس فجاء احد الرهبان فقال له « انزل هذه الضيفة في غرفة خاصة بها واكرموها • »

فمضت مع الراهب الى علية اعدوها في طرف الدير من جهة نهر لوار ولها نافذة مطلة على ذلك النهر فاتكأت على السرير وقد اخذ التعب منها مأخذاً عظيماً فاستلقت ونامت واستغرقت في النوم ولم تفق الا على قرع الجرس يدعو الرهبان للغداء فنهضت والتفت بثيابها واطلت على النهر فبغتت لما شاهدته عن بعد من السفن الصغيرة المترابطة صفوفاً كالجسور وقد اخذ الناس في العبور عليها الى هذه الضفة ومعهم الاعلام اشكالاً والواناً فعلمت انهم جنود شارل فوقفت تنظر الى مجرى النهر وقد رجعت بها افكارها الى مريم وتذكرت العهود التي تربطها بذلك النهر وما يتوقف على الجيشين هناك من الامر الهام • وكانت كثيرة الاطلاع على احوال الافرنج وقد علمت انهم لم يبق عندهم رجل شديد غير شارل هذا فاذا دارت الدائرة عليه فالغلبة للمسلمين على كل اوربا اذ لا يقف في طريقهم واقف بعد ذلك • واذا كانت الغلبة للافرنج فلا مقام للمسلمين هناك ابد الدهر — واشد من ذلك وطأة عليها ان العرب اذا لم يقطعوا نهر لوار لم يبق لها ولا لابنتها عيش • فلما تذكرت ذلك مدت يدها الى جيبها وافتقدت الحفظة وفيها كل سرها واستخرجتها وقبلتها ولم تتمالك ان دمعت عيناها واحست من تلك الساعة بشوق شديد الى مريم بعد ذلك الغياب الطويل وهي لا تدري كيف حالها على انها لم تكن تخاف عليها احداً لعلمها بتعقلها وبعناية عبد الرحمن بها — استغرقت في تلك الهواجس وعيناها تنظران الى معبر الجند وقد استغربت كثرتهم على الضفتين وكانت تسمع صوت الطبول مع بعد المسافة لان الهواء كان يهب من الشمال الشرق والصوت يأتي معه — فقضت سالمة في ذلك ساعة ولو تركت لنفسها لانقضى النهار

ولم تنتبه ولكنها ما لبثت ان سمعت قرع الباب فتحولت وفتحته واذا براهب ومعه خادم يحمل خواناً عليه الاطعمة فقدماه لها وخرجا فاحست بالجوع وكانت قد نسيت نفسها فجلست ولم تزدرد اللقمة الاولى حتى تذكرت حساناً ورفيقها الراهب فصفقت فجاءها خادم فطلبت اليه ان يستقدم خادمها من عند بواب الدير فذهب ثم عاد بحسان وهو بعباءة الرهبان وشعره لا يزال منبوشاً فدخل وتأدب فامرته ان يقفل الباب وراءه فلما حلت به دعته للجلوس فأبى فقالت « دعنا من التجمل فانك من اعز الاعزاء اليّ واي عزيز يضحي نفسه في مصلحة صديقه او صاحبه كما فعلت فاسمح لي ان اعاملك معاملة الصديق فاجلس وكل معي »

فتراجع وقال « اما الجلوس في حضرتك فاطيعك به واما الطعام فلا حاجة لي به لاني اكلت مع بواب الدير الساعة وقد شغل بالي لابطائك في دعوتي وخفت حبوط مسعاك فارجو ان تبشريني ... هل افلحت مع رئيس الدير ؟ »

قالت « احمد الله على ذلك ولم يبق الا ان نبلغ نتيجة اعمالنا الى الامير عبد الرحمن ليعلم كيف يتصرف مع تلك الداهية .. واين جند العرب الآن يا ترى »

قال « قد علمت من حديث دار بيني و بين بعض الرهبان في هذا الصباح ان العرب اصبحوا على مقربة من هذا المكان ولكنهم قادمون من جهة الغرب وان جند شارل قادم من جهة الشرق وسيلتقي الجيشان في هذه الساحة جنوبي هذا الدير»

فبغتت وابرقت اسرتها معاً وقالت « هل انت واثق من ذلك يا حسان »

قال « هذا الذي سمعته يا مولاتي وهو متواتر واظنه صحيحاً »

قالت « فعلينا الاسراع في ابلاغ الرسالة وكنت اود ان اذهب انا ايضاً معك لولا اشتراط الرئيس بقائي هنا لغرض لا اعلمه»

قال « لا بأس من بقائك في الدير لانك تكونين هنا في مأمن من كل شرّ لانه فضلاً عن امتناعه بالاسوار والابراج فهو محترم من الجيشين — واتركي ما بقي من المهمات عليّ فاني افعل ذلك ان لم يكن اكراماً لك فاكراماً لنفسي وفي فوز العرب فوزي وفي سقوطهم سقوطي »

فتذكرت سالمة ما كان من حديث رودريك . وقد فاتها ان تخبره به بالامس فقالت « بورك فيك وعندي خبرٌ جديد يهمك اكثر من كل ذلك .. »

فقال « وما هو يا سيدتي »

قالت « الا تذكر حفيدك سعيد ٠٠ »

فاجفل عند سماع ذلك الاسم لطول ما مرَّ به من الايام على اغفاله وهو يحسبه في عداد الاموات وقال « كيف لا اذكره ٠ رحمه الله ورحم والده »

قالت « انه لم يمت يا حسان ٠٠ »

قال « من ؟ سعيد ؟ سعيد حيٌّ ٠٠ اين هو ؟ »

قالت « هو في معسكر الدوق اود واسمه عندهم رودريك » وقصت عليه بعض خبره فاطرق واستغرق كأنه في حلم ثم رفع بصره وقال « وهل هو هناك الآن ؟ »

قالت « لا ادري واذا كان هناك فانه يكون مسجوناً »

قال « ساطلبه وابحث عنه بعد ذهابي برسالتك الى الامير عبد الرحمن »

فاعجبها منه ايثار خدمتها على البحث عن حفيده مع شدة قلقه عليه فلما فرغت من الطعام امرت حساناً فجاءها بمدادٍ وتناولت منديلاً وكتبت عليه رسالة الى عبد الرحمن ولفتها ودفعتها الى حسان وقالت له « سر بحراسة الله واذا احتجتم اليَّ في شيء فاني مقيمة هنا ٠ وأرى قبل ذهابك ان تصلح من شأنك وتتزيا بزي الرهبان لتأمن غوائل الطرق ٠ واظن رفيقنا الراهب عائداً الى ديره فاصحبه واقره السلام عني ٠٠ »

فودعها حسان وخرج

الفصل الرابع والستون

معسكر عبد الرحمن

فلنرجع الى ما كان في معسكر عبد الرحمن بعد طول سكوتنا عنه واشتغالنا بحديث سالمة ــ تركناهم قرب مضيق دردون بعد ان فرَّ الافرنج من وجوههم فمكثوا هناك ينتظرون رجوع سالمة من مهمتها ٠ وقد رأيت ما كان من مقتل بسطام وفشل ميمونة وعرف القارىء انها لمياجة بنت الدوق أود وكانت بارعة في الجمال والدهاء كما رأيت وقد وضعت نفسها موضع السبية خدمة لوالدها فانطلت حيلتها على عبد الرحمن ورجاله ولولا سالمة لظل امرها مكتوماً ٠ وكانت سالمة قد عرفتها منذ قابلتها في الخباء ولكنها خافت منها على كشف سرها هي فاجلت الامر الى رجوعها ولو علمت حقيقة غرضها ما صبرت عن كشف

امرها ـ فظلت ميمونة بعد ذهاب سالمة والكل يعتقدون انها من حظايا المباجة وهي لا تدخر وسعاً في عرقلة مساعي العرب بكل سبيل . فلما فرغت يدها من واقعة دردون وتخلصت من التهمة عمدت الى احد شياطينها فبعثت معه الى والدها كتاباً انبأته به عن مهمة سالمة والغرض الذي ذهبت من اجله الى بوردو و بواتيه وغيرها وحرضته على القبض عليها لانه اذا حبسها فكأنه حبس نصف جيش المسلمين . فلم تدركها المكيدة الا على ابواب بواتيه كما رأيت . وكانت ميمونة قد تحققت عجز والدها عن دفع ذلك الجند من العرب بعد ماشاهدته في الواقعتين الاخيرتين بفضل اتحاد القبائل وعجزها عن تفريق كلمتها فعمدت الى شيطانها الاحول و بعثت معه الى والدها تستحثه على استنجاد شارل لعلمها ان اباها لا قبل له بذلك وحده ـ ومن غريب دهائها واقتدارها انها كانت شديدة التاثير على والدها لا تكاد تشير عليه بأمر الا انفذه لاعتقاده بعقلها وسعة اطلاعها خصوصاً على احوال العرب بعد الاقامة بينهم اعواماً . ولما جاءه كتابها كان قد يئس من الفوز وخاف على نفسه فوافق رأيها مصلحته فبادر الى مخابرة شارل دوق اوستراسيا فلبي الدعوة لعلمه انه اذا انتصر على المسلمين انتصر على اود وملك فرنسا كلها

أما عبد الرحمن فلما طال غياب سالمة مل الانتظار وبعث يفتقدها في بوردو فعلم انها خرجت منها منذ ايام وكانت مريم مع اشتغالها بهانيء واستغراقها في لجج العواطف اشد الجميع قلقاً على والدتها وكان هانيء يختلس الفرص في اثناء الاقامة هناك ويجتمع بمريم اما في الخباء او في الصحراء ويتحادثان و ينشا كيان في غفلة من الرقباء وعبد الرحمن يغض النظر حتى تمكنت المحبة بينهما وكادا يتناسيان الحرب واسبابها لو لم يكن زواجهما متوقف عليها وعلى اختراق اكيتانيا الى نهر لوار . ولذلك فان هانئاً لم يكن يفترعن تحريض عبد الرحمن على المسير قبل فوات الفرصة واستعداد الاعداء وعبد الرحمن يأخذ الامر بالتؤدة والتأني ـ حتى جاءهم الجواسيس ذات يوم باستنجاد اود لشارل فعقد عبد الرحمن مجلساً من الامراء حضره هانئ فاطلعهم على الخبر فقال هانيء «وهذا ما كنت اخافه ولذلك كنت استعجل الامير في النهوض»

فقال عبد الرحمن «فالذي أراه ان نبادر حالاً الى المسير»

قال هانيء «وهذا هو رأيي»

ولبث عبد الرحمن ساكتاً ليسمع آراء سائر الامراء وفيهم امراء البربر فلم يفه احد منهم بكلمة فخاف ذلك السكوت وادرك هانيء خوفه وعلم ان مطامع البرابرة منصرفة

الى الغنائم والسبايا وانهم لما علموا باتحاد جيشي اكيتانيا واوستراسيا خافوا على انفسهم فوقف هاني، وهو يبتسم وقال « لا حاجة بنا الى طول البحث في هذا الشأن فان الله قد ضم جيش اوستراسيا الى جيش اكيتانيا غنيمة لنا لان عند اولئك من الاموال والتحف ما لا تقاس به تحف هذه البلاد واذا غلبنا الجيشين مرة واحدة ملكنا هذه الارض الكبيرة كلها وقطعناها حتى نذهب الى رومية والقسطنطينية فنتم فتح العالم كله وننشر الاسلام في الناس كافة ويكون الفضل في ذلك لسيوفكم وخيولكم » قال ذلك وقد مزج طلب الغنائم بالجهاد حتى لا يخجل طالب الغنائم من اجابة الدعوة لانها جامعة للاثنين فما أتم كلامه حتى صاح الجميع بصوت واحد « الخيل الخيل »

فقال عبد الرحمن « بارك الله فيكم ونفع الاسلام بكم » ثم أمرهم بالاستعداد للرحيل ولما انصرف الامراء بقي هانيء وعبد الرحمن ولاحظ هانيء فيه انقباضاً فقال « ما بالك منقبض النفس وقد اطاعنا هؤلاء على المسير »

قال « انت تعلم ياهانيء انهم لايحاربون الا طمعاً بالاموال وقد تجمعت الغنائم عندهم حتى كادوا ينوؤن تحت أثقالها فالرجل منهم يكاد لا يستطيع حمل طعامه وغنائمه فبماذا يقاتلون ٠٠ »

قال هاني « لقد نبهتني ايها الامير الى امر ذي بال — ان تعلق هؤلاء البرابرة بالغنائم ضربة ثقيلة على هذا الجيش ليس لاستئثارهم بها دون سواهم ولكنهم يشتغلون بها عن الحرب، اذا حملوها أثقلتهم واعاقت حركتهم واذا خلفوها خلفوا قلوبهم معها فلا بد من حيلة نحتالها عليهم في ذلك »

فأطرق عبد الرحمن ثم وقف فوقف هاني معه وتشاغل عبد الرحمن باصلاح عمامته وهاني باصلاح بندحسامه ثم التفت عبد الرحمن بساعته وهو يقول « لابد لنا من النظر في هذا الامر — وفي اعتقادي ان ترك هذه الغنائم الثقيلة والذهاب الى الحرب بدونها اربح لنا جميعاً ولكن من يجسر ان يقول لهولاء البرابرة تخلوا عن غنائمكم، ونحن انما رغبناهم في الحرب بذكر الغنائم والاموال » فضحك هاني وقال « اظنك لحظت ذلك من عبارتي في هذا الشأن — وقد كان في نفسي ان ارغبهم في سرعة المسير الى تورس بذكر ديرها الغني لان بقربها ديراً يقال له دير القديس مرتين وهو من اغنى الديور الافرنجية [1] ولكنني خفت اذا انا قلت لهم ذلك ان يشتغلوا بنهبه عن الحرب

(١) رومي

فتكسب عداوة الاهالي والكهنة فوق عداوة الجند »

قال عبد الرحمن « لقد احسنت بالسكوت عن ذلك والذي اراه اننا متى وصلنا ساحة الحرب ندبر تدبيراً لا يغضب احداً فنجعل هذه الغنائم في مكان خاص فيكون اصحابها في اطمئنان لا يخافون عليها بأساً من العدو او نجعلها وراء الاخبية او بينها وبين الجند »

فمشى هاني، وهو يقول « سننظر في ذلك في حينه » وخرجا لاعداد معدات السفر

اما مريم فقد كانت لا تزال على اعتقادها بصداقة ميمونة، وهذه لم تكن تدخر وسعاً ولا تضيع فرصة لاجتذب بها قلب مريم بالاطراء والاعجاب ومريم لسلامة نيتها وصدق محبتها كانت تثق بميمونة الثقة التامة — ولم يكن ذلك عن جهل او بله فيها ولكن حر الضمير يصدق الناس ويعتقد انهم يصدقونه فاذا سمع قولاً صدّقه لسلامة نيته وصدق لهجته، وفي جملة ما استخدمته ميمونة من اسباب الخداع لمريم انها كانت تحدثها بحوادث وقعت لها مع عبد الرحمن او غيره تزعم انها مما لا يفشى لغير الاصدقاء الاخصاء وتتوقع ان تفشي لها مريم شيئاً من سرها مع هاني ولكن مريم كانت شديدة الحرص على اسرار الحب وميمونة تسايرها في كتمانه فيزيدها ذلك استسلاماً لها، فلما تمكنت ميمونة من مريم وقبضت على ثقتها اصبحت مريم لا تفارقها الا ساعة الرقاد او عند لقياها هانئاً او لاسباب قهرية

الفصل الخامس والستون

ساحة القتال

وفي صباح الغد قوضوا الخيام وشالوا الاحمال على الجمال والبغال وسار الجند على ترتيب تلك الايام — المشاة حسب قبائلهم وامام كل قبيلة راية خاصة بها يحملها احد فرسانها وقد يكون للقبيلة عدة رايات تتلاعب في الهواء حتى اذا نظر ناظرٌ الى ذلك الجند وراياته عن بعد توهم الرايات اشرعة وظن حماتها سفناً والناس بحراً ومسيرهم موجاً يتلاطم وكأن عمائمهم البيضاء ومجوانبها رؤوس الاسنة تكسر الموج على سطح البحر، وكان في جملة المشاة رجال البربر بحسب قبائلهم ومعهم سائر الموالي من غير العرب كالنبط والشوام وغيرهم

وهم سائرون بإزاء العرب . والبستهم تختلف عن البسة العرب بعض الشيء . واما الفرسان فقد اصطفوا فرقةً على حدة تتقدمها الرايات بحسب الامراء وراية هاني اكبرها جميعاً واكثر الفرسان بالادراع المتينة وعلى رؤوسهم الخوذ الفولاذ . وكان عبدالرحمن يسير تارة بجانب هانيء امام الفرسان وطوراً يطوف حول المعسكر يتفقد احواله خوفاً من الفشل . ووراء المشاة والفرسان اصحاب الاخبية ومعهم النساء والعيال في هوادج الا مريم فكانت على الجواد كاحد الفرسان . وكانت ميمونة تتظاهر بالرغبة في رفقتها فتركب جواداً الى جانبها . ويجيء وراء تلك الحملة ساقة الجند وامامهم الاحمال والاثقال وكان عبدالرحمن وهانيء اذا دارا حول ذلك الجيش او نظرا اليه من اكمة اطمئنا لكثرته وتوسما النصر به

وكان المسلمون يسيرون ولا يلاقون في طريقهم الا حقولاً مهجورة وادوات متروكة وبيوتاً خالية فيأخذون ما شاؤا ويتركون ما شاؤا حتى اذا امسى عليهم المساء يحطون رحالهم فيأكلون وينامون ثم ينهضون . فلما وصلوا بواتيه لم يلاقوا منها كبير مقاومة لان معسكر اود كان قد بعد عنها وقلّ من دخل المدينة وانما كان مقصدهم مدينة تورس قاعدة تلك الناحية وعندها جند الافرنج

وانبأهم الخبراء في ذات صباح انهم اصبحوا على مرحلة من نهر لوار فاستراحوا واصلحوا شؤونهم وساروا وعبد الرحمن وهانيء يتقدمان الجند نحو ميل ومعهما كبير الخبراء لاستكشاف مواقع العدو قبل النزول وليختارا مكاناً يعسكرون فيه . وفي اصيل ذلك اليوم صعدا في رابية على ضفة نهر شير وولّيا وجهيهما نحو الشرق فكان نهر لوار الى يسارهما عن بعد والشمس وراءهما فنظرا الى ما بين ايديهما شرقاً فاشرفا على سهل واسع مثلث الشكل قاعدته ضفة نهر لوار الى يسارهما ورأس المثلث في الجنوب . وشاهدا عنده خياماً واعلاماً وهو معسكر الدوق اود . وبين هذا المعسكر وضفة نهر لوار مسافة ميلين سهلٌ واسع يصلح ميداناً للقتال لخلوّه من الاحزان والاغوار حتى ينتهي عند قاعدة المثلث بالابنية على ضفة النهر واقربها اليهما مدينة تورس ثم محلة دير القديس مرتين ومع بعدها عنهما عرفاها من فخامة ديرها وقبة كنيستها . وشاهدا وراء تلك المحلة مما يلي النهر حركةً وغباراً عرفاهما يتخلل ذلك من الاعلام والخيول انها حركة جند قادم من جهة النهر — فامر عبد الرحمن رجلاً في ركابه ان يمضي الى جند المسلمين فيأمرهم بالوقوف حيثهم ريثما يعود من هذا الاستكشاف . ثم التفت الى الخبير وكان من الافرنج وقد تعلم العربية وقال « اليس هذا دير القديس مرتين »

قال الخبير « بلى يا مولاي هذا هو اغنى اديار النصرانية في هذه البلاد ٠٠ »

قال « وما الذي نراه وراءه »

قال « هو جند الدوق شارل يعبر النهر من ضفته الشمالية الى الضفة الجنوبية وقد علمت من رجل لقيته في هذا الصباح قادماً من نحلة هذا الدير ان الدوق المذكور اخذ منذ بضعة ايام في تعدية رجاله على جسور من السفن ولم يفرغ بعد لكثرة ما جاء به من الرجال والاحمال »

قال « ألا يعرفون عدد جنده ٠٠ »

قال « لم يحصوه ولكن لاريب عندي ان الدوق شارل جرد كل ما يستطيع تجريده من قبائل الافرنج في اوستراسيا وما وراءها لعلمه بشدة بطش المسلمين وقوتهم ولأن على حربه هذه يتوقف اما انتشار سلطانه على فرنسا كلها او خروج اوستراسيا من يده »

فقال هانئ « وسينال الثانية باذن الله ٠٠ »

فاعترض عبد الرحمن كلامه قائلاً « اليس مانراه الى يميننا في الجنوب معسكر الدوق اود شريد مضيق دردون ؟ »

فضحك الخبير وقال « بلى يا سيدي — وهو شريدٌ في كل حال ٠٠ لانه سواء انتصر عبد الرحمن او شارل ٠٠٠ فان سلطانه على اكيتانيا ذاهب من يده إما لكم واما لشارل فحاله تستوجب الشفقة ٠٠ »

فاكتفى عبد الرحمن بما سمعه ونظر في اختيار مكان يعسكرون فيه فقال هانئ « لا ارى لنا مكاناً نعسكر فيه خيراً من النقطة التي نحن فيها فنقطع هذا النهر الصغير (شير) ونعسكر وراءه فنكون على بعدٍ واحد تقريباً من هذين الجيشين واذا تضاماً فنكون متقابلين ويكون هذا الماء وراءنا فاذا اقتضت الحرب ان نتقهقر لا سمح الله قطعنا النهر وجعلناه خندقاً بيننا وبينهم »

فاعجب عبد الرحمن برأي هانئ وابتسم له ابتسام الوالد سمع من طفله عبارة تدلُّ على الذكاء وقال « لقد رأيت الصواب وازيد على ذلك ان نترك اثقالنا واحمالنا ونساءنا هنا ولا يقطع النهر الا الرجال المحاربون فنكون في اطمئنان على اموالنا واعراضنا ٠ وأرى ان نترك هنا ايضاً الغنائم التي اثقلت رجالنا فيذهبون الى الحرب خفافاً ٠ وقد اخبرتك ان امر هذه الغنائم اقلق راحتي فاذا لم تقتنع رجالنا وخصوصاً البرابرة في التخلي عنها يوم الحرب كانت سبباً في فشلنا ٠ وانت تعلم ان الرجل انما يغلب بخفة حركته »

الفصل السادس والستون

مسألة الغنائم

قال « نعقد مجلساً اذا امرت مخابر الامراء فيه ونقنعهم في وجوب التخلي عن الغنائم ونبين لهم ما يترتب على تحمل اثقالها من الاضرار ونرى ما يكون » — وكان في ركاب عبد الرحمن ايضاً صاحب النفير (البوق) فامره ان يذهب الى المعسكر فيخبر الامراء تبيت الجند هذه الليلة حيث هم ثم يدعو الامراء الى تلك الاكمة حيث هما واقفان للمخابرة في شأن المكان الذي سيعسكرون فيه — فاسرع الرسول ولم تمض هنيهة حتى تقاطر الامراء على افراسهم فلما وصلوا تحول عبد الرحمن عن فرسه وهانيء عن ادهمه فتحول سائر الامراء وسلموا افراسهم الى الخدم ووقفوا على تلك الرابية فاطلوا على سهل تحف به تورس وتعلة القديس مرتين من الشمال الى يسارهم ومعسكر اود من الجنوب الى يمينهم . فقص عليهم عبد الرحمن ماخطر له بشأن المكان الذي يعسكرون فيه بحيث يكون الماء وراءهم الى ان قال « واستشيركم في امر خطر لي واظن فيه خيراً لنا وهو ان لا يعبر هذا النهر منا غير الرجال المحاربين وان نخلف النساء والاحمال هنا ومعهم من يحميهم .. فما رأيكم ؟ . »

فقال اثنان من امراء القيسية « لقد رأى الامير صواباً .. » فوافق سائر الامراء على ذلك

فقال عبد الرحمن وهناك امر ذو بال طالما خفته على هذا الجند — وذلك ان جندنا قد اصبح من كثرة ما افاء الله على المسلمين من الغنائم مثقلاً بالتحف والاموال حتى لقد يعسر على الرجل ان يحمل غنائمه فكيف يستطيع القتال بها .. ؟ فالذي اراه ان نجعل الغنائم المذكورة في مكان امين في جملة ما نخلفه هنا عند ذهابنا في الغد فنجعل تلك الذخائر والتحف في خيم خاصة يحرسها من تثقون به من رجالكم كما فعلنا بقرب بوردو »

فلم يتم عبد الرحمن كلامه حتى اعترضه شاب من امراء البربر قائلاً « اما نحن فلا نوافق على هذا الرأي . ولا تذكرونا بما اصابنا في بوردو على اثر مثل هذا العمل . فقد افردنا الغنائم هناك حسب امركم فكانت النتيجة اننا خسرنا اكبر امرائنا واشجع رجال هذا الجند »

فلما سمع عبد الرحمن تلك العبارة وما تنطوي عليه من التعريض بمقتل بسطام مع ما تدل عليه من الضغينة والحقد خاف الانقسام اذا هو اجابه او وبخه لعلمه انه لم يجسر على هذا

القول الا وهو مدفوع من جماعة. فتظاهر عبدالرحمن بالسذاجة والاسف وقال « بالحقيقة اننا خسرنا في تلك الواقعة خسارة يصعب تعويضها لان الامير بسطاماً يندر مثاله ولكنني لااري علاقة بين مقتله والغنائم » ثم التفت الى جمهور الامراء وقال « واظنكم توافقونني على تناسي ذلك الحادث والاشتغال بما هو اهم منه وقد عرضت عليكم رايًا فاذا كنتم ترون فيه خطأ بينوه لان الغرض واحد والمصلحة واحدة »

فتهامس الامراء وتداولوا مليًّا ثم قال احد امراء اليمنية « ارى الامير مصيبًا في رايه كل الاصابة لان الرجل لا يستطيع الحرب وهو مثقل بالاحمال — واذا خسر الانسان غنيمته وانتصر في حربه عوض اضعافها »

فوافقه على ذلك كثيرون ولحظ هانىء ان البربر لا يزالون سكوتًا يخاف القتل فقال « وازيد على ما قاله الامير ... اننا اذا انتصرنا في هذه الواقعة كانت غنائمنا فوق ما تدركه العقول. لان الدوق قارله (شارل) صاحب هذا الجند (واشار الى جند شارل) قد حمل معه كل ما في بلاده من التحف في الاديار والكنائس والقصور .. فاذا ظفرتم به ظفرتم بالغنى والفخر والسعادة » قال ذلك بلهجة الاخلاص وهو يبتسم ويتفرس في وجوه الامراء

فلم يجد امراء البربر ما يدفعون به قوله فتكلم شيخ من امرائهم وقال « لا مشاحة في ان الجند لا يستطيع الحرب الا اذا كان خفيفًا ولكن من لنا بمن يقنع افراد الجند ان يتركوا غنائمهم التي اصابوها بعد شق الانفس وهم لا يطمعون بامارة او قضاء وانما ربحهم من هذه الحروب ما يرجعون به من الغنائم . فعندي اننا بدلاً من ان نترك الغنائم هنا نحملها معنا في صباح الغد ونجعل لها مكانًا بجانب معسكرنا فان ذلك ايسر على اصحابها من ان يتركوها في مكان يحول بينهم وبينه نهر »

الفصل السابع والستون

رسول امين

فلم ير عبدالرحمن بدًّا من الموافقة . فعادوا الى المعسكر وباتوا تلك الليلة هناك واصبحوا في اليوم التالي واخذوا في عبور النهر اما خوضًا او عومًا على قوارب نصبوها عرضًا وكان ذلك

النهر جدولاً صغيراً لا يعدُّ شيئاً بالنظر الى نهر لوار وهو يصب فيه . فعبر اولاً عبد الرحمن وهانىء ليعينا اماكن الخيم فوقفا على مرتفع اطلاً منه على ذلك السهل واخذا في تعيين الاماكن والجند يشتغلون في نصب الخيم وغرس الاعلام الى قرب الاصيل . فلاحت من هانيء التفاتة وهو ينظر الى الافق فرأى شبحاً يعدو نحوهما عدواً سريعاً فتعلق ذهنه به وجعل يتفرس فيه فرأى عليه لباس الرهبان فازداد استغراباً ثم رآه سقط على الارض وهو يشير بيده نحوهُ هاني فركض هانيء فرسه حتى وقف عنده فاذا هو حسان خادم سالمة وقد استلقى على ظهره وقبض باحدى يديه على جنبه كانه يشكو الماً هناك واسك بيده الاخرى شيئاً اوماً به نحو هانيء فترجل هانيء حالاً واراد ان يعين حساناً على الجلوس فاشار لهُ بعينيه ان يتركه فسأله عن امره فقال بصوت متقطع وهو يلهث وقد ضغط بكفه على جنبه من شدة الألم « ارسلتني مولاتي ... سالمة برسالة الى الامير عبد الرحمن ... من دير القديس مرتين ... فحملتها (وأشار بيده والرسالة فيها) حتى اذا خرجتُ من الدير ورأيت اعلامكم عن بعد اسرعت نحوكم فما شعرت الاّ ونبلٌ اصابني في جنبي من خائن اظنهُ عدلان الأحول .. فايقنت اني مائت ... فاسرعت حتى ادركم بهذه الرسالة لانها في غاية الاهمية ... فسقطت قبل الوصول اليكم ... فهذه هي الرسالة »

ثم انقطع صوته وتزايد لهثه واغمض عينيه وارخى يديه . فناداه هانيء فلم يجب وكان عبد الرحمن قد شاهدهما واسرع اليهما وسمع كلام حسان . فلما رآه في تلك الحال اسف لحاله اسفاً شديداً وكذلك هانيء وترجح عنده انه مائت ولكن الامل لا ينقطع من الحياة ما دام النفس فاشار عبد الرحمن الى هانيء ان يستقدم احد الاطباء

فركب بنفسه على ادهمه وركضه نحو الجند وصاح « هاتوا طبيباً » وبعد قليل جاء الطبيب وهو من نصارى الاندلس وقد قضى في خدمة العرب زمناً طويلاً . فاسرع الى حسان وجس نبضه فاذا هو ميت لا حراك به فامر ان يدبروا غسله ودفنه فحملوه الى خيمة خاصة بذلك

اما عبد الرحمن فتناول الكتاب وفضهُ واخذ يتلوه وهانيءٌ يسمع فاذا فيه :

« الى الامير عبد الرحمن الغافقي

« اكتب هذا اليك من دير القديس مرتين وقد وصلت اليه بعد مشقات يطول شرحها ساقصها عند اللقاء القريب ان شاء الله — وانما استعجلت هذه الرسالة لا خبرك بامر هام اطلعت عليه في اثناء سياحتي هذه - وهو ان المرأة التي تسمي نفسها ميمونة انما هي

لمباجة بنت الدوق اود وقد نصبت لي الحبائل الكثيرة في اثناء هذه السياحة — وهي التي حرّضت اباها على استنجاد صاحب اوستراسيا بكتاب ارسلته مع خادمها الاحوّل فاحذروه وافعلوا بها ما شئتم . ثم اني ابشركم بأن رئيس هذا الدير ناقم على شارل وقد وعدني بالمساعدة ولكنه استبقاني عنده رهينة . وانا في امن واكرام اطلب لكم النصر . واوصيك بفلذة كبدي مريم . والسلام »
سالمة

فما جاء على آخر الكتاب حتى بهت فنظر الى هانيء ثم أعاد نظره الى الكتاب وقد أخذ منه الاندهاش مأخذاً عظيماً فقال هانيء « لم اكن اعتقد في هذه الملعونة خيراً وكنت مع فرط جمالها اشعر بنفور من منظرها لسبب لا اعلمه . فكأن قلبي دلني على حقيقتها وكثيراً ما كنت استغرب اكرامك لها ... »

فقطع عبد الرحمن كلامه وقال « كنت اراقبها على حذر ولم اثق بها قط ولكنني كنت اتوقع منها نفعاً في اثناء حروبنا لانها من أهل هذه البلاد .. وقد قضي الامر الآن فيجب ان نتدبر في شأنها فما الذي ترى ان نفعله »

قال « ارى ان نقتلها حالاً ونريح أنفسنا منها »

قال « سننظر في ذلك بعد الفراغ من ترتيب هذا المعسكر »

قال ذلك وركب جواده وتحوّل نحو الجند لاتمام ترتيبهم — فجعل معسكره في نحو ثلث الضلع الممتد بين تورس ومعسكر اود وجعل فسطاطه في وسط المعسكر نحو الامام وبجانبه خيمة هانيء يليهما بالترتيب مضارب القبائل كل قبيلة على حدة وخيمة أميرها في وسط خيمها وراية الامير مغروسة في باب خيمته . وقد يكون للقبيلة الواحدة عدة امراء وعدة رايات باعتبار البطون والافخاذ . وجمع بين القبائل المتقاربة في النسب المضرية في جانب واليمنية في جانب وجعل البرابرة في جانب آخر جنوبي المعسكر ببقعة اختاروها هم وعبد الرحمن يسايرهم لانهم أكثر فئات الجند عدداً . فترتبوا باعتبار قبائلهم وبطونهم وكذلك الامم الاخرى من الانباط والشوام وهم اقل سائر الفئات . ثم أمر بالغنائم ان توضع في خيم نصبوها لها بجانب المعسكر من جهة الجنوب . والبرابرة طلبوا ذلك لتكون غنائمهم اقرب الى مضاربهم كأنهم خافوا ان يسطو عليها العرب ويأخذوها منهم . ونصبوا مرابط الخيل وراء المعسكر مما يلي النهر الصغير

وكان هانيء في اثناء ذلك الترتيب يطوف المعسكر لمساعدة عبد الرحمن وهو يفكر في ما قرأه عن ميمونة وسالمة وخطر له ان مريم اذا عرفت بمقام والدتها في ذلك

الدير ربما طابت الذهاب اليها فارتاح الى ذلك الفكر لاعتقاده انها تكون هنالك في مأمن على حدتها ولو قضي على العرب بالانهزام • على انه ترك الاختيار لها وان كان بالحقيقه لا يقوى على فراقها

الفصل الثامن والستون

المباحة

قضوا ذلك اليوم واليوم التالي في الانتقال والترتيب حتى لم يبق في الضفة الاخرى غير الاخبية والاحمال الثقيلة ونحوها وفي أصيل اليوم التالي سار عبد الرحمن وهانئ معاً الى الاخبية لمحاكمة ميمونة سراً وكان هانئ لا يرى باعثاً على المحاكمة ولو ترك الامر له لتطع رأسها بسيفه بلا سؤال ولا جواب • اما عبدالرحمن فاراد التصرف بالحكمة والروّية فلما وصلا الى الخباء الاكبر ترجلا ودخلا القاعة وبعث عبد الرحمن الى القهرمانة فجاءته بخلاخلها ودمالجها وهي تترجرج في مشيتها كانها في بعض قصور طليطلة في رغد ونعيم• فلما وصلت الى عبد الرحمن حيته • فقال « اين ميمونة »

قالت « لم أشاهدها من مساء الامس واظنها مع مريم في غرفتها »

قال « ابعثي اليها ان تأتينا وحدها »

فصفقت القهرمانة فجاءها بعض الصقالبة الخصيان فقالت « ادع السيدة ميمونة •• وقل لها ان الامير عبد الرحمن يحتاج اليها •• » وقد كلمته بالفاظ عربية مشوشة على نحو ما ينطق بها غرباء اللغة اذا تعلموها التقاطاً من أفواه الناس شأن اولئك الصقالبة والافرنج وأمثالهم ممن كانوا في خدمة العرب في تلك الايام

فاشار الصقلبي برأسه اشارة الطاعة وخرج ولبثوا في انتظاره وهانئ يود الانصراف ليرى مريم ويخبرها عن والدتها ويكون هو اول من يخبرها بذلك — وفي هذا السبق لذة يشعر بها كل انسان وخصوصاً بين المحبين — فان الرجل اذا سمع خبراً جديداً وهو بعيد عن امرأته او خطيبته اوحبيبته فانه يشعر بميل شديد الى اطلاعها عليه • واذا كان ما سمعه من قبيل السرّ كان أشدّ رغبة في مكاشفتها به وكلما بالغوا في تحريضه على كتمانه ازداد رغبة في كشفه وهو لا يعدّ ذلك افشاء للسر لانه يكاشفها به سراً

ويوصيها ان تكتمه • وربما كان السبب في لذة المكاشفة شعور الحبيبين بالامتزاج قلباً وروحاً بحيث لا يسوغ معذلك الامتزاج تكتم • وزد على ذلك ان المسارّة تزيد في توثيق عرى المودة فاذا تواد اثنان يزداد توادهما وثوقاً اذا كان بينهما سرّ لا يعلم به سواهما • ولهذا السبب كانت المحافظة على الاسرار الماسونية من أقوى أسباب شأنها وان لم تكن تلك الاسرار مهمه فكيف اذا كانت مهمة • بل كيف اذا سمع المحب خبراً يتعلق بشخص حبيبه كما كان الحال مع هانيء فان الخبر متعلق بمريم نفسها فلا غرو اذا وأيناه شديد الميل الى مكاشفتها

على أنه كان من الجهة الأُخرى يريد البقاء مع عبدالرحمن بعد مجيء ميمونة ليحرضه على قتلها فطال غياب الرسول فبعثت القهرمانة رسولاً آخر وآخر • وبعد برهة عاد الرسول الاول وحده وهو يقول « بحثت عن السيدة ميمونة في كل مظانها فلم أقف لها على أثر »

فبغت عبد الرحمن وهانيء اكثر من بغتة القهرمانة لعلمهما بما لم تعلمه فقال عبد الرحمن « وأين ميمونة يا خالة ؟ »

قالت « ربما كانت في شاغل ستعود منه قريباً •• »

قال « أني أريد مقابلتها الساعة اذهبي انت للتفتيش عنها •• »

فنهضت وهي تقول « لم ارها من غروب الامس وليس احد أعلم برواحها وغدوها من مريم » ثم خرجت وهي تتمايل وتتدحرج وطال غيابها • ثم عادت ومريم معها وهي تقول « لم أجدها في مكان • فهي بلا شك في غير هذه الاخبية •• »

ولما دخلت مريم فاحت رائحة طيبها وابتسم لها عبدالرحمن رغم غضبه من ميمونة وخوفه من افلاتها بعد ظهور ذنبها • وكان في وجه مريم من المعاني والملامح مالا يستطيع الناظر معه غير الاعجاب بها والانشراح لرؤيتها فكيف بهانيء بعد ان ملكت فؤاده واستولت على عواطفه حتى أصبح يغار عليها من النسيم فاصبح عند دخولها كله آذاناً وعيوناً يراقب ما يبدو منها أو من عبد الرحمن عند المقابلة • ولا مسوغ لتلك الغيرة غير الحب الشديد لان الحب يدعو الى الغيرة حتى من أقرب الناس نسباً وأبعدهم شبهة • وهاك لسان حال المحب الغيور يخاطب حبيبته

اغار عليكِ من نظري ومني ومنك ومن خيالك والزمان
ولو اني وضعتك في عيوني الى يوم القيامة ما كفاني

اما عبد الرحمن فما لبث ان ابتسم لمريم وأمرها بالقعود حتى ابتدرها بالسؤال عن

ميمونة فقالت « لم أشاهدها من مساء الامس وقد قضيت كل ما مضى من هـذا النهار وأنا ابحث عنها لانها رفيقتي ومعزيتي على غياب والدتي »

فقال « وهل عرفت سبباً يدعو الى خروجها »

قالت « لم اعرف شيئاً من هذا القبيل ولكنني رأيت منها ما يدل على اضطراب بالها من أصيل الامس فلم اعبأ » ولا سألتها عن سببه .. »

قال « هل رأيت أحداً جاءها بكتاب أو خطاب في صباح الامس »

قالت « لم أشاهد غير بعض الخدم ممن تعودوا خدمتها .. »

قال « هل كان بينهم عدلان الاحول .. »

قالت « نعم .. وكنت قد مضى عليّ مدة لم اشاهده . »

فلما قالت ذلك تبادل عبد الرحمن وهانيء نظرتين تفاهما بهما فتحققا ان عدلان بعد ان رمى حساناً بالنبل جاء الى ميمونة وحرضها على الذهاب الى أبيها خوفاً من انكشاف أمرها

الفصل التاسع والستون

هانيء ومريم

وكانت مريم تنظر الى هانيء وتتوسم في وجهه خبراً وخصوصاً بعـد تلك الاسئلة وكانت القهرمانة قد خرجت ولم يبق هناك غـير مريم والاميرين . فنظرت مريم الى هانيء نظرة اغنته عن خطاب طويل عريض ففهم انها تستفهمه عما يكتمانه . فالتفت الى عبد الرحمن فرآه مستغرقاً في التفكير فقال له « الارجح ان تلك الخائنة علمت بافتضاح أمرها ففرّت الى ابيها ولكنها لن تنجو من حدّ هذا السيف باذن الله .. »

فبغتت مريم لما سمعته لأنهُ يناقض اعتقادها في ميمونة على خط مستقيم وظهرت البغتة في وجهها بما تصاعد اليه من الدم وابرقت عيناها والتفتت الى هانيء ولم تتمالك ان سألته قائلة « وما الذي حدث حتى استوجبت هذه المسكينة غضب الامير وعهدي انها من أشد الناس غيرة واصفاهم سريرة ... »

فالتفت هانيء الى عبدالرحمن وقال « أتأذن لي بذاك الكتاب .. »

فاستاء عبد الرحمن من تسرع هانيء في طلب الكتاب لانه لم يكن ينوي اطلاع مريم عليه خوفاً من قلقها على والدتها ولم يبدِ استياءه مراعاة لاحساس هانيء ولكنه انكر الكتاب وتظاهر انه لايعرف مكانه. فازدادت مريم قلقاً واضطراباً وسبق الى خاطرها ان لذلك التكتم سبباً يسوءها ذكره ولم يخطر ببالها شيء غير والدتها فصاحت بلهجتها المعهودة ولم تستطع امساك عواطفها « ما الذي تكتمانه عني ... هل أصاب والدتي شيءٌ (شرٌّ) ... اين هي .. » قالت ذلك واجهشت للبكاء

فأثر منظرها في هانيء فلم يتمالك ان قال « اطمئنك يا مريم ان والدتك في خير وأمان » .

قالت « واين هي .. ؟ »

قال « هي في هذا الدير » وأشار الى دير القديس مرتين

قالت « ولماذا لم تأت الى هنا العلها مريضة ام مسجونة ام ماذا .. »

فتظاهر عبد الرحمن عند ذلك بالبحث عن الكتاب حتى وجده فدفعهُ اليها وهو يقول « هذا هو كتابها وفي قراءته جوابٌ كافٍ »

فتناولته بلهفة فلم تستطع رؤية الاحرف مما يغشى عينيها من دموع البغتة والخوف والامل والفرح معاً. فمسحت عينيها بكمها وقرأت الكتاب حتى انتهت الى آخره ولما وصلت الى قولها « واوصيك بفلذة كبدي مريم » صاحت « أماه » وقد خنقتها العبرات . ثم اعادت النظر الى ما ذكرته عن ميمونة فبهتت وحسبت نفسها في حلم ثم رفعت رأسها الى عبد الرحمن وقد تحوّل حنانها النسائي الى غضب وقالت « قبح الله تلك الخائنة .... قد فهمتُ الآن سبب اختلائها بذلك البربري الاحول في مساء الامس ... ولكنها ستذوق جزاء تلك الخيانة ان شاء الله » ثم سألته عمن حمل ذلك الكتاب لكي تواجهه وتستزيده من اخبار والدتها . فقص عليها هانيء ما كان من امره وانه مات ودفنوه فاسفت عليه كثيراً حتى بكت ولولا اشتغال خاطرها بخيانة ميمونة والشوق الى والدتها لندبته كثيراً لانه ربَّاها منذ طفوليتها وكان ضنيناً بها حريصاً على راحتها وراحة والدتها — ولكنها كانت في قلق عظيم على والدتها واصبحت لا تصبر عن رؤيتها فنظرت الى عبد الرحمن بعينين يغشاها الدمع وتوسلت اليه بصوت يمازجه ذل السؤال وقالت « ألا يسمح لي الامير بالمسير الى والدتي لاشاهدها واقبّل يدها ثم اعود ؟ »

فتأثر عبد الرحمن لسؤالها ولم يسعه الأ الاجابة فقال « لا امنعك من الذهاب اليها

ولكنني احب المحافظة على وصيتها وقد رأيتِ انها ختمت هذا الكتاب بك ٠٠٠ »

فقالت « لا باس عليَّ باذن الله والطريق سهل والمكان قريب وكأني ارى الدير من هنا فاركب اليه مسرعاً ٠٠ »

فقال هانيء « لا نخاف عليكِ باساً بعدما شاهدناه منكِ في مضيق دردون ولكنني ارى ان اسير في ركابك حتى اوصلك الى باب الدير واعود » قال ذلك بنغمة التصميم القطعي فاستحسن عبد الرحمن رأيه فقال « اذا كان لابد من الذهاب الى الدير فانهضا الآن حتى تصلاه قبل الغروب ٠٠٠ هل يحتاج هانيء الى استحثاث لسرعة الرجوع ٠٠٠ ؟ اما مريم فلا باس من بقائها هناك بل هو آمن عليها ٠٠ »

ففرح هانيء بتلك المهمة فنهض وامر بفرس لمريم فلبست ثوبها والتفت بعباءتها وركبت وركب هانيء ادهمه والتف بعباءته واصلح عمامته وساقا الجوادين سوقاً حثيثاً وقطعا النهر الصغير على جسر ما نصبوه بالامس وسارا شرقاً شمالياً يلتمسان دير مرتين ٠ فبعد ان ركضا جواديهما برهة امسكاها ومشيا متحاذيين وقد حلت لها تلك الخلوة فاراد هانيء مداعبة مريم فقال لها « أتعلمين ما وراء هذه الابنية »

قالت « وراءها النهر الكبير »

قال « وما اسمه ٠٠ »

قالت « نهر لوار » بلفظ الراء غيناً ولكنها لم تكد تنطق بهذين اللفظين حتى فطنت للوعد المضروب لاقترانها هناك فخجلت وحوّلت وجهها الى عرض البر وارادت تغيير الحديث فقالت « وكأني ارى جند الدوق شارل آتياً نحونا »

فبغت هانيء وتفرس في الغبار المتصاعد وراء محلة الدير وقال « لاشك انكِ ترين معسكر الدوق شارل واما الغبار المتصاعد فوقه فليس غبار المسير ولكنهم يلاعبون خيولهم على سبيل التمرين ٠٠٠ » قال ذلك وأخذ يفكر في ما يتوقعه من القتال الهائل في تلك الساحة ولكنه كان شديد العزم قوي القلب لانه لم يتكسر في قتال بعد ولذلك فاول ما يسبق الى ذهنه عز الانتصار

الفصل السبعون

سالمة في الدير

وبينما هو يفكر في ذلك سمع جرساً يقرع فاصاخ بسمعه فابتدرته مريم قائلة «هذا جرس الدير لاننا على مقربة منه» وكانت الشمس قد دنت من المغيب ولو التفتا اليها لرأيا شكلها يتجسم وجرمها يتعاظم وحدتها تنفثئ حتى يخيل لمها اذا لمساها انها لا تلذع — ولكنهما كانا في شاغل عن ذلك بغبار رأوه يتصاعد في بعض السهل من جهة الجنوب قرب معسكر اود كأن خيالة يسوقون افراسهم . فحملا ذلك على ما شاهدوه في معسكر شارل . ووصلا في الغروب تماماً الى باب الدير فقرعه هانئ فاطلّ الراهب البواب فخاطبته مريم بالافرنجية انها تسأل عن ضيفة هناك . فنزل وفتح الباب ورحب بها واستغرب لباس هانئ وخصوصاً عمامته لانه لم يكن رأى عربياً قط وان كان قد سمع بمجيء العرب للحرب . فترجلت مريم وهمّ هانئ بوداعها للرجوع وقلبه لايطاوعه على ذلك الفراق وكانت هي في مثل حاله فلما اراد وداعها نظرت اليه نظرة خرقت ادراعه الى احشائه فوافقت رايه فتحوّل عن ادهمه وهو يقول «أرى ان اوصلك الى والدتك واطمأن عليها وعليك ثم اعود» فاستحسنت انتباهه لغرضها وابتسمت ومشت فمشى هو بعد ان اشار الى بعض خدم الدير ان يمسك الجوادين فاخذهما البواب الى الاسطبل . ولما دخلا من الباب الثاني استقبلهما راهب آخر وسأ لهما عما يطلبانه فقالت مريم «عندكم نزيلة اسمها سالمة ؟»

فابتسم الراهب وقال «نعم» واشار اليهما فتبعاه حتى دخلوا الدير وصعد بهما الى علية سالمة . وكانت سالمة لاتزال بعد ارسال حسان منفرده في تلك العلية تارة تطل منها الى النهر وطوراً تقعد على الارض تفكر في مريم وقد ذاب قلبها لفراقها وكانت لم تفارقها قبل هذه المرة قط — ثم تنتقل بافكارها الى ما تكتمه في صدرها ولم يأن وقت كشفه وتخاف ان يطول وقته او تحول الاقدار دون ذلك فتذهب مساعيها ادراج الرياح — ونهضت في صباح ذلك اليوم منقبضة النفس فنزلت الى الكنيسة لاستماع الصلاة وتخشعت في صلاتها كثيراً ودعت لابنتها بالسلامة ثم صعدت الى عليتها فاحست كأنها في سجن مع انها في احسن غرف الدير واكثرها انطلاقا . ولكن السجن سجن الارادة فقد يحبس الانسان نفسه بارادته اياماً في مكان مظلم وهو يعدّ نفسه مطلقاً فاذا حكم عليه بالانحباس

يوماً واحداً ولو في افخم القصور فانه يعدُّ نفسه سجيناً

ولما عادت من الصلاة وصعدت في السلّم حدثتها نفسها ان تطل على سهل تورس لعلها ترى رسولاً قادماً او تنسم ريح ابنتها اذا رات معسكر العرب عن بعد فمشت حتى اطلت من سطح الدير على ذلك السهل وعرفت مكان كل من العرب والافرنج فخفق قلبها لما تتوقعه من القتال المائل هناك . ثم عادت الى عليتها وهواجسها تتزايد بالخلوة — فلما كان الغروب احست بزيادة الانقباض وشعرت بضيق وقنوط . وساعة الغروب اثقل ساعات اليوم على الانسان وهو حرٌّ مطلق فكيف اذا كان سجيناً — فهمّت بالخروج للصلاة فسمعت وقع اقدام على السطح فخفق قلبها ولبثت لترى ما يكون فلما سمعت الخطوات تقترب نحوها تزايد خفقان قلبها واخيراً سمعت قرع البـاب فكأنهم قرعوا صدرها . فنهضت وركبتاها ترتجفان وفتحت الباب فاستقبلها الراهب واشار بيده الى رفيقيه . فلما رأت ابنتها صاحت « مريم » والقت نفسها عليها وجعلت تقبلها وتشمها والدموع تتساقط من عينيها حتى كاد يغمى عليها ومريم تقبلها وتقبل يدها ودموعها تتساقط بهدوٍ . ثم دخلتا العلية وهانئ لا يزال بالباب فقالت مريم « هذا الامير هانئ قد جاء ليوصلني ويراك ثم يعود »

فرحبت به واثنت عليه ودعته للدخول فقال « لابد لي من سرعة الرجوع لاننا في حال تدعو الى التيقظ . كيف انتِ . ؟ قد وصلنا كتابك وشكرنا فضلك واهتمامك . . »

فقالت « وماذا فعلتم بتلك الخائنة »

قال « لم نجدها في المعسكر مع انها كانت فيه الى الامس فالظاهر انها علمت بكتابك ففرّت الى ابيها »

فلطمت سالمة كفًّا بكف وصاحت « نجت هذه الملعونة . . . الظاهر ان شيطانها الاحوَل اخبرها بخبرنا فايقنت بكشف امرها فهربت . . »

فقالت مريم « قبح الله ذلك الاحوَل فانه اصل شرور كثيرة ولو علمت الذي فعله هذا الشيطان لحزنتِ »

قالت « ما الذي فعله ؟ »

قالت « انه رمى حساناً بنبل وهو ذاهب من عندك فاصاب جنبه فحمل ذلك المسكين جرحه واسرع حتى ادرك معسكر العرب وهو على آخر رمق من الحياة فبلّغ الرسالة ومات . . »

فصاحت « مات ؟ حسان مات ؟ . . »

قالت « نعم يا اماه مات اشرف ميتة . . مات شريفاً اميناً صادقاً وقد قاموا بواجب

غسله ودفنه رحمه الله ...»

فاطرقت سالمة وسكتت ثم هزّت راسها وهي تقول بصوت منخفض «مسكين حسان ... مات ولم يشاهد حفيده بعد ان علم ببقائه حيًّا ولا شاهد نتيجة انتظارنا الطويل لهذه الواقعة المهولة ...»

الفصل الحادي والسبعون

دعوة خطرة

وكان هانئ قد دخل الغرفة وذهب الراهب فأتاهم بالشمع فأضاؤه وغرسوه في مشمعة ناتئة من الحائط وعاد الراهب. وكانت مريم في شاغل داخلي يتعلق بهانئ لانها احبته ووالدتها لا تعلم. وقد اوصلها الى أمها وسيرجع قريباً ولا طاقة لها بفراقه وهي تريد أن تستطلع رأي والدتها بشأنه فاذا لم توافقها على حبه كانت المصيبة كبيرة عليها. وأرادت من الجهة الثانية ان تشغلها عن حديث حسان فقالت «الا تعرفين الامير هانئاً يا أماه ؟»

فابتسمت وقالت «كيف لا اعرفه ؟ اليس هو الذي انقذنا من ذلك الامير البربري ؟»

قالت «بلى. وهو اكبر أمراء جند العرب بعد الامير عبد الرحمن. والامير عبد الرحمن يحبه ويعتمد عليه لانه امير الفرسان وهو يده اليمنى في تدبير الجيش..»

فخجل هانئ من هذا الاطراء واحب ان يعترض ليغطي خجله فلم تمهله سالمة فقالت «لم يخف عليّ شيء من شأن هذا الامير وقد صحبته في مهمة الى أسقف بوردو الا تذكرين ذلك ؟»

فانشرح صدر مريم واطمأن بالها وهمت بالتطرق الى ما وراء ذلك فسمعت دبدبة وضوضاء فتوقفت وانصتوا جميعاً ثم سمع هانئ جواده يصهل صهيلاً متواصلاً كأنه يطلب النزال فوقف هانئ وهو يقول «أرى جوادي يدعوني الى النزال وهو ينبهني الى سرعة الرجوع...؟»

وما أتم كلامه حتى سمعوا خطوات قادم على السطح ثم فتح الباب ودخل الراهب

رفيق حسان وكانت سالمة تحسبه سافر معه فلما دخل رحبت به ودعته للجلوس فاذا هو يهم بالكلام والبغتة ظاهرة في جهه وكأنه أراد الكلام فارتج عليه فغلته أمسك حياء من الحضور فقالت له بالافرنجية « تفضل يا حضرة الاب اخبرنا بما عندك وليس هنا أحد غريب »

فقال ولسانه يتلجلج « كلفني رئيس هذا الدير ان ابلغك أمراً يعزّ عليّ ان أكون الرسول فيه ... »

تخفق قلب سالمة ومريم واما هانيء فلم يفهم شيئاً لانه لا يعرف الافرنجية ولكنه لحظ من تغير الوجوه ما أقلقه — فقالت سالمة « قل يا حضرة الاب ... وماذاك .. »

قال « ان الدوق اود بعث بكوكبة من الفرسان بالعدة والسلاح وقد وصلوا الدير ومعهم رسول يحمل كتابا الى حضرة الرئيس يطلب منه فيه ان يبعث بك اليه .. ونظراً لما يعلمه الرئيس من دالتي عليك بعث اليّ واطلعني على ذلك الكتاب وشاورني في شأنه فحسّنت له ان يمتنع عن تسليمك فاظهر انه يودّ ذلك من صميم فؤاده ولكنه يخاف العاقبة وهو لا يدري لمن تكون الغلبة في الحرب القادمة وواجباته تقضي عليه ان يكون نصيراً للافرنج — ثم كلفني ان اكون انا برفقتك من قبله لأوصي الدوق اود برعايتك واذا شئت اخذنا من الرئيس كتاب توصية بشأنك ايضاً »

وكان الراهب يتكلم ولسانه يكاد يتلعثم والتأثر بادٍ في كل حركة من حركاته وكانت سالمة ومريم متطاولتين بعنقيهما وقد شخص بصرهما في الراهب كأنهما اصيبتا بالجمود فلما فرغ من قوله قفّ شعرهما وخصوصاً مريم وكان هانيء ينظر اليهما ويقرا تلك العواطف في وجهيهما فلما فرغ الراهب من الكلام قال هانيء « ما الخبر .. »

قالت « مريم ان الدوق اود بعث الى رئيس هذا الدير يطلب والدتي منه »

قال « وماذا يريد منها »

قالت « يطلبها اليه لغرض لا نعلمه »

قال « لا تذهب .. »

فقالت سالمة « بل ارى ان اذهب لاني لو ابيت الذهاب لاخذوني قهراً .. »

فصاح هانيء « قهراً ؟ .. ياخذونك قهراً وهانيء معك ؟ ذلك لا يكون » ووقف ويده على قبضة حسامه وقد اخذ الغضب منه مأخذاً عظيماً

ففرحت مريم بما ابداه هانيء من الحمية بشأن والدتها ولم تكن هي اقلّ حمية منه فقالت

« كيف نسمح يا اماه ان يأخذوك اسيرة ولو كانوا الوفاً فاننا ندافع عنكِ الى الموت ٠٠ »

فقالت « أعلمُ ذلك ولكن شروط الحرب تقضي علينا ان لا نعرض امير فرسان العرب وعمدة امرائهم لشرذمة من الافرنج ربما اصابه احدهم بنبل كما اصابوا حساناً بالامس فيذهب الامير هانىء رخيصاً لا سمح الله وهو معوّل جند العرب وقائدهم وواسطة عقدهم فكأننا عرضنا الجند كلهُ للخطر ٠٠٠ فاذا كنتما تحبانني اطيعاني في ما اقول ولا تخافا عليّ بأساً لاني سأسير مكرمة وسيكون معي حضرة الراهب وسأحمل من رئيس الدير كتاب توصية او نحوه بحيث لا اخشى شرّاً — بل ارجو ان اخدم العرب وانا هناك مالا استطيعه وانا معهم ومع كل ذلك فلا حيلة في قضاء الله ٠٠ »

فقال هانىء « انكِ تحاولين محالاً — اكون حاضرًا وتساقين انتِ اسيرة ؟ ٠ ذلك لا يكون ابدًا ٠٠ ووالله لأعمل السيف في الافرنج ولو كانوا الوفاً ٠٠٠٠ »

فقطعت سالمة كلامه قائلة « اذا فعلت غير ما اقوله فانك تكدرني وانا اعلم انك لا تريد كدري — ان الدوق اود يعرف عني اكثرمما تعرف انت او تعرفه ابنتي هذه — وهو لا يطلبني اليه ليسوءني ولو كان ذلك غرضه لفعله وانا سجينة عنده الى الامس ٠ دعنا الآن من هذا البحث واتقدم اليك بشرف العرب وعز الاسلام ان تطيعني في ذلك وقد آن لي الآن ان اطلعكما على شيء جديد حفظته منذ اعوام ٠٠ » ثم التفتت الى الراهب وقالت « قل لحضرة الرئيس اني أتأهب للخروج حسب امره بعد ساعة او ساعتين لغرض لي مع ابنتي هذه قبل سفري »

فحنى الراهب رأسه وخرج

الفصل الثاني والسبعون

سرٌّ جديد

وبعد خروجه نهضت سالمة واصلحت رداءها كأنها تستعد للخروج وجعلت تخطر في ارض الغرفة ذهاباً واياباً ثم وقفت الى النافذة واطلت على النهر ولبثت صامتة ومريم وهاني ينتظران امرها ويعجبان لتلك الحركة وذلك السكوت ٠ ثم تحولت عن النافذة واقبلت اليهما وقد تغيرت سحنتها واقطبت اسرتها وبدا الاهتمام في عينيها وذهب ما كان في محياها من

الابتسام الطبيعي وتحوّل الى هيبة وغضب . فلما رآها هاني على تلك الحال تهيب والتفت الى مريم فرآها اكثر اهتماماً منه ولكنهما ألجما عن الكلام واصابهما ذهول — اما سالمة فنظرت الى مريم وخاطبتها قائلة « اتعرفين من هو والدك يا مريم ؟ »

فقالت « كلاّ يا اماه » وتوردت وجنتاها من الخجل وبغتت لذلك السؤال على غير انتظار ولم يكن هانئ اقل استغراباً منها ولكنه ظلّ صامتاً ليرى ما يكون

قالت سالمة « اتعرفين من هي والدتك ؟ »

فازدادت مريم استغراباً وقالت « نعم هي انتِ . . »

ثم التفتت الى هانئ وقالت « اعلم يا بنيّ اني اؤتمنت على هذا السر منذ نحو عشرين سنة على ان لا ابوح به الاّ لقائد جند العرب بعد عبور هذا النهر ولكن قضت الاحوال ان ابوح ببعضه قبل ذلك الحين لامير هو على ما اعلم يتلو القائد الاكبر وللضرورة احكام— لقد ضاق صدري عن كتمان هذا السر بعد هذا الزمن الطويل وقد استخرت روح ذلك العزيز صاحب هذا السر ان اكشفه في هذه الساعة لابنتي ولك يا هانئ على شرط ان تحتفظا به حتى تبلغاه الى الامير عبد الرحمن بعد هذه الواقعة — وليس قبلها . فاصغيا »

وكانت سالمة تتكلم وهانئ شاخص ببصره ومريم تكاد يجمد الدم في عروقها لفرط تأثرها من منظر امها وما شاهدته في سحنتها من المعاني التي لم ترها فيها من قبل

فقعدت سالمة واصلحت ثوبها واخذت في قص حديثها فقالت وهي توجه خطابها لمريم انت تعلمين يا مريم ان والدتك سالمة ولكنك لا تعلمين من هي سالمة هذه . وقد سألتك عن والدك فقلت انك لا تعرفينه لانه توفي وانت طفلة ولم اذكره لك قط ولم يكن احدٌ يعرف نسبك غير ذلك الشيخ المسكين حسان وقد قتل ولو اصبتُ انا بنبلة لذهب هذا السر ادراج الرياح ولذلك عجلت في كشفه لصاحبه — فاعلمي يا مريم ان امك التي تسميتها سالمة هي أجيلا امرأة رودريك ملك اسبانيا الذي قتله العرب في واقعة فحص شريش منذ بضع وعشرين سنة لما جاء طارق لفتحها . وبعد ان قتل رودريك المسكين جاء موسى بن نصير فاتم الفتح حتى بلغ الى طليطلة عاصمة اسبانيا في ذلك الحين وكنت انا هناك فصالحت على نفسي بعد وفاة زوجي واقمت مكرمة وعشت في هناء ورغد كما كنت في ايامه وكانوا يسمونني ام عاصم ولم يمسني احد بسوء . لان موسى رحمه الله كان عادلاً رفيقاً يعلم كيف يفتح البلاد . ولكن مدة حكمه لم تزد على بضع سنين فوشى به الواشون حتى استقدمه الخليفة الى الشام وسجنه . وكان نصب عيني موسى

بعد ان فتح الاندلس وجمع غنائمها ان يوصل الفتح في هذه البلاد وما وراءها حتى يأتي القسطنطينية ويقطع منها الى الشام ويفتح ما في طريقه من البلاد [1] حتى يصير البحر الابيض محاطاً بالمسلمين من كل جهاته . ولو فعل ذلك يومئذ لكان هيناً على المسلمين لان البلاد كانت في ضعف والحكام في انقسام

« فلما أُخذ موسى الى الشام استخلف على الاندلس ابنه عبد العزيز بن موسى (قالت ذلك وتنهدت) وكان عاقلاً حكيماً عادلاً وقد أطلعه ابوه على ما كان في عزمه من فتح هذه البلاد التي يسميها العرب الارض الكبيرة . وكنت انا لا ازال في طليطلة فلما تولى عبد العزيز ورآني ورأيته أحبني واحببته فطلب الاقتران بي ولم اكن اطمع برجل ارفع منه مقاماً . فقبلت على ان ابقى على النصرانية فرضي ولكنه علمني الاسلام فوجدته كثير الشبه بمذهب اجدادنا القوط (الاريوسية) . ثم انتقل بي الى اشبيلية فاقمنا هناك بضع سنوات كان في اثنائها مثال التعقل والحزم وقد اسرّ اليّ اموراً كثيرة كان عازماً على اجرائها خدمة للعرب والمسلمين اهمها فتح هذه الارض الكبيرة (اوربا) وقد كان ذلك هيناً كما قدمت وخصوصاً لعبد العزيز لانهُ رحمهُ الله كان يعامل اهل البلاد بالعدل والمحاسنة والرفق فاصبح الناس على اختلاف طوائفهم يحبونه . وشاع ذلك عنه الى اقصى بلاد النصرانية ولو طال مقامه لفتح هذه البلاد على اهون سبيل لان اهلها كانوا في انتظار من يخوّلهم حقوقهم وحريتهم ولا فرق في مذهبه عندهم . وكثيراً ما كان عبد العزيز يبين لي رغبته في ذلك الفتح وانا احرضه على اكرام الاهالي والاحسان اليهم وهو يطيعني لما يترتب على ذلك الاحسان من الكسب العظيم . وقد بذل جهده من الجهة الاخرى في جمع كلمة المسلمين من العرب والبربر وغيرهم لانه بغير هذا الاتحاد لا يستطيع عملاً

« وانه لفي هذه الآمال اذ وشي به الحساد كما وشوا بابيه واتهموه بانه طامع في الملك لنفسه وقد بنوا ادلتهم على محاسنته اهل البلاد وقالوا اني غلبتُ على عقله حتى حملته على أن يأخذ اصحابه ورعيته بالسجود له اذا دخلوا عليه كما كان يفعل زوجي رودريك على زعمهم . ومن مفترياتهم اني جملته يفتح باباً قصيراً في مجلسه الذي كان يجلس فيه حتى اذا دخل أحدهم منه طأطأ رأسه كالراكع [2] والله يعلم انهم افتروا عليّ ذلك افتراء ولم يفقهوا سرّ الامر . ولما نفذت الوشاية به عند الخليفة لم يستوفدوه اليه كما

(١) نفح الطيب ١١٠ ج ١ (٢) ابن الاثير ج ٥

فعلوا بأبيه ولكنهم دسوا له من قتله وهو في المسجد (١) والمقى عليه »

ولما بلغت الى هنا شرقت بريقها ووقفت عن الكلام وهانيء ومريم كلاهما في حلم ولا يتجرّآن على التلفظ لئلا يقطعا كلامها. فقالت وهي تنظر الى مريم وتحاول الابتسام « وكنت قد ولدتك منه وبلغتِ السنة الثالثة وكان يحبك حباً لا مزيد عليه خلافاً لمن ولدله من النساء الاخريات وكان لا يهنأ له عيش الا اذا قبلك وضمك الى صدره صباحاً ومساء. واذا رجع من مجلسه وأتى قصره جعل يلاعبك ويبذل جهده في ما يرضيك حتى نسيني من أجلك . فلما علم بما نصبوه له من الحبائل وتحقق وقوع القضاء دعاني ليلة مقتله قبل نزوله الى المسجد فأتيته وانتِ على ذراعيّ فتناولكِ وجعلك في حجره وطفق يقبلك ويبكي بكاء مرّا وهو يشهق شهيق الطفل فلم أتمالك عن البكاء معه لأني احببته حباً كثيراً لما رأيته من صدق محبته وكبر نفسه وحسن مقصده. وبعد ان بكى وودعك نادى خادمه حساناً ووصاه بي وبك ثم التفت اليّ وقال (قد أبى هؤلاء القوم الا ان يضيعوا تعبي ويفسدوا ما دبرته لدولتهم مما لم يكونوا يحلمون به . أما موتي فبقضاء الله وقدره فلا اطالبهم به بل انا اشفق على ما اضاعوه وسيضيعونه بقتلي مما دبرته لهم لأني لا أظنهم سيتوفقون الى رجل آخر يغار على الاسلام غيري ويتوفق له ما توفق لي من الاحوال المساعدة على الفتح وهي ارضاء الاهالي وجمع كلمة المسلمين وتوفر الاسباب الأخرى المؤدية الى ذلك) . ثم أشار اليك وقال (لو كانت هذه الحبية غلاماً لاوصيتك بتربيته لهذه الغاية ... سأموت في الغد آسفاً على الفرصة التي اضاعوها بجهالتهم ولكنني أوصيك ان تربي ابنتنا هذه تربية عربية وتعلميها ركوب الخيل ولا تخبريها من هو أبوها ولا تجعلي عربياً يعرف بها الا من توسمت فيه الغرض الذي ذكرته وتوفرت فيه الاسباب المساعدة عليه . فاذا رأيت قائداً عربياً نهض للفتح وقد ادرك العوامل المساعدة على ذلك فان هذه الفتاة له زوجة او ابنة او كما يشاء)

ولما قال ذلك أخرج من جيبه هذه المحفظة (واستخرجت هي المحفظة من جيبها) ودفعها اليّ وهو يقول (واذا توفق المسلمون الى ذلك الرجل فانه فاتح هذه البلاد لا محالة. فاذا تمكن من الفتح حتى بلغ نهر لوار فقصّي عليه خبري واطلعيه على وصيتي وسلمي هذه الابنة له ومعها هذه المحفظة فان فيها ما ينفعه وينفع المسلمين)

(١) جاء في صفحة ١١٤ من هذه الرواية انهم قتلوه في طليطلة والصواب في اشبيلية

فاخذت المحفظة وحفظتها معي من ذلك الحين ولم تفارقني يوماً واحداً ولا ساعة واحدة وانا لا اعلم ما فيها • فلما قتلوه تلك القتلة الشنيعة سامحهم الله لم يبقَ لي عيش في الاندلس فبرحتها ومعي حسان وعنده كل اسراري وقد كان خادماً أميناً مخلصاً رحمه الله

«وقد تولى الاندلس بعد عبد العزيز عدة امراء وأكثرهم تحفزوا للفتح ولكنهم لم يظفروا به لطيشهم وعتوهم وطمعهم • حتى اذا سمعت بعبد الرحمن وما أتاه قبل النهوض للفتح من طوافه باسبانيا وتعهدهِ أحكامها وعزل الضعفاء وأهل المطامع ومحاسنة أهلها وسعيه في جمع كلمة الجند من العرب والموالي قلت هذا هو الرجل المنتظر • وصبرت حتى أتى بوردو وفتحها وكان ما كان مما تعرفينه » ثم وجهت كلامها الى هانيء وقالت « فالذي أراه ان الامير عبد الرحمن هو الرجل الذي عناه الامير عبد العزيز • فمريم له وهذه المحفظة (ودفعتها الى مريم) معها أيضاً • ولكن بالطبع لا يكون له شيء من ذلك الا بعد قطع هذا النهر » فتناولت مريم المحفظة وخبأتها بين أثوابها

الفصل الثالث والسبعون

الوداع

وكانت سالمة تتكلم والعرق يتصبب من جبينها وينسرب على خديها حتى يقطر على ثيابها وقد احمرت عيناها وتوردت وجنتاها من شدة التأثر • أما مريم فانها نهضت مبهوتة وقبلت والدتها وهي تقول « أنت والدتي والحمد لله فقد أقلقتِ بالي بسؤالك اذا كنت أعرف والدي فخفت ان أكون ابنة سواك — فاذاً أنا عربية ووالدي أمير عربي وأمي ملكة الاسبان ••»

فقطع هانيء كلامها وقد غلب عليه الغرام وسره تفويض امر مريم الى عبد الرحمن لسهولة نيله اياها على يده وقال « لا شك انك عربية الاصل عريقة في الحسب والنسب» والتفت الى سالمة وقال لها « ان حديثك ياسيدتي قد نقش على صفحات قلبي وأراك فقت العرب بحفظ الوداد ووفاء العهود وتفضلت عليهم بالحب المتين لرجالك ونصرتهم بسعيك وفديتهم بنفسك فبورك فيك • والله لو كان في رجالنا عشرة مثلك أو مثل ابنتك هذه

لفتحنا العالم لامحالة . ولكننا محاطون بجماعة لا يجمعهم الا الجشع وقلّ فيهم من يفهم معنى الفتح والنصر وانما يفهمون الغنائم والسبايا . ونحن في كل يوم نقاسي العذاب في سبيل التوفيق بين قبائلهم وشعوبهم ولو كان أميرنا غير عبدالرحمن ما استطعنا الوصول الى هنا . فنطلب اليه تعالى ان يأخذ بناصرنا حتى نقطع هذا النهر واذا قطعناه هان كل عسير » والتفت الى مريم وضحك ففهمت انه يشير الى زواجهما ولكن قلقها لفراق والدتها شغلها عن الخجل

وكانت سالمة في اثناء ذلك مشتغلة بمسح العرق عن وجهها وكأنها أحست بحمل نزل عن صدرها بعد كشف ذلك السرّ لكنها انتبهت للحفظة فقالت لمريم اوصيك بتلك الحفظة اعتني بها ولا تسلميها الاَّ لعبد الرحمن الغافقي بعد عبور هذا النهر »

فقالت مريم « والآن لا بد من ذهابك الى الدوق اهد ؟ »

قالت « نعم ولا بأس عليّ منه كوني في راحة واعلمي انك في كفالة الامير عبد الرحمن فقد اوصيته بذلك من قبل »

فتنسمت من هذه التوصية ان والدتها لاترجو اللقاء بعد هذا الفراق واحست سالمة انها تريد مراجعتها فنهضت وهي تقول « لقد آن لي اجابة طلب الدوق » قالت ذلك وضمت مريم الى صدرها واخذت في تقبيلها تكراراً وكلاهما تبكيان وهما متعانقتان متماسكتان كانهما لا تريدان الفراق . فأثر منظرهما في هانيء حتى كاد يبكي ثم خاف عليهما فتقدم وفرق بينهما فرأى عيني سالمة حمراوين من شدة البكاء . وهي مع ذلك تنظر الى ابنتها وتبتسم ومريم تقول لها « قلت ان هانئاً لايجب التفريط به لحاجة الجند اليه وانا ما الفائدة مني دعيني اسير حيثما تسيرين »

فقطع هانيء كلامها قائلاً « ان الجند لا ينفع شيئاً بدونك »

ففهمت ان هانئاً لا يريد فراقها وتذكرت شدة حبه لها فهان عليها فراق والدتها وسمعته سالمة يقول ذلك فلحظت أنهُ يحبها ولكنها كانت تثق بشهامته وتعلم منزلته عند عبدالرحمن وازدادت وثوقاً به لما رأت عبد الرحمن اذن له ان يرافق مريم الى هذا الدير

ولما استعدت للخروج قالت لهانيء « اذهب أيها الامير بمريم قبل ذهابي ... »

قال « العفو أيتها الملكة الجليلة ... اني لا اخطو خطوة قبل ان اراك ذاهبة باكرام ورعاية والاَّ فلا يأخذنوك وفيَّ عرقٌ ينبض ... »

قالت « ثق اني سأذهب مكرمة وسأقيم هناك لا أقول مكرمة ولكني لا أخاف بأساً لان اود يعرف من انا وارجو ان يكون مكثي في معسكر اود هذه المرة مثمراً مثل

مكثي المرة الماضية فقد كشفت فيه سرّاً اكشف عنا شرّاً عظيماً »

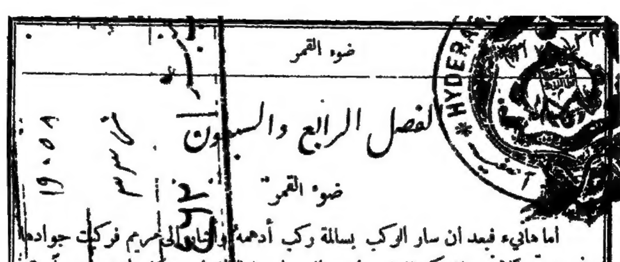
قال « ربما كان ذلك ولكنني استحي من نفسي ان اخرج من هذا الدير وحوله الجند يطلبونك فاذا كنت لا تسمحين ان امنعهم من اخذك أفلا تأذنين لي ان أراك ذاهبة معهم ؟ »

قالت مريم « ان هانئاً مصيب برأيه »

قالت سالمة « فلأذهب اذاً الى رئيس الدير لوداعه فانتظراني في الحديقة .. »

قالت ذلك وخرجت فتبعاها فتحولت هي الى غرفة الرئيس ونزلا هما الى الحديقة وكانت مضيئة بالاقباس. وطلب هانيء من البواب ان يستحضر بالجوادين فامر فجيء بهما فدفع هانيء اليه صرة فيها دنانير فاستأنس البواب بذلك الكرم وأمر الخادم ان يحسن العناية بالجوادين . فوقف بهما وجواد هانيء يتجلى كالعروس بما عليه من العدة المتقنة وما في عنقه من القلائد والعقود . وما على عدته من الحجارة الكريمة وخصوصاً اللؤلؤة الكبيرة المصوغة على شكل النجمة فوق جبهته ناهيك بلجامه المذهب وما على صدره من سلاسل الفضة وهو أدهم شديد السواد فاسبح كأنه ليل تتلألأ فيه النجوم وكان هانيء واقفاً الى جانبه ينظر اليه نظرة والى مريم نظرة أخرى. ولم يبق احد من اهل الدير في تلك الحديقة او بقرب الباب الاّ وقد جاء ينظر الى الادهم والى صاحبه وكلاهما غريب عندهم. وكأن الادهم ادرك اعجاب الناس به فازداد دلالاً واخذ يضرب الارض بيمناه ويصهل ويشخر كانهُ يطلب النزال او كانه فهم من صهيل الخيول حول سور الدير انهم اعداء صاحبه فأخذ يهددهم به . اما مريم فقد كادت تنسى فراق والدتها قبل ذهابها لاشتغال خاطرها بحب هانيء وخصوصاً بعد هذه السفرة وقد تحققت انها عربية الاب ملوكية الحسب فتذكرت المحفظة فافتقدتها — وعادت الى هواجسها

وبعد قليل سمعوا ضوضاء داخل الدير ثم خرج بعض الخدم يحملون الشموع ووراءهم جماعة من الرهبان يسيرون بين يدي سالمة ورفيقها الراهب وساروا بهما الى باب السور فمروا بهاني ومريم فحيتهما سالمة ومشت حتى خرجت من الباب وكانوا قد اعدّوا لها جواداً ركبته وركب الراهب جواداً آخر وضرب بالبوق فاجتمع الفرسان الافرنج ومشوا الى جانبيهما وبعضهم الى ورائهما برعاية وإكرام وهانيء ومريم ينظران. واحست مريم في تلك اللحظة ان امها اقتلعت من قلبها فغلب عليها البكاء ولكنها كتمت بكاءها



الفصل الرابع والسبعون

ضوء القمر

اما هاني‌ء فبعد ان سار الركب بسالمة ركب أدهمه والتفت الى مريم فركبت جوادها وخرجا وتحوّلا نحو المعسكر فلما بعدا عن الدير احسا بالانفراد • وكان الليل مقمراً وقد صفا الجو وهدأت العناصر وسكن الهواء كأن الطبيعة شاركتهما في التهيب والاعتبار • فلم يسمعا الا وقع حوافر الجوادين على التراب • وكأن الجوادين أحسا عا يتقد على ظهريهما من لواعج الغرام فاعتبرا وطأطأ ومشيا مشية الاحترام والحب سلطان تطأطئ له الهام — ظل الحبيبان مدة صامتين تهيباً من منظر الطبيعة وتفكيراً عا رأياه وسمعاه تلك الليلة من الامور الهامة وقد اعجبهما الاطلاع على ذلك السر فاصبح ارتباطهما بعده اوثق منهُ قبلهُ • وقد علما انهما اقرب نسباً واوثق عهداً واحست مريم أنها مطالبة بنصرة العرب عملاً بوصية والدها

فلما اقتربا من المعسكر رأيا نيرانه ولم تكن تتظاهر لهم عن بعد لتغلب ضوء القمر فاسف هانيء لوصوله الى المعسكر قبل ان يخاطب مريم بشيء بعد ما عرفه من امرها • فامسك شكيمة جواده ليسير الهوينا فاقتدت به مريم وهي تتوقع ان تسمع منه شيئاً فاذا هو يقول على سبيل المداعبة « أراك صامتة يامريم ألعل ما علمته من شرف أصلك خفف شيئاً من حبك ؟ »

فأوقفت جوادها بغتة ونظرت اليه كأنها تستطلع قصده من تلك العبارة فلما رأته يبتسم علمت انه يمازحها ولكنها قالت « اذا سامتُ بشرف اصلي فلا فضل لي بشرف ورثته من الاجداد وانما الشريف من نال الشرف بحد حسامه كما ناله الامير هاني ... »

فقال وقد هاجت عواطفه وهو يمسك جواده عن المسير والجواد لا يطيعهُ « فانت اذاً صاحبة الشرف طارفاً وتليداً فقد رأيتُ منك في واقعة دردون مايعجز عنه اعاظم الفرسان فسبحان من جمع فيك شجاعة الرجال ورقة النساء »

فقطعت كلامه وقالت « اني لم أفعل شيئاً ياهانيء واذا ساعدتني الاقدار سأتفانى في انفاذ وصية ابي ولو لم اكن ذكراً كما قال فان الشجاعة لم تختص بالذكور دون الاناث • آه ياهاني‌ء ... » وسكتت كأنها تكتم أمراً

4631
5/D